

المَحَبَّةُ الْبَيْضَاءُ

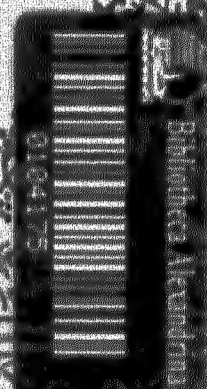
في تهذيب الأحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير المحكم المتأله
محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الكاشاني

الوفاء ١٨١٠ هـ
قدس سره

مكتبة
موسسة الأعلیٰ للطبوعات
مکینوت - لہستان







الْمَحْجَرُ الْبَيْضَاءُ

فِي هَذَيْنِ الْأَخْيَارِ

تأليف

لمحقق العظمى والمحدث الكبير الحكيم آية الله محمد بن الرضا المصطفى المدعو

بِأَمْرِ الْمُحَسِّنِ الْكَاشِفِ

المؤلف ١٠٩١ هـ

صححه وعلق عليه على أكبر الفقهاء

الحجرات السبع

منشورات

مؤسسة الأعلی للطبوعات

بيروت - لبنان

٧١٢٠ ص

الطبعة الثانية
حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للناسر
١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

كتاب التوبة

و هو الكتاب الأول من ربع المنجيات من المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

نحمد الله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب ، و يذكره يصدّر كل خطاب ،
و بحمده ينتعم أهل النعيم في دار الثواب ، و باسمه يتسلى الأتقياء ، و إن أرخى
دونهم الحجاب ، و ضرب بينهم و بين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة
و ظاهره من قبله العذاب ، و نتوب إليه توبة من يؤمن أنّه ربّ الأرباب ، و مسبّب
الأسباب ، و نرجوه رجاء من يعلم أنّه الملك الرحيم الغفور التواب ، و نمزج رجاءنا
بالخوف مزج من لا يرتاب ، إنّ مع كونه غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ،
و نصلي على نبيّه محمد ﷺ و على آله و صحبه الأكرمين ، صلاة تنقذنا من هول
المطلع يوم العرض والحساب ، و تمهد لنا عند الله زلفى و حسن مآب .

أما بعد فإنّ التوبة عن الذنوب بالرّجوع إلى ستار العيوب و علام الغيوب
مبدء طريق السالكين و رأس مال الفائزين ، أوّل إقدام المرئيين ، و مفتاح استقامة
المائلين ، و مطلع الاصطفاء و الاجتناء للمقرّين ، و لا بينا آدم عليه السلام و على سائر النبيّين ،
و ما أجدر بالأولاد الاقتداء بالأباء و الأجداد ، فلا غرو إن أذنب آدمي واجترأ ، ففي
شنشنة يعرفها من أخزم ، و من أشبه أباء فما ظلم ، ولكنّ الأب إذا جبر بعد أن كسر
و عمر بعد أن هدم فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي و الإثبات و الوجود و العدم ،
و لقد قلّع آدم سنّ الندم ، و تندّم على ما سبق منه و تقدّم ، فمن اتّخذ قدوة في الذنوب
دون التوبة فقد زلّت به القدم ، بل التجرّد ملحض الخير دأب الملائكة المقرّين ،

والتجرد للشر دون التلافي سجيّة الشياطين ، والرّجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين ، فالمتجرد للخير ملك مقرّب عند الملك الدّيان ، والمتجرد للشرّ شيطان ، والمتلافي للشرّ بالرّجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان واصطحبت فيه سجيّتان ، وكلّ عبد مصحّح نفسه إمّا إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان على صحّة نسبه إلى آدم بملازمة حدّ الإنسان ، والمصرّ على الطغيان مسجّل على نفسه بنسب الشيطان فأتمّ تصحيح النسب بالتجرد لملحض الخير إلى الملائكة فخارج عن حيّز الإمكان فإنّ الشرّ معجون مع الخير في طينة آدم عجنًا محكمًا لا يخلصه إلّا إحدى النارين : نار النّدم أو نار جهنم ، فاحراق النّار ضروريّ في تلخيص جوهر الإنسان عن خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون الشرّين والمبادرة إلى أحفّ النّارين قبل أن يطوى بساط الاختيار ويساق إلى دار الاضطرار ، إمّا إلى الجنّة أو إلى النّار ، وإذا كانت التوبة موقعها من الدّين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات ولنشرح حقيقتها وشرطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسّرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان :

الرّكن الأوّل في نفس التوبة وبيان حدّها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال ، وأنها إذا صحّت كانت مقبولة .

الرّكن الثّاني فيما عنه التوبة وهو الذّنوب وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر ، وما يتعلّق بالعباد وما يتعلّق بحقّ الله ، وبيان كميّة توزّع الدّرجات و الدركات على الحسنات والسيّئات ، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر .

الرّكن الثّالث في بيان شروط التوبة في دوامها وكميّة تدارك ما مضى من المظالم ، وكميّة تكفير الذّنوب ، وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة .

الرّكن الرابع في السبب الباعث على التوبة وكميّة العلاج في حلّ عقدة الإصرار من المذنبين ويتمّ المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله تعالى .

الرّكن الأوّل في نفس التوبة :

﴿ بيان حقيقة التوبة وحدها ﴾

إعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم وحال وفعل ، فالعلم أول الحال ثان والفعل ثالث ، والأول موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت ، أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب فإذا عرف ذلك معرفة محققة يبين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال و بالماضي والاستقبال ، أما تعلقه بالحال فبالترك ، للذنب الذي كان ملازماً له ، و أما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر ، و أما بالماضي فبتلافي مافات بالجبر والقضاء وإن كان قابلاً للجبر ، فالعلم هو الأول و هو مطلع هذه الخيرات ، وأعني بهذا العلم الايمان واليقين ، فإن الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه و استيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم به القلب حيث يبصر بأشراق نور الايمان أنه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس و قد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرق على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه فتنبعث تلك النيران بأرادته للانتهاض للندارك ، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول يطلق اسم التوبة على مجموعها ، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة و الترك كالثمررة والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قال عنه عليه السلام : « الندم توبة » ^(١) إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره و عن عزم يتبعه و يتلوه

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٢ . والحاكم ج ٤ ص ٢٤٣ و صحيح اسناده .

فيكون الندم مخفواً بطرفيه أعنى ثمرته ومثمره .

❖ (بيان وجوب التوبة وفضلها) ❖

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات ^(١) وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتد على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة ، فالسالك إما أحمى لا يستغني عن القائد في كل خطوة ، وإما بصير يهdy إلى أول الطريق ثم يهتدي بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام ، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتخير ، فسير هذا وإن طال عمره وعظم جدّه مختصر وخطاه قاصرة ، ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه يتنبه بأدنى إشارة لسلوك طرق معوصة وقطع عقبات متعبة ، فيشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان وهو لشدة نور باطنه يجتري بأدنى بيان ، وكأنه يكاد زيتنه يضيء ، ولولم تمسسه نار فاذا مسسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، فهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ثم إلى الوجوب مامعناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة ، فلا يشك في ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى ، وقول القائل صار واجباً بالإيجاب حديث محض ، فإن ما لا غرض لنا عاجلاً وآجلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أو جبه علينا غيرنا أولم يوجبه ، فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أنه لا سعادة في دار البقاء إلا

(١) راجع الدر المنثور ج ٥ ص ٤٤ ذيل قوله تعالى « توبوا إلى الله جميعاً أيها

المؤمنون » . وتفسير البرهان ج ٤ ص ٣٥٥ ذيل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا توبوا

إلى الله توبة نصوحاً » والكافي باب التوبة ج ٢ ص ٤٣١ .

في لقاء الله ، و أن كل محجوب عنه يشقى لاحالة محول بينه وبين ما يشتهي ، محترق بنار الفراق و نار جهنم ، و علم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات و الأنس بهذا العالم الفاني و الإكباب على حب ما لا يبد من فراقه قطعاً و علم أنه لا مقرّب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم و الإقبال بالكلفة على الله تعالى طلباً للأنس به بدوام ذكره و للمحبة له بمعرفة جلاله و جماله على قدر طاقته و علم أن الذنوب التي هي إعراس عن الله تعالى و اتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب و إنما يتم الانصراف بالعلم و الندم و العزم ، فإنّه مالم يعلم أن الذنوب أسباب للبعد عن المحبوب لم يتندّم ولم يتوجّع بسبب سلوكه في طريق البعد و مالم يتوجّع فلا يرجع و معنى الرجوع الترك و العزم فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة و أمّا من لم يترشّح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ففي التقليد و الاتباع له مجال رحب يتوصّل به إلى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله و قول رسوله و قول السلف الصالحين ، فقد قال الله تعالى : « و توبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلكم تفلحون » (١) و هذا أمر على العموم ، و قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم - الآية - » (٢) و معنى النصوح الخالص لله ، خالياً عن الشوائب ، مأخوذاً من النصح ، و يدل على فضل التوبة قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين و يحب المتطهرين » (٣) . و قال رسول الله ﷺ : « التائب حبيب الله . و التائب من الذنب كمن لا ذنب له » (٤) .

(١) النور : ٣١ . (٢) التحريم : ٨ . (٣) البقرة : ٢٢٢ .

(٤) أخرج شطره الاول ابن أبي الدنيا في التوبة و ابوالشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف هكذا « ان الله يحب الشاب التائب » كما في الغنى و شطره الثاني بلفظه أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٠ ، والطبراني في الكبير بسند صحيح كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٠ .

و قال رسول الله ﷺ : « الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دَوِّيَّة ^(١) مهلكة معه راحلته عليها طعامه و شرا به فوضع رأسه فنام فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر و العطش أو ماشاء الله قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده و شرا به ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » ^(٢) . و في بعض الألفاظ قال من شدة فرحه إذا أراد شكر الله « أنا ربك و أنت عبدي » ^(٣) .

و يروى أنه لما تاب الله على آدم عليه السلام هبته الملائكة فهبط عليه جبرئيل وميكائيل فقالا : يا آدم قررت عينك بتوبة الله عز وجل عليك ، فقال آدم : يا جبرئيل فان كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي فأوحى الله إليه يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب و ورثتهم التوبة فمن دعائي منهم لبئس كنسبتيك ومن سألتني المغفرة لم أبخل عليه لأنني قريب مجيب ، يا آدم و أحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعائهم مستجاب . والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى .

أقول : و من طريق الخاصة مارواه في الكافي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال : « إن الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها فالله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها » ^(٤) . وعن الصادق عليه السلام « إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالته إذا وجدها » ^(٥) .

وعنه عليه السلام في قوله تعالى « توبوا إلى الله توبة نصوحاً » قال : « هو الذنب الذي

(١) - بفتح الدال المهملة وتشديد الواو والياء جميعاً - منسوب الى الدو بتشديد الواو وهى البرية التى لا نبات فيها . والدواية هنا على ابدال أحد الواوين ألفا كما قيل فى النسب الى طلى طامى . (قاله السنوسى)

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٢ من حديث عبدالله بن مسعود .

(٣) أخرجه أيضاً مسلم ج ٨ ص ٩٣ من حديث أنس .

(٤) و (٥) المصدر ج ٢ ص ٤٣٥ و ٤٣٦ تحت رقم ٨ و ١٣ .

لا يعود فيه أبداً . قيل : وأينما لم يعد ؟ قال : يا فلان إن الله يحب من عباده المفتتن التواب ، ^(١) . وفي رواية أخرى « ومن لا يكون ذلك منه كأن أفضل » ^(٢) .

وعنه عليه السلام قال : « إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه ، قيل : وكيف يستر عليه ؟ قال : ينسى ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحى الله إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكنمي عليه ذنوبه فيلقى الله تعالى حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب » ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام « النائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزئ » ^(٤) .

و عن بعض أصحابنا رفعه قال : « إن الله أعطى التوابين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجواها قوله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ^(٥) فمن أحبه الله لم يعذبه وقوله : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا - إلى قوله - ذلك هو الفوز العظيم » ^(٦) وقوله تعالى : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق - إلى قوله - وكان الله غفوراً رحيماً » ^(٧) . قال أبو حامد : والاجماع منعقد من الأمة على وجوبها إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله وهذا داخل في وجوب الإيمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ماسبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لاشك في وجوبه . وأما التندم على ماسبق والتحرز عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلافي فكيف لا يكون واجباً بل هو نوع

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٣٢ تحت رقم ٤ . والمعنى التوبة من الذنب . الذي لا يعود .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٣٥ تحت رقم ٩ .

(٣) و (٤) المصدر ج ٢ ص ٤٣٦ تحت رقم ١٢ و ١٣ .

(٥) البقرة : ٢٢٢ . (٦) المؤمن ٧ إلى ١٠ .

(٧) الفرقان : ٦٨ إلى ٧٠ .

ألم يحصل لاحالة عقيب حقيقة المعرفة بمافات من العروضا في سخط الله ، فإن قلت : تألم القلب أمرٌ ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب ؟ فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه ، ولمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب ، لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإن ذلك محال بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدره والقادر ، والكل من خلق الله وفعله « فالله خلقكم وما تعملون » هذا هو الحق عند ذوي البصائر وما سوى هذا ضلال ، فإن قلت : أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك ؟ قلنا : نعم وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله بل الاختيار أيضاً من خلق الله والعبد مضطر في الاختيار الذي له فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام مسكن للشهوة وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة و هل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ، ثم خلق العلم بأنه لمانع ، فعند اجتماع هذه الأسباب تنجز الإرادة الباعثة على التناول فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد قوة الشهوة للطعام يسمى اختياراً ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله إياها تحررت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة إذ بعد تمام الإرادة والقدره يكون حصول الفعل ضرورياً فتحصل الحركة فيكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدره وانجزام الإرادة وهما أيضاً من خلق الله وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع ، وهما أيضاً من خلق الله ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيباً أجرت به سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمى قدره ومالم يخلق فيها حياة ومالم يخلق إرادة مجزومة ولا يخلق الإرادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلاً في النفس ، ولا ينبعث هذا الميل انبعثاً تاماً مالم يخلق علماً بأنه موافق للنفس إما في الحال وإما في المآل ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع

الإرادة الجازمة والإرادة والقدرة أبدأ تستردف الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والكل من اختراعات الله ولكن بعض مخترعاته شرط لبعض فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم ، و يكون خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ، و يكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم لأن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حياً و يكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة لأن العلم يولد الإرادة ، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم ، ولا يدخل في الوجود إلا ممكن ، وللا يمكن ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة وهي مرتبة في قضاء الله الذي هو واحد كلمح بالبصر ترتيباً كلياً لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدّر بقدر لا يتعدّها وعنه العبارة بقوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر »^(١) وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر »^(٢) وأما العباد فهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد ، و بعد خلق علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة فإذا ظهرت من عالم الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا : يا أيها الرّجل قد تحرّكت وكتبت ورميت ونودي من وراء حجب الغيب وسراقات الملكوت « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وما قتلت إذ قتلت ولكن « قاتلوهم يعدّ بهم الله بأيديكم » وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحه عالم الشهادة فمن قائل أنه جبر محض ومن قائل أنه اختراع صرف ومن متوسط

قائل إلى أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب و الملكوت
 لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجهه وأن القصور شامل لجميعهم فلم يدرك
 واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحيط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال بإشراق النور من
 كوة نافذة إلى عالم الغيب وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً
 إلا من ارتضى من رسول وقد يطالع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ، ومن
 حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها
 بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علماً يقينياً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع
 سواه .

فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب
 بأنه صادق من وجهه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل
 يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟ .

فاعلم أن جماعة من العميان سمعوا أنه قد حمل إلى البلد حيوان عجيب يسمى
 الفيل وما كانوا قد شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا : لا بد لنا من مشاهدته
 ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه فطلبوه فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان
 على رجله و وقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما
 انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلف أجوبتهم فقال الذي لمس الرجل : إن الفيل
 ماهو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها ، وقال الذي لمس الناب : ليس
 كما يقول بل هو صلب لالين فيه و أملس لخشونة فيه ، و ليس في غلط الأسطوانة
 أصلاً بل هو مثل عمود . وقال الذي لمس الأذن : لعمرى هولين وفيه خشونة فصدق
 أحدهما فيه ولكن قال : ماهو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة ، وإنما هو مثل جلد
 غليظ عريض . فكل واحد من هؤلاء صدق من وجهه إذ أخبر كل واحد عما أصابه
 من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ولكنهم بجملتهم قصرُوا
 عن الإحاطة بكل صورة الفيل .

فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر ما يختلف الناس فيه ، وإن كان

هذا كلاماً يناطح ^(١) علوم المكاشفة ويحرّك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنّا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة : العلم و الندم و الترك و أن الندم داخل في الوجوب لكونه واقعاً في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد و إرادته و قدرته المتخلّلة بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمل .

﴿ بيان أن وجوب التوبة على الفور ﴾

أمّا وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان و هو واجب على الفور و المتقصّي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل فإنّ هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لاتتعلّق بعمل بل من علوم المعاملة ، و كلّ علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التفصّي عن عهده مالم يصرباعثاً ، فالعلم بضرر الذنوب إنّما أريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن » ^(٢) وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله و وحدانيته وصفاته و كتبه و رسله فإنّ ذلك لا ينافي الزني و المعاصي و إنّما أراد به نفي الإيمان لكون الزني مبعداً عن الله و موجباً للمقت كما إذا قال الطبيب : هذا سمٌ فلا تناوله فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، لا بمعنى أنّه غير مؤمن بوجود الطبيب و كونه طبيباً و غير مصدّق به بل المراد أنّه غير مصدّق بقوله إنّّه سمٌ مهلك ، فإنّ العالم بالسم لا يتناوله أصلاً ، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان و ليس الإيمان باباً واحداً بل هو نيّف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الإنسان موجوداً واحداً بل هو نيّف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها إمطة الأذى عن البشرية بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار تقيّ البشرة عن الخبث حتّى يتميّز عن البهائم المرسلّة المتلوّثة بأروائها المستكرهة الصور بطول مخالبتها وأظلافها هذا مثال

(١) ناطحة أي دفعه .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة و رواه الترمذی ج ١٠ ص ٩١ .

مطابق ، فالإيمان كالإنسان وقد شهد التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقده الروح والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرئاسة هو كالإنسان مقطوع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أعضائه الظاهرة و الباطنة لا أصل الروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدّها وتقوّيها ، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصّر في الأعمال قريب من أن تنقلع شجرة إيمانه إذا صدمتها رياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدّمة قدوم ملك الموت و ورده ، فكلّ إيمان لم يثبت في النفس أصله و لم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة إلا ماسقياً بماء الطاعات على توالي الأيام والساعات حتّى رسخ وثبت . وقول العاصي للمطيع : إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر : أنا شجرة وأنت شجرة وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقلع أصولك و تتناثر أوراقك و ينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار ، وسوف ترى «إذا انجلي الغبار في أفرس تحتك أم حار» فهذا أمر يظهر عند الخاتمة و إنّما تقطعت نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت و مقدّماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون فالعاصي إذا كان يخاف الخلود في النار بسبب معصية كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته و أن الموت غالباً لا يقع فجأة فيقال له : الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت ، فكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء وجب الخلود في النار فالعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان فلا تزال تجتمع في الباطن فتغيّر مزاج الأخطا وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكذلك المعاصي فإن كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم و ما يضره من المأكولات في كلّ حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك و إن كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع

عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الغانية ، فمتناول سموم الدّين وهي الذّنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر فإنّ المخوف من هذا السمّ فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تنصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشر مدتهما إذ ليس لمدتها آخر البتّة ، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذّنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه اختيار الأطباء ولا ينفع بعده الاحتماء ، فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين وعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنّه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ » وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون « (١) ولا يغيرنك لفظ الإيمان فتقول : المراد به الكافرون إذ بين لك أنّ الإيمان بضع وسبعون باباً وأنّ الرّزني لا يزني حين يزني وهو مؤمن ، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل ، كما أنّ الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي فروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الأصل ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد وهو أنّ وجود الفرع وبقائه جميعاً يستدعي وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع ولكن بقاءه يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل ، فعلمو المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الأصل والفرع فلا يستغني أحدهما عن الآخر ، وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع ، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فإنّها لم تعمل عملها الذي يراد له ثمّ قامت مؤيِّدة للحجّة على صاحبها ، ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من

الأخبار في كتاب العلم .

✽ (ان وجوب التوبة عام) ✽

✽ (في الاشخاص و الاحوال فلا يترك عنه أحد البتة) ✽

إعلم أن ظاهر الكتاب قد دلّ على هذا إذ قال تعالى : « و توبوا إلى الله جميعاً » ^(١) فعمّم الخطاب ، ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله تعالى المقرّب إلى الشيطان ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ولا يكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المنهومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ ومبادئه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة ، وإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لا يثبت أحدهما للآخر فانهما ضدّان فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة ، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به انس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة و غلب ذلك عليه وتعرّس عليه النزوع عنه ، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج ، فإن لم يقولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأتجز اللعين موعوده حيث قال : « لأحتنكن ذريته إلا قليلاً » ^(٢) وإن قوي العقل وكمل كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات وردّ الطبع على سبيل القهر والغلبة إلى العبادات ولا معنى للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيّره الشيطان ^(٣) إلى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدّة للشيطان متقدّمة على غريزته التي هي عدّة الملائكة فكان الرجوع مما سبق إليه على مساعدة الشهوات

(١) النور : ٣١ .

(٢) الاسراء : ٦٥ .

(٣) التغيير : البجار والعافظ والمعاصي .

ضرورياً في حق كل إنسان فاذا ن كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من كفره و جهله ، فان بلغ مسلماً تبعاً لا بويه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة عن غفلته بتفهم معنى الإسلام فانه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسه ، فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته و إلفه للاسترسال و راه الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع و الاطلاق و الانكفاف و الاسترسال و هو من أشق أبواب التوبة و فيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه ، و كل هذا رجوع و توبة فدل أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغن عنها آدم ، فخلقة الولد لا يتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلاً.

وأما بيان وجوبها على الدوام و في كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب ، فان خلا عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المنفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة و قصور في العلم بالله و بصفاته و آثاره ، و كل ذلك نقص وله أسباب و ترك أسبابه بتشغل أصدادها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون في المقادير ، فأما الأصل فلا بد منه ولهذا قال وَاللَّهُ يَتَذَكَّرُ « إنه ليغان على قلبي ^(١) حتى أستغفر الله تعالى في اليوم و الليلة سبعين مرة » ^(٢) و لذلك أكرمه الله بأن قال : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ^(٣) وإذا

(١) قال البزري : النين : النيم و غينت السماء تنان اذا طبق عليها النيم ، وقيل : النين شجر ملتف . أراد ما يشاء من السهو الذي لا يخلو منه البشر لان قلبه ابدأ كان مشغولاً بالله تعالى ، فان عرض له وقتاً عارض بشرى يشغله من امور الامة و الملة و مصالحهما عد ذلك ذنباً و تقصيراً فيفزع الى الاستغفار .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٧٢ من حديث الاغر المزني الا أن فيه « في اليوم مائة مرة » كذا عند أبي داود ، ولكن في النهاية الاثرية كما في المتن .

(٣) الفتح : ٢ .

كان هذا حاله فكيف حال غيره .

أقول: قد بيّنا في كتاب قواعد العقائد من ربح العبادات أن ذنب الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ليس كذنوبنا بل إنما هو ترك دوام الذكر والاشتغال بالمباحات وحرمانهم زيادة الأجر بسبب ذلك ، روى في الكافي بسند حسن عن علي بن رثاب قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » أرأيت ما أصاب علياً عليه السلام وأهل بيته من بعده أهوباً كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب إن الله يخص أوليائه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب ، ^(١) يعني كذنوبنا .

وبإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، فقال : يا أبا عبد الله تسلمه والله من المؤمن على بدنه ولا يسلم على دينه وقد سلط على أيوب فشوه خلقه ولم يسلم على دينه وقد يسلم من المؤمنين على أبدانهم ولا يسلم على دينهم ، ^(٢) .

قال أبو حامد : فإن قلت : لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهمم والخواطر نقص وأن الكمال في الخلو عنه وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وأنه كلما زادت المعرفة زاد الكمال وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع و الرجوع توبة ولكن هذه فضائل لأفرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه الأمور ليست واجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال ؟ فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدئه فطرته عن اتباع الشهوات أصلاً وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ماضى وكل شهوة أتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما

(١) المصدر ج ٢ ص ٤٥٠ تحت رقم ٢ . و الآية في سورة الشورى : ٢٩ .

(٢) المصدر ج ٨ (كتاب الروضة) ص ٢٨٨ و الايات في سورة النحل ٩٨ و ٩٩ .

يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة فإن ترا كمت ظلمة الشهوات صارت ريناً كما يصير يخار النفس في وجه المرأة عند ترا كمة خبثاً كما قال تعالى : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »^(١) فإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل التصقيل بعده وصار كالطبوع من الخبث ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب كما لا يكفي في ظهور الصور في المرأة قطع الأقماس و البخارات المسوذة لوجهها في المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الأريان ، وكما ترتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي و الشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات و ترك الشهوات ، فنتمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله ﷺ « أَتَبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا »^(٢) فإذن لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات هذا في قلب حصل أولاً صفاؤه و جلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة فأنما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصداء عن المرأة كمشغله في عمل أصل المرأة ، فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأنما قولك إن هذا لا يسمي واجباً بل هو فضل و طلب كمال ، فاعلم أن الواجب له معنيان أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع و يشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل كافة الخلق به لم يخرب العالم ولو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعاش و رفضوا الدنيا بالكليّة ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكليّة فإنه مهما فسدت المعاش لم يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياة و الحراثة و الخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه فجميع هذه الدرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار . والواجب الثاني

(١) المطففين : ١٤ .

(٢) رواه الترمذي بزياده في اوله و زياده في آخره وقال حسن صحيح . وقد تقدم

في كتاب رياضة النفس .

هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين و المقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال : الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن يريد ها فانه لا يتوصل إليها إلا بها فأما من رضي بالنقصان و الحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال : العين والأذن واليد والرّجل شرط في وجود الانسان يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بانسانيته ويتوصل بها إلى الدرجات العلى في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة و رضي بأن يكون كلحم على وضوء^(١) وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين و يد ورجل ، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة و ماوراء أصل النجاة من السعادات التي بها يتهيأ النجاة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها يتهيأ الحياة وفيه سعي الأنبياء و الأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، و عليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكليّة حتى انتهى عيسى صلوات الله عليه إلى أن توسد حجراً في منامه فجاء إليه الشيطان و قال : أما كنت تركت الدنيا لآخرة ؟ فقال : نعم وما الذي حدث ؟ فقال : توسدك لهذا الحجر تنعم بالدنيا فلم لاتضع رأسك على الأرض فرمى عيسى بالحجر و وضع رأسه على الأرض وكان رميه الحجر توبة عن ذلك التمتع ، أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً في فتاوى العامة ، فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله وإياك مرة واحدة أن تغررك الحياة الدنيا وإياك ثم إياك ألف مرة أن يغررك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استنشق مبادي روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح لازم للعبد السالك في كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح و أن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ولقد صدق من قال : لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ماضى منه في غير طاعة الله لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات فكيف من يستقبل ما بقي من

(١) الوضوء : خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم .

عمره بمثل ماضى من جهله . و إنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة إذا ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها بالامحالة وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكأوه منه أشد ، و كل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فأنها سالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد ويتقذك من شقاوة الأبد وأي جواهر أنفس من هذا فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيهاً وإن صرفتها إلى معصية فقد هلكك هلاكاً فاحشاً فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته و الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ، ولكل مصاب مصيبته ، وقد وقع اليأس عن التدارك . قال بعض العارفين : إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمره ساعة وأنت لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الحزن والأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذاق غيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعقب فيها ويتدارك تعريضه فلا يجد إليها سبيلاً وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى : « و حيل بينهم و بين ما يشتهون » (١) و إليه الإشارة بقوله تعالى : « من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها (٢) ففيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد : يا ملك الموت أخرني يوماً أعتمد فيه إلى ربي و أتوب و أتزوّد صالحاً لنفسي ، فيقول : فنيث الأيام فلا يوم ، فيقول : أخرني ساعة فيقول : فنيث الساعات فلا ساعة ، فيغلق عليه باب التوبة فيفرغ ربه و روحه و يتردد أنفاسه في شرا سيفه و يتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضییع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال فإذا زهقت نفسه فإن كانت سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد و ذلك حسن الخاتمة ، و إن سبق له القضاء بالشقوة - و العياد بالله - خرجت روحه على الشك

(١) سبأ : ٥٤ .

(٢) المناقین : ١١ و ١٢ .

والاضطراب وذلك سوء الخاتمة و لمثل هذا قال سبحانه و تعالى : « و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنني تبت الآن » بل التوبة كما قال تعالى : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (١) و معناه عن قريب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها و يمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرّين على القلب فلا يقبل المحو و لذلك قال ﷺ « أتبع السيئة الحسنة تمحها » و لذلك قال لقمان لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ، و من ترك المباددة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطيرين عظيمين أحدهما أن يتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريئاً و طبعاً فلا يقبل المحو ، والثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو و لذلك ورد في الخبر « أن أكثر صياح أهل النار من التسوية » (٢) فما هلك من هلك إلا بالتسوية فيكون تسويده للقلب نقداً و جلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الأجل فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده و العمر أمانة الله عنده و كذا سائر أسباب الطاعة ، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيائته فأمره مخطر .

قال بعض العارفين : إن الله تعالى إلى عبده سرّين يسرهما إليه على سبيل الإلهام أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا ظاهراً نظيفاً و استودعتك صرك و ائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة ، و انظر كيف تلقاني . والثاني عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب . و إليه الإشارة بقوله تعالى : « أوفوا بعهدي أوف بعهدكم » (٣) و بقوله تعالى : « والذينهم لأماناتهم وعهدهم راعون » (٤) .

(١) النساء : ١٩ و ١٨ .

(٢) قال العراقي : لم أجده أصلاً .

(٣) البقرة : ٤٠ .

(٤) المؤمنون : ٨ .

﴿ بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لامحالة ﴾

إِعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجهه الله ، وعلموا أن القلب خلق سليماً في الأصل فكل مولود يولد على الفطرة وإِنما تقوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة و أنه لاطاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لاطاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، فكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره و كما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدُموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه ، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فإِنما عليك التزكية والتطهير فأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لامرء له وهو المسمى فلاحاً في قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون » (١) وقوله « قد أفلح من زكّاها » (٢) و من لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضاداً يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل و يستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً لا يتصور الجمع بينهما ، فكأنه لم يعرف من الدين إلا قشوره ولم يعلق بقلبه إلا أسماؤه و قلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه و من جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى به قلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره و هو لا يعرف نفسه فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول

(١) المؤمنون : ٢ .

(٢) الشمس : ١٠ .

والثوب يغسل بالصّابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله ، فلا يقوى الصّابون على قلعه ، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً وريناً على القلب ، فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قديقول باللسان ثبت فيكون ذلك كقول القصّار بلسانه قد غسّلت الثوب وذلك لا ينظّف الثوب أصلاً ما لم يغيّر صفة الثوب باستعمال ما يضادّ الوصف المتمكّن منه فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافّة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكليّة ، فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة ولكننا نعصد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكلّ استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به فقد قال الله تعالى : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده »^(١).

وقال : « عاف الذّنْب وقابل التوب »^(٢) إلى غير ذلك من الآيات .

وقال ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده الحديث »^(٣) والفرح وراء القبول

فهو دليل على القبول وزيادة .

وقال ﷺ : « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »^(٤) و بسط اليد كناية عن طلب التوبة ، والطالب وراء القابل فربّ قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل .
وقال ﷺ : « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم »^(٥).

وقال ﷺ أيضاً : « إن العبد ليذنب الذّنْب فيدخل به الجنة ، قيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يكون نصب عينه تائباً منه فارّاً فما زال حتى يدخل

(١) الشورى : ٢٤ . (٢) غافر : ٣ . (٣) تقدم أول هذا الكتاب .

(٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٠٠ من حديث أبي موسى بلفظ « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار » وقال العراقي : وفي رواية للطبراني « لمسيء الليل أن يتوب بالنهار » .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٤٨ بلفظ « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتتم لتاب عليكم » وسنده حسن .

الجنة» (١).

وقال عليه السلام : « كفارة الذنب الندامة » (٢).

وقال عليه السلام : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » (٣).

ويروى « أن حبشياً قال : يا رسول الله إنني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة ؟ قال : نعم فقال : تبت فولّيت ، ثم رجعت فقال : يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها ، قال : نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها نفسه » (٤).

ويروى « أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال : و عزّتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى : وعزّتي وجلالي لأحجب عنه التوبة مادام فيه الروح » (٥).

وقال عليه السلام : « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » (٦) والأخبار في هذا مما لا تحصى .

أقول ومن طريق الخاصة مارواه في الكافي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان قلت : فإن عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب وعاد في التوبة فقال : يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه و يستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته ؟ قلت : فإنه فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب ويستغفر ؟ فقال : كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله تعالى عليه بالمغفرة ، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد عن الحسن مرسل كما في الجامع الصغير .

(٢) أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٠ وقد تقدم .

(٤) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

(٥) أخرجه أبو يعلى والحاكم ج ٤ ص ٢١٦ بلفظ آخر وصححه من حديث أبي سعيد .

(٦) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى « اتبع

السيئة الحسنه تمنحها » كما تقدم .

السيئات ، فإيتاك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله » (١) .

و عن الصادق عليه السلام قال : « العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء ، وإن مضت الساعات و لم يستغفر كتبته عليه سيئة ، وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له ، وإن الكافر لينساه من ساعته » (٢) و في رواية أخرى « وإنما يذكره ليغفر له » (٣) .
وعنه عليه السلام « ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول و هو نادم : « استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض ذوالجلال والإكرام وأسأله أن يصلي عليّ و آل غد وأن يتوب عليّ » ، إلا غفرها الله له ولاخير فيمن يقارف في كل يوم أكثر من أربعين كبيرة » (٤) .

وعنه عليه السلام قال : « إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة . قيل يدخله الله بالذنب الجنة؟ قال : نعم إنه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه فيرجعه الله فيدخله الجنة » (٥) .

وعنه عليه السلام قال : « إنه والله ما خرج عبد من ذنب إلا بالقرار » (٦) .
وعنه عليه السلام « من أذنب ذنباً فعلم أن الله مطلع عليه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، غفر له وإن لم يستغفر » (٧) .

وعنه عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته ، ثم قال : إن الشهر لكثير ، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته ، ثم قال : إن الجمعة لكثير ، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته ، ثم قال : إن يوماً لكثير من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته » (٨) .

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٣٤ تحت رقم ٦ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٣٧ تحت رقم ٣ .

(٣) و (٤) المصدر ج ٢ ص ٤٣٨ تحت رقم ٧ و ٢ .

(٥) و (٦) و (٧) المصدر ج ٢ ص ٦٢٦ و ٤٢٧ تحت رقم ٣ و ٤ و ٥ .

(٨) المصدر ج ٢ ص ٤٤٠ تحت رقم ٢ .

و عنه أو عن أبيه عليه السلام قال : « إن آدم قال : يا رب سلطت علي الشيطان و أجريته مني مجرى الدم فاجعل لي شيئاً ، فقال : يا آدم جعلت لك أن من هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت عليه سيئة ، و من هم منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة فإن هو عملها كتبت له عسراً ، قال : يا رب زدني قال جعلت لك أن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له ، قال : يا رب زدني قال : جعلت لهم التوبة أو بسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه قال : يا رب حسبي ^(١) . و عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إذا بلغت النفس هذه - وأهوى ييده إلى حلقة - لم يكن للعالم توبة وكانت للجاهل توبة » ^(٢) .

و عن معاوية بن وهب قال : « خرجنا إلى مكة ومعنا شيخ متعبد متأله لا يعرف هذا الأمر يتم الصلاة في الطريق و معه ابن أخ له مسلم ، فمرض الشيخ فقلت لابن أخيه : لو عرضت هذا الأمر على عمك لعل الله أن يخلصه ، فقال كلهم : دعوا الشيخ يموت على حاله فإنه حسن الهيئة ، فلم يصبر ابن أخيه حتى قال له : يا عم إن الناس ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نقرأ يسيراً ، وكان لعلي بن أبي طالب عليه السلام من الطاعة ما كانت لرسول الله ﷺ ، وكان بعد رسول الله ﷺ الحق والطاعة له ، قال : فتنفس الشيخ وشق وقال : أنا على هذا و خرجت نفسه ، فدخلنا على أبي عبد الله عليه السلام فعرض علي بن السري هذا الكلام عليه فقال : هو رجل من أهل الجنة ، فقال له ابن السري : إنه لم يعرف شيئاً من ذلك غير ساعته تلك ؟ قال : فتريدون منه ماذا ؟ قد دخل والله الجنة » ^(٣) .

قال أبو حامد : خلق الله الطاعة مكفرة للمعصية ، و الحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلاً للعطش و غسل الثوب بالصابون مزيلاً للوسخ .
قال : فإن قلت : فما من تائب إلا و هو شاك في قبول توبته و الشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه ؟

فأقول شكّه في القبول كشكّه في وجود شرائط الصحة فإنّ للذنوب أركاناً و شروطاً دقيقة كما سيأتي وليس يتحقّق وجود جميع شروطها كالذي يشكّ في دواء شربه للإسهال في أنّه هل يسهل ، وذلك لشكّه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال و الوقت و كميّة خلط الدواء و طبخه و جودة عقاقيره و أدويته فهذا و أمثاله موجبٌ للخوف بعد التوبة ، و موجبٌ للشكّ في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله .

✽ (الركن الثاني) ✽

✽ (فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغارها وكبارها) ✽

فاعلم أنّ التوبة ترك الذنّب ولا يمكن ترك الشيء إلّا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كانها لا يتوصّل إليها إلّا به واجباً ، فمعرفة الذنوب إذ أوجب والذنّب عبارة عن كلّ ما هو مخالف لأمر الله في ترك أو فعل و تفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أولّها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا ولكنّا نشير إلى مجامعها و روابط أقسامها .

✽ (بيان أقسام الذنوب بالاضافة الى صفات العبد) ✽

إعلم أنّ الإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مئارات الذنوب في أربع صفات ، صفات ربوبية و صفات شيطانية و صفات بهيمية و صفات سبعية ، و ذلك لأنّ طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقترض كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثر آمن الآثار كما يقتضي السكر والخلّ في السكنجيين والزعفران آثاراً مختلفة ، فأما ما يقتضيه النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفجر والجبريّة وحبّ المدح والثناء والعزّ والغنى وحبّ دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتّى كأنّه يريد أن يقول : أنا ربكم الأعلى ، و هذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوباً وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمّهات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في ربيع المهلكات ، الثانية هي الصفات الشيطانية التي منها يتشعب الحسد و البغي و الحيلة والخداع والأمر

بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والتفاح والدعوة إلى البدع والضلالة ، الثالثة
الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن
والفرج ، ومنه يتشعب الزنى واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام
لأجل الشهوات ، الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهميم
على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ، ويتفرع عنها جهل من الذنوب
وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً ثم تتلوها
الصفة السبعية ثانياً ، ثم إذا اجتمعا استعمال العقل في الخداع والمكر والحيلة
وهي الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز
والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه أمهات الذنوب و
مناهبها ، ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة
كالكفر والبدعة والتفاح وإضرار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها
على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها
على جميع البدن ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح .

قسمه ثالثة إعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله وإلى ما يتعلق
بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به ، وما يتعلق بحقوق
العباد كترك الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض ، وكل متناول
من حق الغير ، فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه وتناول الدين
بالاغواء والدعاه إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهيبج أسباب الجرأة على الله
كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرّجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد
فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله إذا لم يكن شركاً فالغفو فيه أرجى وأقرب وقد
جاء في الخبر الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر ، وديوان لا يترك . فالديوان
الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله ، وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك ، وأما
الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد ^(١) أي لا بد وأن يطالب بها حتى يتفصى عنها .

(١) أخرجه أحمد والعالم من حديث عائشة بسند حسن كما في الجامع الصغير .

أقول: ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي ، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال : « الذنوب ثلاثة : فذنوب مغفورة ، وذنوب غير مغفورة ، وذنوب نرجو لصاحبها ونخاف عليه قيل : يا أمير المؤمنين فيمنها لنا ، قال : نعم أما الذنوب المغفورة فعاقبه الله على ذنبه في الدنيا ، فالله تعالى أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرتين . وأما الذنوب التي لا يغفره الله فظلم العباد بعضهم لبعض إن الله إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه فقال : و عزتي و جلالتي لا يجوزني ظلم ظالم ، ولو كف بكف ولو مسح بكف ، ولو نطحة ما بين القرناء إلى الجحيم^(١) ، فيقتص للعباد بعضهم من بعض حتى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة ، ثم يبعثهم الله للحساب ، وأما الذنوب الثالث فذنوب ستره الله على خلقه ورزقه التوبة منه فأصبح خائفاً من ذنبه راجياً لربه فنحن له كما هو لنفسه ، نرجو له الرحمة ونخاف عليه العقاب^(٢) .

و سأل أبو جعفر عليه السلام « عن رجل أقيم عليه الحد في الرجم أيعاقب عليه في الآخرة ؟ فقال : إن الله أكرم من ذلك^(٣) .

قصة ثالثة أعلم أن الذنوب تنقسم إلى صفائر وكبائر ، وقد كثراختلاف الناس فيها فقال قائلون : لأصغيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف إذ قال الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم^(٤) » وقال تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللثم^(٥) » .

وقال عليه السلام : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنب الكبائر » وفي لفظ آخر « كفارات لما بينهن إلا الكبائر^(٦) » .

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص : « الكبائر الإشرار

(١) الجفاء الشاة التي لا قرن لها .

(٢) و (٣) المصدر ، ج ٢ ص ٤٤٣ .

(٤) النساء : ٣١ .

(٥) النجم : ٣٣ و اللثم : صفائر الذنوب كما في القاموس .

(٦) أخرجه الترمذي ج ٢ ص ١٤ من حديث أبي هريرة وحسنه .

بالله وعقوق الوالدين و قتل النفس واليمين الغموس» (١).

و اختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك ، وقال أبو طالب المكي : الكبائر سبع عشرة جمعناها من جملة الأخبار (٢) و جملة ما اجتمع من أقوال الصحابة أربع في القلب : وهو الشرك بالله تعالى ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكروه . وأربع في اللسان : وهي شهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس - وهي التي يحقُّ بها باطلاً أو يبطل بها حقاً ، وقيل : هي التي يقنطع بها مال امرئ، مسلم باطلاً ولو سواك من أراك ، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار - ، والسحر وهو كل كلام يغيّر الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة . وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنان في الفرج وهما الزنى واللواط . واثنان في اليدين وهو القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الرّخف - الواحد من اثنين والعشرة من عشرين - ، وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين ، قال : وجملة عقوبهما أن يقسماعليه في حقّ فلا يبرّ قسمهما ، وأن يسألاه حاجة فلا يعطيها ، وأن يسبّاه فيضربهما ، ويجوعان فلا يطعمهما . هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فأنّه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهي جناية على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل فأما فقو العينين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب لم يتعرض له ، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنّه أكبر من أكل ماله كيف ؟ وفي الخبر « من الكبائر السبّتان بالسبّة . ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم » (٣) وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدري وغيره

(١) أخرجه التجارى ج ٧ ص ١٧١ .

(٢) راجع مجمع الزوائد ج ١ ص ١٠٣ .

(٣) قال العراقي : عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لآحمد وإبى داود من

حديث سعيد بن زيد والذي عندهما من حديثه «من أربى الربا استطالة في عرض المسلم بغير حق» .

من الصحابة : « إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعر ، كنّا نعدها في عهد رسول الله ﷺ من الكبائر » (١) .

وقالت طائفة : كلُّ عمد كبيرة ، وكلُّ ما نهى الله عنه فهو كبيرة .

أقول : من طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله عز وجل : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - الآية » قال : الكبائر التي أوجب الله عليها النار » (٢) .

وعنه عليه السلام أنه سئل عن الكبائر فقال : « هن في كتاب علي عليه السلام سبع : الكفر بالله ، و قتل النفس ، و عقوق الوالدين ، و أكل الربا بعد البيعة ، و أكل مال اليتيم ظلماً ، و الفرار من الزحف ، و التعرُّب بعد الهجرة ، قال الراوي قلت : و هذا أكبر المعاصي ؟ قال : نعم ، قلت : فأكل درهم من مال اليتيم ظلماً أكبر أم ترك الصلاة ؟ قال : ترك الصلاة ، قلت : فما عدت ترك الصلاة في الكبائر ؟ فقال : أي شيء أول ما قلت لك ؟ قال : قلت : الكفر قال : فإن تارك الصلاة كافر » يعني من غير علة (٣) .

وعن أبي الحسن عليه السلام أنه سئل عن الكبائر كم هي وما هي ؟ فكتب « الكبائر من اجتنب ما وعد الله عليه النار كفر عنه سيئاته إذا كان مؤمناً ، و السبع الموجبات : (٤) قتل النفس الحرام ، و عقوق الوالدين ، و أكل الربا ، و التعرُّب بعد الهجرة ،

(١) رواه البزار في مسنده وفيه عباد بن راشد ، و تقي ابن معين و غيره و ضعفه

ابو داود و غيره . و رواه احمد و رجاله رجال الصحيح كما مجمع الزوائد ج ١ ص ١٠٦ و ج ١٠ ص ١٩٠ . (٢) المصدر ج ٢ ص ٢٧٦ تحت رقم ١ .

(٣) الخبر في الكافي ج ٢ ص ٢٧٨ . وقوله « يعني من غير علة » من كلام الكليني او بعض الرواة و قال العلامة المجلسي : كونه من كلام الامام عليه السلام على سبيل الالتفات بعيد جداً .

(٤) عطف على « ما وعد الله » أي من اجتنب السبع الموجبات للنار كفر عنه سيئاته من باب عطف الخاص على العام لان الكبائر أكثر منها .

وقذف المحصنات ، و أكل مال اليتيم ، و الفرار من الزحف ^(١) .
 و في الصحيح عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال : « سمعت أبي يقول : سمعت
 أبي موسى بن جعفر يقول : دخل عمرو بن عبيد ^(٢) على أبي عبد الله عليه السلام : فلما
 سلم وجلس تلا هذه الآية « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » ثم أمسك
 فقال له أبو عبد الله عليه السلام : ما أسكنك ؟ قال : أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله ،
 فقال : نعم يا عمرو أكبر الكبائر الإشراف بالله يقول الله : « ومن يشرك بالله فقد حرم
 الله عليه الجنة » ^(٣) . وبعده الإياس من روح الله لأن الله يقول : « إنه لا يئأس من
 روح الله إلا القوم الكافرون » ^(٤) ثم الأمان لمكر الله إن الله يقول : « فلا يأمن مكر الله
 إلا القوم الخاسرون » ^(٥) . ومنها عقوق الوالدين لأن الله جعل العاق جباراً شقيماً ^(٦) ،
 و قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق لأن الله يقول : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها
 - إلى آخر الآية - » ^(٧) وقذف المحصنة لأن الله يقول : « لعنوا في الدنيا والآخرة
 ولهم عذاب عظيم » ^(٨) و أكل مال اليتيم لأن الله يقول : « إنما يأكلون في بطونهم
 نارا و سيصلون سعيراً » ^(٩) و الفرار من الزحف لأن الله يقول : « ومن يؤلهم
 يومئذ دبره إلا متحرفاً أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم
 وبئس المصير » ^(١٠) . و أكل الربا لأن الله يقول : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ
 إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » ^(١١) و السحر لأن الله يقول : « و

(١) الزحف : المشى و يطلق على الجيش الكبير تسمية بالمصدر و الخبر في الكافي

ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) الظاهر انه عمرو بن عبيد المعتزلي المعروف والخبر في الكافي ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٣) في المصاحف هكذا « انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » سورة المائدة : ٧٢ .

(٤) يوسف : ٨٧ . (٥) الاعراف : ٩٩ .

(٦) اشارة الى قوله تعالى « وبرا بوالدني ولم يجعلني جباراً شقيماً » سورة مريم : ٣٢ .

(٧) النساء : ٩٣ . (٨) النور : ٢٣ .

(٩) النساء : ١٠ . (١٠) الانفال : ١٦ .

(١١) البقرة : ٢٧٧ ، و « يتخبطه » اي يصرعه الشيطان من الجنون وقوله « من

المس » متعلق بقوله « يتخبطه » و « من » للتبيين .

لقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق^(١)، والزنى ، لأن الله يقول :
 « ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً »^(٢)
 واليمين الغموس الفاجرة ، لأن الله يقول : « الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم
 ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة »^(٣) . والغلول لأن الله يقول :
 « ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة »^(٤) ومنع الزكاة المفروضة لأن الله يقول :
 « فتكوى بهاجباهم وجنوبهم وظهورهم »^(٥) وشهادة الزور وكتمان الشهادة لأن الله
 يقول : « ومن يكتمها فإنه آثم قلبه »^(٦) وشرب الخمر لأن الله نهى عنها كما نهى
 عن عبادة الأوثان . وترك الصلاة متممداً أو شيئاً مما فرض الله لأن رسول الله ﷺ
 قال : « من ترك الصلاة متممداً فقد برى من ذمة الله وذمة رسوله » . ونقض العهد
 وقطيعة الرحم لأن الله يقول : « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »^(٧) قال :
 فخرج صمرو له صراخ من بكائه وهو يقول : هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل
 والعلم .

قال أبو حامد : وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهى كبيرة
 أم لا لا يصح ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها ، فقول القائل : السرقة حرام أم
 لا ؟ لا مطلق في معرفته إلا بعد تقرير معنى الحرام أو لائم البحث عن وجوده في السرقة
 فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك

(١) البقرة : ١٠٢ ، أى الذى اشترى السحر بدل دين الله والخلاق النسيب .

(٢) الفرقان : ٧٠ و ٦٩ ، وقوله : « يلق أثاماً » أى عقوبة وجزاء لما فعل ، وقوله :

« يخلد فيها مهاناً » أى يدوم فى العذاب مستغفلاً .

(٣) آل عمران : ٧٧ .

(٤) آل عمران : ١٦١ ، والغلول الغنيمة فى المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة .

(٥) التوبة : ٣٥ ، وكوى فلاناً أى احرق جلده بعددته .

(٦) البقرة : ٢٨٣ .

(٧) الرعد : ٢٦ . « سوء الدار » أى عذاب جهنم أو سوء عاقبة الدار فى مقابلة

« عقبى الدار » .

لأنَّ الكبير والصغير من المضافات وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه ، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه ، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنى . وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه ، صغيرة بالإضافة إلى قتله ، نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصّة اسم الكبيرة ونعني بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة ، وله أن يطلق على ما أوجب الحدّ عليه مصيراً إلى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم ، وله أن يطلق على ما ورد في نصّ الكتاب النهي عنه فيقول : تخصيصه بالذكر في القرآن يدلُّ على عظمه ، ثمَّ يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها ، فهذه الاطلاقات لا حرج فيها وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردّد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمّات أن تعلم معنى قول الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » وقول رسوله ﷺ « الصلوات الخمس كفّارات لما بينهنَّ إلا الكبائر » فإنَّ هذا إثبات حكم الكبائر ، والحقّ في ذلك أن الدّّ نوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إيّاها وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر وإلى ما يشكُّ فيه فلا يدري حكمه فالطمع في معرفة حدٍّ حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن ، فإنَّ ذلك لا يمكن إلاّ بالسماح من رسول الله ﷺ بأن يقول : إنني أردت بالكبائر عشراً أو خمساً ويفصلها فإن لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ « ثلاث من الكبائر » وفي بعضها « سبع من الكبائر » ثمَّ ورد « إنَّ السبّتين بالسبّة الواحدة من الكبائر » وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنّه لم يقصد به العدد والحصص فكيف يطمع في عدد ما لم يعدّده الشرع ، وربّما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدُّ الناس في طلبها ، نعم لناسيل كلّي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق وأمّا أعيانها فنعرّفها بالظنّ والتقريب ونعرف أيضاً أكبر الكبائر فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته ، وبيانه أننا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً

أن مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق إلى جوار الله وسعادة لقائه ، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ورسله وكتبه وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ^(١) أي ليكونوا عبداً لي ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالرُّبوبيّة ، ونفسه بالعبودية ، فلا بدّ وأن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الأصلي ببعثة الأنبياء ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدُّنيا وهو المعنى بقوله ﷺ : « الدنيا مزرعة الآخرة » ^(٢) فصار حفظ الدُّنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدُّنيا لأنّه وسيلة إليه ، والمتعلّق من الدُّنيا بالآخرة شيئان : النفوس والأموال فكلّ ما يسدّ باب معرفة الله فهو أكبر الكبائر ، ويليه ما يسدّ باب حياة النفوس ، يلي ذلك ما يسدّ باب المعاش التي بها حياة النفوس ، فهذه ثلاث مراتب فحفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضروريّ في مقصود الشرائع كلها ، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها الملل ، فلا يجوز أن يبعث الله تعالى نبياً يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعه عن معرفته ومعرفة رسله أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب الأولى ما يمنع من معرفة الله ومعرفة رسله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل والوسيلة المقرّبة إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله ديتلو الجهل الذي يسمّى كفر الألمان من مكر الله والقنوط من رحمته فإنّ هذا أيضاً عين الجهل ، فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً ويتلو هذه الرُّتبة البدع كلها المتعلّقة بهذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله وشرايعه وأوامره ونواهيه ، ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم إليّ ما يعلم أنّها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن وإلى ما يعلم أنّه لا يدخل وإلى ما يشكّ فيه ، وطلب دفع الشكّ في القسم المتوسط

(١) الداريات : ٥٦ .

(٢) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ . وأقول : أخرجه الديلمي في مسند الفردوس بهذا اللفظ كما في كنوز الحقايق للشيخ عبد الرؤوف المناوي باب الدال .

طمع في غير مطعم .

المرتبة الثانية النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله ، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر لأن ذلك يصدم عن المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود إذ حياة الدنيا لا تتراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضي إلى الهلاك حتى الضرب ، وبعضها أكبر من بعض ويقع في هذه المرتبة تحريم الزنى واللواط لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكر في قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنى فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنى ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها باناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنى مباحاً في أصل شرع قصد به الإصلاح وينبغي أن يكون الزنى في المرتبة دون القتل لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى القتال وينبغي أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته .

المرتبة الثالثة الأموال فإنها معائش الخلق فلا يجوز تسليط الناس على تناولها كيف شاؤوا حتى بالاستيلاء والسرقه وغيرهما ، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها ، فليس يعظم الأمر فيها ، نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربعة طرق أحدها الخفية وهي السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً فكيف يتدارك ، والثاني أكل مال اليتيم وهذا أيضاً من الخفية وأعني به في حق الولي والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه ، والثالث

تفويتها بشهادة الزور ، و الرابع أخذ الوديعة و غيرها باليمين الغموس فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن يختلف الشرائع في تحريمها أصلاً وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس ، وهذه الأربعة جديدة بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن كثرة الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا والدين تأثيرها ، وأما أكل الربا فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع^(١) ، ولا يبعد أن يختلف الشرائع في مثله ، وإذا لم يجعل الغصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضا و بغير رضى الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضاً الظلم بالنصب وغيره وعظم الخيانة والمصير إلى أن أكل دائق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك ، وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغي أن يختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرائع فيه ليكون ضرورياً في الدين ، فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين ، أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضاً لأن العقل محفوظ كما أن النفس محفوظة بل لا خير في النفس دون العقل فإذا زالت العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر ولا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك

(١) فيه نظر لان الرمي كذلك أيضاً ولا ريب أن الربا القرضي يزيد يوماً فيوماً في عدد المحتاجين و يجتمع الثروة عند الاقلين وينجر الى تراكم الثروة عند افراد و يؤدي ذلك الى فناء طبقة المسمرين وفي ذلك فساد النظام الاجتماعي والهرج والرج فناء المدينة والانسانية و لذلك قال الله تعالى : يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله و ليست في الاسلام معصية حرمتها أعظم من الربا وعقوبتها أشد منه لان آكله في حكم من حارب الله ورسوله . فعلى هذا هو من أكبر الكبائر . راجع في تفصيل ذلك تفسير الميزان للعلامة الفد السيد محمد حسين الطباطبائي ج ٢ ص ٢٥٤ الى ٢٥٧ .

كبيرة و إنما هو شرب ماء نجس و القطرة وحدها في محل الشك وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فيعد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في القوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع ، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع وإلا فالتوقف فيه مجال ، وأما القذف فليس فيه إلتناول الأعراس والأعراس دون الأموال في الرتبة و لتناولها مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنى وقد عظم الشرع أمره ، و أظن ظناً غالباً أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب الحد به كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذي نريد بالكبيرة الآن ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنساناً يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرّد شهادته فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضرورياً في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فاذن هذا أيضاً يلتحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أن له أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر ، وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره ، وأما الفرار من الزحف و عقوق الوالدين فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنى وضربهم والظلم عليهم بغصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم و بلادهم وإجلالهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه فالتوقف في هذا أيضاً غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلتحق بالكبائر فاذن رجع حاصل الأمر إلى أننا نعني بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك بما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعاً وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أوسنة وإذ لا مطمع فيها فطلب رفع الشك فيه محال .

فإن قلت : فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدّها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حدّه ، فاعلم أن كلّ ما لا يتعلّق به حكم الدّنيا فيجوز أن يتطرّق إليه الإبهام لأنّ دار التكليف هي دار الدّنيا والكبيرة على الخصوص لاحكم لها في الدّنيا من حيث أنّها كبيرة بل كلّ موجبات الحدود معلومة بأسامها كالسرقة والزّنى وغيرهما وإنّما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفّرهما وهذا أمر يتعلّق بالآخرة والإبهام أليق به حتّى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرّؤون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفّر الصغائر بموجب قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » ولكن اجتناب الكبيرة إنّما يكفّر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة كمن يتمكّن من امرأة ومن مواقعتها فيكفّر نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس فإنّ مجاهدته نفسه في الكفّ عن الوقاع أشدّ تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إغلامه فهذا معنى تكفيره ، فإن كان عنيّناً أولم يكن امتناعه إلّا بالضرورة للعجز أو كان قادراً ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً وكلّ من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيع له لما شربه فاجتنابه لا يكفّر عنه الصغائر التي هي من مقدّماته كسماع الملاهي والأوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكفّ ربّما يحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع وكلّ هذا أحكام أخروية ويجوز أن يبنى بعضها في محلّ الشكّ وتكون من المتشابهات ولا يعرف تفصيلها إلّا بالنصّ ولم يرد النصّ بعد ولا حدّ جامع بل ورد بألفاظ مختلفة فقد روي أنّه عليه السلام قال : « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلّا من ثلاث : الإشراف بالله وترك السنّة ونكث الصفقة قيل : وما ترك السنّة ؟ قال : الخروج من الجماعة ، ونكث الصفقة أن يبايع رجلاً ثمّ يخرج عليه بالسيف يقاتله » ^(١) فهذا وأمثاله من الألفاظ لا تحيط بالعدد كلّ ولا تدلّ على

(١) أخرج الحاكم ج ٤ ص ٢٩٥ نحوه وقال صحيح الإسناد .

حدّ جامع فيبقى لاحالة مبهماً .

فإن قلت : الشهادة لا تقبل إلا من يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا ، فاعلم أننا نختص ردّ الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي و يلبس الدّيباج و ينتختم بخاتم الذهب و يشرب من أواني الذهب و الفضة لا تقبل شهادته و لم يذهب أحدٌ إلى أن هذه الأمور من الكبائر بل كلّ الذنوب يقدر في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات كالغيبة و التجسس و سوء الظنّ و الكذب في بعض الأقوال و سماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف و أكل الشبهات و سبّ الولد والعلام و ضربهما بحكم الغضب زائداً على حدّ المصلحة و إكرام السلاطين الظلمة و مصادقة الفجّار و التكاسل عن تعليم الأهل و الولد جميع ما يحتاجون إليه في أمر الدين ، فهذه ذنوب لا يتصور أن يتفكّ الشاهد عن قليلها و كثيرها إلا بأن يعتزل الناس و يتجرّد لأمر الآخرة و يجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سجيته مع المخالطة بعد ذلك و لو لم يقبل إلا قول مثله لعزّ وجوده و بطلت الأحكام و الشهادات ، و ليس لبس الحرير و سماع الملاهي واللّعب بالنرد و مجالسة أهل الشرب في وقت الشرب و الخلوة بالأجنبيّات و أمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فالى مثل هذا المنهاج ، ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة و ردّها لا إلى الكبيرة والصغيرة ، ثمّ آحاد هذه الصغائر التي لا تردّ الشهادة بها لو اوظب عليها لأثري ردّ الشهادة كمن اتخذ الغيبة و ثلب الناس عادة و كذلك مجالسة الفجّار و مصادقتهم و الصغيرة تكبر بالمواظبة .

أقول : و من طريق الخاصّة عن علقمة أنّه قال للصّادق عليه السلام : يا بن رسول الله أخبرني ممّن تقبل شهادته و من لا تقبل ؟ فقال : يا علقمة كلّ من كان على فطرة الإسلام جازت شهادته ، قال : فقلت له : تقبل شهادة مقترف بالذنوب ؟ فقال : يا علقمة لو لم تقبل شهادة المقترفين للذنوب لما قبلت إلا شهادة الأنبياء و الأصياء لأنهم هم المعصومون دون سائر الخلق فمن لم تره بعينك يرتكب ذنباً أو لم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة والستر و شهادته مقبولة و إن كان في نفسه مذنباً

ومن أغتابه بما فيه فهو خارج عن ولاية الله داخل في ولاية الشيطان»^(١).

﴿ بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات ﴾

﴿ في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا ﴾

إعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك و آخرتك صفاتك و أحوالك يسمى القريب الدني منها دنيا و المتأخرة آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة فإنا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »^(٢) وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ولذلك قال ﷺ : « الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا »^(٣) وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير وكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كسوة الأمثال وأعني بكسوة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكتفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل إلى ابن سيرين وقال : رأيت كان في يدي خاتماً أختم به أفواه الرّجال و فروج النساء فقال : إنك مؤذّن تؤذّن في رمضان قبل طلوع الفجر فقال : صدقت . وجاء آخر فقال : رأيت كأنني أصب الزيت في الزيتون فقال : إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإنها أمك لأن الزيتون أصل الزيت فهو ردُّ إلى الأصل فنظر فإذا جاريته كانت أمّه وقد سبيت في صغره ، وقال له آخر : رأيت كأنني أفلد الدرد في أعناق الخنازير فقال : إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال ، فالتعبير من أوّله إلى آخره مثال يعرفك طريق ضرب الأمثال وإتّما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده

(١) رواه الصدوق - رحمه الله - في المجالس ص ٦٣ .

(٢) النكبت : ٤٣ .

(٣) قال العراقي : لم أجده مرفوعاً وإنما يمزى إلى علي بن أبي طالب عليه السلام .

صادقاً وإن نظر إلى صورته كان كاذباً فالملؤذَن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذباً فإنه لم يختم به قط وإن نظر إلى معناه وجده صادقاً إذ قد صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له ، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلّفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقد عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء ، إلا بمثل فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادقٌ ولذلك قال رسول الله ﷺ : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » ^(١) وهو من المثل الذي لا يعقله إلا العالمون فأما الجاهل فلا يجاوز حدّه ظاهر المثل لجهله بالتفسير الذي يسمّى تأويلاً كما يسمّى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيراً فيثبت الله يداً وأصبغاً تعالى الله عن قوله . وكذلك في قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم على صورته » ^(٢) فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت الله تعالى مثل ذلك تعالى الله عن قوله علواً كبيراً ومن ههنا زلٌّ من زلٍّ في الصفات الإلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتاً وحرفاً إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول ، وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد لجمود نظره على ظاهر المثل يناقضه عند قوله ﷺ : « يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح » ^(٣) فيثور الملحد الأحق ويكذب به ويستدل على كذب الأنبياء ويقول : ياسبحان الله الموت عرّض والكبش جسم فكيف ينقلب العرّض جسماً وهل هذا إلا محال؟ ولكن الله تعالى عزله هؤلاء الحمقى

(١) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٣٢١ بنحوه وقد تقدم .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٩ في حديث . وروى الصدوق - رحمه الله - في العيون والتوحيد بإسناده عن الحسين بن خالد قال قلت للرضا عليه السلام : « يا ابن رسول الله إن الناس يروون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إن الله خلق آدم على صورته » فقال : قاتلهم الله لقد حذفوا أول الحديث ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله مر برجلين يتسابان فسمع أحدهما يقول لصاحبه : قبح الله وجهك ووجه من يشبهك ، فقال : يا عبد الله لا تقل هذا لاخيك فإن الله تعالى خلق آدم على صورته » .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ج ٨ ص ١٥٢ من حديث أبي سعيد .

عن معرفة أسرار الله تعالى فقال : « وما يعقلها إلا العالمون » ، ولا يدري المسكين أن من قال : رأيت في منامي أنه قد جىء بكبش وقيل : هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح ، فقال المعبر : صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن الوباء ينتقع ولا يعود قط لأن المذبح وقع اليأس منه ، فاذن المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقته إلى أن الملك الموكل بالرؤيا ، هو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقاً وكان معناه صحيحاً فالرسل أيضاً إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفاً بعباده وتيسيراً لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل فقوله : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح » مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب عن التأثر بالأمثلة وثبت المعاني فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله : « كن فيكون » عن نهاية القعدة و عبر ^{بالفعل} بقوله : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » عن سرعة التقلب وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربح العبادات ، فلنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب الأمثال فليفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته فنقول :

الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً وتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة و الشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتت في سعادة الدنيا وشقاوتها ولاتفارق الآخرة الدنيا في هذا المعنى أصلاً البتة ، فإن مدبر الملك والملوك واحد لا شريك له فسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها إلا أننا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن الأجناس فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين ومعديين و ناجين و فائزين ، و مثاله في الدنيا أن يستولي ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون و يعذب بعضهم

مدة ولا يقتلهم فهم المعضد بون و يخلي بعضهم فهم الناجون و يخلع على بعضهم فهم الفائزون فان كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ، معانداً له في أصل الدولة ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه و علو درجته ولا يخلي إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة و النصره ثم ينبغي أن يكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجات خدمتهم وإهلاك الهالكين إما تخفيفاً بجزء الرقبة أو تنكيلاً بالمثلثة بحسب درجات معاندتهم وتعذيب المعذبين في الخفة والشدّة و طول المدة وقصرها واتحاد أنواعها و اختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تنحصر ولا تحصى فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك و من معذب مدة و من ناج يحل في دار السلام و من فائز ، والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنّات عدن أو جنّات المأوى أو جنّات الفردوس ، والمعضد بون ينقسمون إلى من يعذب قليلاً و إلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة و ذلك آخر من يخرج من النار^(١) كما ورد في الخبر ، وكذلك الهالكون الآيسون عن رحمة الله تتفاوت درجاتهم و هذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزّعها عليها .

أما الرتبة الأولى و هي الهالك و نعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال و هذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجرّدين للدنيا المكذّبين بالله و برسله و بكتبه فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه الكريم و ذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان و التصديق ، و الجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله أبداً الآباد ، و هم الذين يكذبون برب العالمين و بأنبيائه المرسلين وهم عن ربهم يومئذ محجوبون لا محالة و كل محجوب عن محبوبه فمحجول بينه و بين ما يشتهي فهو لا محالة يكون محترقاً مع نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا

(١) أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر .

من نار جهنم ولا رجاؤنا للحدور العين وإنما مطلبنا اللقاء و مهربنا من الحجاب فقط
وقالوا : من يعبد الله بعوض فهو لئيم ، إذ يعبد له لطلب جنّته أو لخوف ناره بل العارف
يعبد له لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط فأما الحور و الفواكه فقد لا يشتهيها و أما النار
فقد لا يتقياها إذ نار الفراق إذا استولت ربّما غلبت النار المحرفة للأجسام فإن
نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفتدة و نار جهنم لا شغل لها إلا مع
الأجسام و ألم الأجسام يستحقّر مع ألم القواد و لذلك قيل :

ففي قواد المحب نار جوى ☆ أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا
فقد رئي من غلب عليه الوجد فعدا على النار و على أصول القصب الجارحة للقدم
و لا يحس به لفرط غلبة ما في جوفه ، ويرى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال
فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب ، قال رسول
الله ﷺ : « الغضب قطعة من النار »^(١) واحتراق القواد أشد من احتراق الأجساد
و الأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه . فليس الهلاك من النار والسيف إلا
من حيث أنه يفرّق بين جزئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف المتمكّن في
الأجسام ، فالذي يفرّق بين القلب وبين محبوبه المرتبط به برابطة تأليف أشد إحصاء
من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر و أرباب القلوب و
لا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم و يستحقّره بالإضافة إلى ألم
الجسم ، فالصبي لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان و بين ألم الحرمان
عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً و لم يعد ذلك
ألماً ، و قال : العدو في الميدان مع الصولجان أحب إلي من سرير ألف سلطان مع
الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء و بين فعل
جميل يقهر به الأعداء و يفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء و هذا كله لفقد
المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوباً و وجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام

لذيذاً وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه الصفات الملكية التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب ، وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذّة الألحان وحسن الصور والألوان وليس لكل إنسان قلب ولو كان لما صحّ قوله تعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » (١) فجعل من لم يتذكّر بالقرآن مفلساً من القلب ، ولست أعني بالقلب هذا اللحم الذي تكنفه عظام الصدر ، بل أعني به السرّ الذي هو من عالم الأمر وهذا اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه و الصدر كرسيه وسائر الأعضاء عالمه ومملكته والله الخلق والأمر جميعاً ولكن ذلك السرّ هو الذي قال الله تعالى فيه : « قل الروح من أمر ربي » وهو الملك والأمير لأنّ بين عالم الأمر وبين عالم الخلق ترتيباً ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهي اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وعند ذلك يشمّ العبد مبادي روائح المعنى المطوي تحت قوله تعالى : « إن الله خلق آدم على صورته » و ينظر بعين الرّحمة على الجامدين على ظاهر لفظه وإلى المتعسّفين في طرق تأويله وإن كانت رحمته للجامد على اللفظ أكثر من رحمته للمتّعسف في التأويل لأنّ الرّحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر وإن اشتركو في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهي حكمته يخصّ بها من يريد « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطوّنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملة التي نقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أنّ رتبة الهلاك ليست إلا للجهال المكذّبين وشهادة ذلك من كتاب الله تعالى وسنة رسوله لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نورد .

الرتبة الثانية : رتبة المعدّبين وهذه رتبة من تحلّى بأصل الإيمان ولكن

قصر في الوفاء بمقتضاه فإن رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلا الله ، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة ، بل معنى قولك : « لا إله إلا الله » معنى قوله تعالى : « قل الله ثم ذرهم »^(١) وهو أن تزد بالكلية غير الله ومعنى قوله « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا »^(٢) ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة فلا ينفك بشر من ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير ، إذا لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي لا محالة نقصاناً في درجة القرب ومع كل نقصان نار نار الفراق لذلك الكمال الفائق بالنقصان ، و نار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معداً بمرتين من وجبهين ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته وإذا لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى : « وإن منكم إلا واردة كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً »^(٣) ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأننا تيقنا أننا على النار واردون وشكنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي يا حنان يا منان .^(٤) قال الحسن : يا ليتني كنت ذلك الرجل ؟ واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث ، وبين اللحظة وبين سبعة

(١) الانعام : ٩١ . (٢) فصلت : ٣٠ .

(٣) مريم : ٧١ و ٧٢ .

(٤) قال العراقي : أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية أبي غلال القسلي عن أنس

و أبو غلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم و الأسبوع والشهر و سائر المدد وأن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه و أدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو ، و قد يضرب بالسياط ، و قد يعذب بأنواع أخر من العذاب ، و يتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث غير المدّة و الشدة و هو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال و بقتل الولد و استباحة الحريم و تعذيب الأقارب والضرب و قطع اللسان و اليد و الأنف و الأذن و غيره ، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دلّ عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوّة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات و قلّتها وكثرة السيئات و قلّتها . أمّا شدة العذاب فبشدة قبح السيئات ، وكبرها ، وأمّا كثرته فبكثرتها ، وأمّا اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان ، و هو المعني بقوله تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » ^(١) و بقوله : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » ^(٢) و بقوله : « و أن ليس للإنسان إلا ما سعى » ^(٣) و بقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » و من يعمل مثقال ذرة شراً يره ^(٤) إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب و السنة من كون الثواب و العقاب جزاء على الأعمال و كل ذلك بعدل لا ظلم فيه ، و جانب العفو و الرّحمة أرجح إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ « سبقت رحمتي غضبي » ^(٥) و قال تعالى : « و إن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجراً عظيماً » ^(٦) فإذن هذه الأمور الكليّة من ارتباط الدرجات و الدّركات بالحسنات و السيئات معلومة بقواطع الشرع و نور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً و مستنده ظواهر الأخبار و نوع حدس يستمدّ من أنوار الاستبصار بهين الاعتبار فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع

(١) فصلت : ٤٦ .

(٢) غافر : ١٧ .

(٣) النجم : ٣٩ .

(٤) الزلزلة : ٧ و ٨ .

(٥) أخرجه البخاري ج ٩ ص ١٦٦ و مسلم ج ٨ ص ٩٥ من حديث أبي هريرة .

(٦) النساء : ٤٠ .

الفرائض أعني الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صفائر متفرقة لم يصرف عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته إذ ورد في الأخبار « أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارة لما بينهن »^(١) وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يكن يدفع الحساب وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية ، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرئين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى ، فذلك يتبع أصناف الإيمان لأن الإيمان إيمانان إيمان تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يسمعون ويستمرّون عليه ، وإيمان كشفي يحصل بانسراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره إذ ليس في الوجود إلا الله و صفاته وأفعاله فهذا الصنف هم المقرئون النازلون في الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى ، وهم أيضاً على أصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى و درجات العارفين في المعرفة لا تنحصر إذ الاحاطة بكنه جلال الله غير ممكن ، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم و بقدر ما سبق لهم من الله في الأزل ، فالطريق إلى الله لا نهاية لمنازله ، فالسالكون سبيل الله لا نهاية للدرجاتهم ، وأما المؤمن إيماناً تقليدياً فهو من أصحاب اليمين و درجته دون درجة المقرئين وهم أيضاً على درجات فالأعلى من درجات أصحاب اليمين يقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرئين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدّى الفرائض كلها أعني الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج وأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام فإن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالذي

(١) تقدم في الباب آنفاً .

لم يتوسخ أصلاً ، وإن مات قبل التوبة فهذا أمره مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة لاسيما إذا كان إيمانه تقليدياً فإن التقليد وإن كان جزءاً فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال ، والعارف البصير أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعدّ بان - إلا أن يعفو الله - عذاباً يزيد على عذاب المناقشة في الحساب ، وتكون كثرة العذاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات ، وعند انقضاء مدة العقاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين والعارفون المستبصرون في أعلى عليين ، ففي الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف » (١) ولا تظنن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام بأن تقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملاً وأعطاه عشرة أمثاله ، و كان الجمل يساوي عشرة دنائير فأعطاه مائة دينار فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشرة بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته فروحه المالية وجسمه اللحم والدّم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية ، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال : أعطيته عشرة أمثاله كان صادقاً ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهرية فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر فلذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول : ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال و وزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله إنني أعطيت عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لاسبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر

به البلوغ و الكمال و أن يحصل في قلبه النور الذي به يدرك أرواح الجواهر وسائر الأموال فعند ذلك ينكشف له الصدق و العارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله ﷺ في هذه الموازنة إذ يقول : « الجنة في السموات » ^(١) كما ورد في الأخبار و السموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا ، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة و كذلك تفهيم البدوي و كما أن الجوهري مرحوم إذا بلي بالبدوي و القروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلي بالبلید الأبله في تفهيم هذه الموازنة و لذلك قال ﷺ : « أرحموا ثلاثة : عالماً بين الجهال ، و غني قوم افتقر و غزير قوم ذل » ^(٢) ، و الأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب و مقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم و امتحان و ابتلاء من الله و بلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي وهو المعني بقوله ﷺ « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » ^(٣) فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب ﷺ وهو الذي ينزل بالبدن فإن بلاء نوح ﷺ أيضاً من البلاء العظيم إذ بلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فراراً ، و لذلك لما تأذى رسول الله ﷺ بكلام بعض الناس قال : « رحم الله أخي موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » ^(٤) فإن كما لا يخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين فلا يخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ، و لذلك قل ما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلايا بالإخراج من البلاد و السعاية بهم إلى السلاطين و الشهادة عليهم بالكفر و الخروج عن الدين و واجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهره صغيرة عند الجاهلين من

(١) روى البخارى ج ٩ ص ١٥٣ في حديث هكذا « إذا سألت الله فساأله الفردوس فانه أوسط الجنة و أعلى الجنة و فوقه عرش الرحمن و منه تفجر أنهار الجنة » . و يفهم منه أن الجنة دون العرش و كون العرش فوق السموات ظاهر الأخبار .

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس .

(٣) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٤٣ من حديث سعد بن أبى وقاص و صحيحه .

(٤) أخرجه البخارى ج ٧ ص ١١٩ و أحمد من حديث ابن مسعود بسند صحيح .

المبذرين المضيعين .

فإذا عرفت هذه الدقائق فأمن بقوله ﷺ : « إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرآت » واجتهد أن لا تعجز عن درك النكتة الدقيقة التي ذكرنا وإياك أن تقصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسرّ الهيّ عرض على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه فأدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السرّ الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم ، فمن ذهل عن ذلك وأبطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ، ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالأعراض عنها والله يقول : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » (١) وكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدرّكاً في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله أنساه الله لا محالة نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقّي إلى أفق الملأ الأعلى ، وخان في الأمانة التي أودعها الله وأنعم بها عليه كافرأ لنعمته ومتعرّضاً لنقمته ، إلا أنه أسوء حالاً من البهيمة ، فإن البهيمة تتخلّص بالموت وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها فأليه مرجع الأمانة ومصيرها ، وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة ، والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن الحضرة الربوبية والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير للكلّ إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليّين إلى جهة أسفل سافلين ، ولذلك قال تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربّهم » (٢) فيبين أنهم عند ربّهم إلا أنهم منكوسون منحوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانتكست رؤسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل وذلك

(١) الحشر : ١٩ .

(٢) السجدة : ١٢ .

حكم الله تعالى فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه ، فنعوذ بالله من الضلال و النزول في منازل الجهال .

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار و يعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر و لا يخرج من النار إلا موحد ، و لست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه : لا إله إلا الله ، فإن اللسان من عالم الملك و الشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبتة و أيدي الغانمين عن ماله و مدة بقاء الرقبة و المال مدة الحياة فحيث لا تبقى رقبة و لا مال لا ينفع القول باللسان ، و إنما ينفع الصدق في التوحيد و كمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله و علامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه إذ لا يرى الوسايط و إنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل ، و هذا التوحيد متفاوت ، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، و منهم من له مثقال ، و منهم من له مقدار خردلة و ذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار فهو أول مخرج من النار ، و في الخبر يقال : « آخر جوامع النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان »^(١) « و آخر من يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان »^(٢) و ما بين المثقال و الذرة على تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال و بين طبقة الذرة ، و الموازنة بالمثقال و الذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال و بين النقود ، و أكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد ، فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك و أما بقية السيئات فيتسارع العفو و التكفير إليها ففي الأثر أن العبد ليوقف بين يدي الله عز و جل وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا و أخذ مال هذا و ضرب هذا فينقص من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فنقول الملائكة : يا ربنا قد فنيت حسناته و بقي طالبون كثير فيقال : القوامن سيئاتهم على سيئاته و صكوا له صكاً إلى النار ، و كما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه

(١) و (٢) أخرجهما ابن ماجه تحت رقم ٥٩ و ٦٠ باختلاف في اللفظ .

عوضاً عما ظلمه به ، وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحلّه فقال : لا أفعل ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها . وقال هو وغيره : ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر الأسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لاحالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضته خفيف وعلاجه هين فإن ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تنوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعفو والرضا ومما يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام وورا ، ذلك سر المشية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها ، فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فإن الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب وهو أعمى من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأفعال والأوصاف ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً ولو لم يكن عدلاً لم يصح قوله تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » (١) ولا قوله : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » (٢) وكل ذلك صحيح فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي يرى ، وكل نفس بما كسبت رهينة ، ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقاً لقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٣) وهذا كله قد انكشف

(١) فصلت : ٤٦ . (٢) النساء : ٤٠ . (٣) الرعد : ١١ .

لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه إذ قد يرى البعيد قريباً والكبير صغيراً ، ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى » (١).

المرتبة الثالثة رتبة الناجين وأعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخدموا فيخلق عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد عاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية ، فلا وسيلة تقر بهم ولا جنابة تبعدهم فما هم من أهل الجنة ولا هم من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين ، وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقيناً من الآيات والأخبار ومن أنوار الاعتبار ، فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمستيقن والإطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة ولا يبعد أن يرتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء ، والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة حتى قالت عائشة (٢) لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة ، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك وقال : « ما يدريك » . فإذن الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام .

أقول : روي في الكافي أن النبي ﷺ سئل عن الأطفال فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » (٣).

وأن الصادق عليه السلام سئل ممن مات في الفترة وممن لم يدرك الحنث والمعتهو فقال : « يحتج الله عليهم يرفع لهم ناراً فيقول لهم : ادخلوها فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن أبى قال : ها أنتم قد أمرتكم فعصيتُموني » (٤).

وفي رواية أخرى « فمن سبق له في علم الله عز وجل أن يكون سعيداً ألقى

(٢) رواه مسلم ج ٨ ص ٥٤ .

(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٤٩ .

(١) النجم : ١١ .

(٣) المصدر ج ٣ ص ٢٤٨ .

نفسه فيها فكانت عليه برداً وسلاماً ، و من سبق له في علم الله أن يكون شقيماً امتنع فلم يلق نفسه في النار فيأمر الله به إلى النار ،^(١) لتركه ما أمر الله و امتناعه من الدخول فيها .

المرتبة الرابعة رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم المقرَّبون السابقون ، فإنَّ المقلد وإن كان له فوزٌ على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقرَّبون وما يلتقي هؤلاء يجاوز حدَّ البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد بيان الله بيانٌ ، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى : « فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين »^(٢) ، وقوله : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »^(٣) و العارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم ، فأما الحور والقصور والفواكه واللبن والعسل والخمر والحلي والأساور فانهم لا يحرسون عليها و لو أعطوها لم يقنعوا بها و لا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله الكريم فهو غاية السعادات و نهاية اللذات و لذلك قيل لراية العودية : كيف رغبتك في الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار ، فهؤلاء قومٌ شغلهم حبُّ ربِّ الدار عن الدار و زينتها ، بل عن كلِّ شيءٍ سواه حتَّى عن أنفسهم ، و مثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه ، المستغرق همه بالنظر إلى وجهه و الفكر فيه فأنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحسُّ بما يصيبه في بدنه ، و يعبر عن هذه الحالة بأنّه فنى عن نفسه ومعناه أنّه صار مستغرقاً بغيره ، و صارت همومه همماً واحداً و هو محبوه ولم يبق فيه متسع لغير محبوه حتَّى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه ، و هذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان و الألحان على قاب الأكمه و الأصم إلى أن يرفع الحجاب عن سمعه و بصره فعند ذلك يدرك حالة

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٤٨ نقلاً بالمعنى .

(٢) السجدة : ١٧ . (٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٢٨ .

يعلم قطعاً أنه لم يتصور أن تخطريباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجابٌ على التحقيق وهرفعه ينكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة « وأن الدنيا آخرة لحي الحيوان لو كانوا يعلمون » فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات والسيئات .

﴿ بيان ما تعظم به الصغائر من الذلوب ﴾

إعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة ولذلك قيل : لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ، ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله ﷺ : « خير الأعمال أدومها وإن قل » ^(١) والأشياء تستبان بأضدادها فإذا كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلا أن الكبيرة قل ما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقل ما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات وقل ما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعادة ، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولا حقة ولو يتصور كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره .

أقول : روى في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : « لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار » ^(٢).

وعنه عليه السلام قال : « لا والله لا يقبل شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه » ^(٣).

وعن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » ^(٤)

(١) متفق عليه في الصحيحين من حديث عائشة كما تقدم بلفظ « أحب الأعمال » .

(٢) و (٣) المصدر ج ٢ ص ٢٨٨ تحت رقم ١ و ٣ .

(٤) آل عمران : ١٣٥ .

قال : الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الإصرار^(١).
ومنها^(٢) أن يستصغر الذنب فإن العبد كل ما استعظمه من نفسه صغر عند الله
وكل ما استصغره كبر عند الله لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه و كراهيته
له وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به واستصغاره يصدر عن الإلف به وذلك
يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده
بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما
يجري في الغفلة وقد جاء في الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه ، يخاف أن
يقع عليه و المنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره »^(٣) وقال بعضهم :
الذنب الذي لا يغفر قول العبد : ليت كل شيء عملته مثل هذا . وإنما يعظم الذنب
في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله ، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة
وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تنظر إلى قلة الهدية و انظر إلى عظم
مهديها ، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة و انظر إلى كبرياء من واجهته بها .

أقول : روى في الكافي عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال :
« اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تغفر ، قلت : وما المحقرات ؟ قال :
الرجل يذنب الذنب فيقول : طوبى لي لو لم يكن غير ذلك »^(٤).
و عن الكاظم عليه السلام قال : « لاتستكثروا كثيرا الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب
فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرا . وخافوا الله في السر حتى تعطوا من
أنفسكم النصف »^(٥).

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٨٨ تحت رقم ٢ .

(٢) من كلام الغزالي .

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٨٣ من رواية العارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن
مسعود حدثني أحدهما عن النبي صلى الله عليه وآله والآخر عن نفسه فذكر هذا أولا ، و « الله
أفرح بتوبة العبد » ثانيا ، ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وقد رواه البيهقي في الشعب
من هذا الوجه مرفوعاً وموقوفاً كما في المتن .

(٤) و (٥) المصدر ج ٢ ص ٢٨٢ تحت رقم ١ و ٢ .

وعن الصادق عليه السلام « أن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم و
يبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير » (١).

ومنها (٢) السرور بالصغيرة و الفرح والتبجح بها واعتداد التمكّن من ذلك
نعمة و الغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت
الصغيرة و عظم أثرها في تسويد قلبه حتى أن من المذنبين من يتمدّح بذنبه ويتبجح
به لشدة فرحه بمقارفته إياه كما تقول : أما رأيتني كيف مرّقت عرضه و يقول :
المناظر في مناظرته : أما رأيتني كيف فضحته و كيف ذكرت مساويه حتى أخرجته و كيف
استخففت به و كيف لبست عليه و يقول : المعامل في التجارة أما رأيت كيف روجت
عليه الزايف و كيف خدعته و كيف غبنته في ماله و كيف استحمقته فهذا وأمثاله تكبر
به الصغائر فإن الذنوب مهلكات و إذا دفع العبد إليها و ظفر الشيطان به في الحمل
عليها فينبغي أن يكون في مصيبة و تأسف بسبب غلبة العدو عليه و بسبب بعده من الله
تعالى فالمرضى الذي يفرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم
شربه لا يرجى شفاؤه .

و منها أن يتهاون بستر الله عليه و حلمه عنه و إمهاله إياه ولا يدري أنه إنما
يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً فيظن أن تمكّنه من المعاصي عناية من الله تعالى به
فيكون ذلك لأمه من مكر الله و جهله بمكا من الغرور بالله كما قال تعالى : « و
يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها و فبئس المصير » (٣).
و منها أن يأتي الذنب و يظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره
فإن ذلك منه جناية على ستر الله الذي سدله عليه و تحريك لرغبة الشر فيمن
أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فتغلّظت به فإن انضاف
إلى ذلك التمرغيب للغير فيه و الحمل عليه و تهئية الأسباب له صارت جناية رابعة
و تفاحش الأمر و في الخبر « كل الناس معافى إلا المجاهرين يبيت أحدهم على

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٢٧ تحت رقم ٦ .

(٢) من كلام النراقي . (٣) المجادلة : ٨ .

ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله عليه ويتحدث بذنبه «^(١) وهذا لأن من صفات الله و نعمه أنه يظهر الجميل و يستر القبيح ولا يهتك السر ، فالإظهار كفران لهذه النعمة و قال بعضهم : لا تذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبن و لذلك قال تعالى : « المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض يأمرن بالمنكر و ينهون عن المعروف »^(٢) . و قال بعض السلف : ما انتك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهوئها عليه .

أقول: روى في الكافي بإسناده عن مولانا الرضا عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة و المذيع بالسيئة مخذول و المستتر بها مغفور له »^(٣) .

و منها^(٤) أن يكون المذنب عالماً يقتدي به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الأبريسم والذهب و أخذه مال الشبهة من أموال السلاطين و دخوله على السلاطين و تودده إليهم و مساعدته إليهم بترك الإيثار عليهم وإطلاقه اللسان في الاعراض و تعديه باللسان في المناظرة و قصده الاستخفاف و اشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل و المناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم و يبقى شره مستطيراً في العالم آماداً متطاولة و طوي لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه . و في الخبر « من سن سنة سيئة فعله وزرها و وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً »^(٥) و قال تعالى : « و نكتب ما قدّموا و آثارهم »^(٦) والآثار ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل و العامل ، و قال ابن عباس : ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها و يحتملها الناس فيذهبون بها في الآفاق ، و قال

(١) أخرجه البخاري والطبراني في الصغير والوسط .

(٢) التوبة : ٦٧

(٣) المصدر ج ٢ ص ٤٢٩ تحت رقم ٢ .

(٤) من كلام الغزالي .

(٥) أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله و قد تقدم كراداً .

(٦) سورة يس : ١٢ .

بعضهم : مثل زلّة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويفرق أهلها . وفي الإسرائيليات أن عالماً كان يضلّ الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهرأ فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له : إن ذنبك لو كان فيما بينك وبين غفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار .

فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطرٌ فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنوب والاخرى إخفاؤه وكما يتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا فإذا ترك التجمّل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام ويكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمّل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ولا يقدرّون على التجمّل إلّا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك فحركات العلماء في طرفي الزيادة والنقصان بتضاعف آثارها إمّا بالربح وإمّا بالخسران ، وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها .

﴿الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامه الى آخر العمر﴾

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمأً وقصدأً وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلة بينه وبين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام و لتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بد من بيانها ، أمّا العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي ، وأمّا الندم فهو توجّع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدموع وطول البكاء فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزّته طال عليه مصيبتة وبكاؤه ، وأي عزيز أعز عليه من نفسه ؟ وأي عقوبة أشد من النار ؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأي مخبر أصدق من الله ورسوله ، ولو حدثته إنسان واحد يسمّى طبيباً أن ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت لطال في الحال حزنه ، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله ، والتعرض بها للنار فألم الندم كلّما

كان أشدّ كان تكفير الذّنوب به أرجى ، فعلامة صحّة الندم رقّة القلب و غزارة الدّمع ، و في الخبر « جالس التّوّابين فأَنهم أرقّ أفئدة » ^(١) ومن علامته تتمكّن مرارة تلك الذّنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية و بالرغبة نفرة ، و في الاسرائيليات : أن الله سبحانه قال لبعض أنبيائه و قد سأله النبيّ قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة و لم ير أثر قبول توبته فقال : و عزّتي و جلالتي لو شفع فيه أهل السماوات و الأرض ما قبلت توبته و حلاوة ذلك الذّنوب الّذي تاب منه في قلبه .

أقول: و من طريق الخاصّة ما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّه قال لتأمل بحضرته : « أستغفر الله » : « ثكلتك أمّك أتدري ما الاستغفار ، إنّ الاستغفار درجة العلّيين و هو اسم واقع على ستّة معان أوّلها الندم على ما مضى ، و الثّاني العزم على ترك العود عليه أبداً ، والثّالث أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أمّلس عليك تبعة ، والرّابع أن تعتمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها تؤدّي حقّها ، و الخامس أن تعتمد إلى اللّحم الّذي نبت على السحت فتذّيبه بالأحزان حتّى تلتصق الجلد بالعظم و ينشأ بينهما لحم جديد . و السادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أدقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول : أستغفر الله » ^(٢).

قال أبو حامد : فإن قلت : الذّنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول : من تناول عسلاً كان فيه سمٌ ولم يدركه بالذّوق واستلذه ، ثمّ مرض و طال مرضه و ألمه و تناثر شعره و فُلجت أعضاؤه فإذا قدّم إليه عسل فيه مثل ذلك السمّ و هو في غاية الجوع و الشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا فإن قلت : لا ، فهو جحد للمشاهدة ، بل ربّما تنفر عن العسل الّذي ليس فيه سمٌ أيضاً

(١) قال العراقي : لم أجده مرفوعاً و هو قول هون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في التوبة قال : « جالس التّوّابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب » . وقال أيضاً « فالموعظة إلى قلوبهم أسرع و هم إلى الرقة أقرب » و فيه أيضاً « التائب أسرع دمة وارق قلباً » .
(٢) أورده الشريف الرضي في النهج باب المختار من الحكم تحت رقم ٤١٧ .

لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا يرى إلا معرضاً عن الله متهاوناً بالذنوب مصرّاً عليها ، فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى الموت ، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في العسل النقرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم إذ لم يكن ضرره من العسل بل بما فيه ، ولم يكن ضرر التائب من سرقة وزناه من حيث أنه سرقة وزنى بل من مخالفته أمر الله وذلك جار في كل ذنب .

وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو واجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش مما مضى من عمره سنة سنة و شهراً شهراً و يوماً يوماً ونفساً نفساً وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها فإن كان قد ترك صلاة أو صلاتها مع ثوب نجس أو صلاتها بنية غير صحيحة لجعله بشرط النية فيقضيها عن آخرها فإن شك في عدد ما فاتته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أدّاه و يقضي الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن و يصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد ، وأما الصوم فإن كان قد تركه في السفر أو المرض ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتعزف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشغل بقضائه ، وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أوّل وقت اجتماع فيه شرائط وجوبها عليه فيقضي ما أخل به من ذلك أو أخل ببعض شروط أدائها المعتبرة بغالب الظن . وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له خروج والآن قد أفلس فعليه الخروج فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد فإن لم يكن له

المحجّة -٤-

كسب و مال فعلية أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكوات أو الصدقات ما يحجّ به فإنه إن مات قبل الحجّ مات عاصياً قال ﷺ : « من مات و لم يحجّ فليمت إن شاء يهودياً و إن شاء نصرانياً » ^(١) و العجز الطاري بعد القدرة لا يسقط عنه الحجّ فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات و تداركها ، وأمّا المعاصي فينبغي أن يفتش أوّل بلوغه عن سمعه و بصره و لسانه و بطنه و يده و رجله و فرجه و سائر جوارحه ثمّ ينظر في جميع أيامه و ساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتّى يطلع على جميعها صفائرها و كبائرها ، ثمّ ينظر فيها فما كان من ذلك بينه و بين الله من حيث لا يتعلّق بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم و قعود في مسجد من الجنابة و مسّ مصحف بغير وضوء و اعتقاد بدعة و شرب خمر و سماع ملاء و غير ذلك ممّا لا يتعلّق بمظالم العباد فالتوبة عنه بالندم و التحسّر عليها و بأن يحسب مقدارها من حيث الكبر و من حيث المدّة و يطلب لكلّ معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات مقدار تلك السيئات أخذاً من قوله ﷺ : « اتّق الله حيث كنت و أتبع السيئة الحسنة تمحها » ^(٢) بل من قوله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات » فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن و بمجالس الذكر ، و يكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ، و يكفر مسّ المصحف محدثاً باكرام المصحف و كثرة قراءة القرآن منه و كثرة تقبيله و بأن يكتب مصحفاً و يجعله وقفاً و يكفر شرب الخمر بالتصدّق بكلّ شراب حلال هو أطيب و أحبّ إليه ، و عدّ جميع المعاصي غير ممكن ، و إنّما المقصود سلوك طريق المضادة فإنّ المرض يعالج بضده فكلّ ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلّا نور يرتفع إليه بحسنة تضادّها و المتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن يمحو كلّ سيئة بحسنة من جنسها لكي تضادّها فإنّ البياض يزال بالسواد لا بالحرارة و البرودة و هذا التدرّج و التحقيق من التلطّف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق و الثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات و إن كان ذلك أيضاً مؤثراً في المحو فهذا حكم ما بينه و بين

الله تعالى ، ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة و أثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها ، إلا لفها والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم ، قال عليه السلام : «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم» ^(١) وفي لفظ آخر «إلا الهم يطلب المعيشة» . وفي الحديث «إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم فيكون كفارة لذنوبه» ^(٢) . ويقال : إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب و الهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع ، فإن قلت : هم الإنسان غالباً بماله و ولده و جاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة ؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة ، فقد روي أن جبرئيل دخل على يوسف في السجن فقال له : كيف تترك الشيخ الكتيب فقال ^(٣) : قد حزن عليك حزن مائة ثكلي ؟ قال : فماله عند الله ؟ فقال : أجر مائة شهيد . فإذن الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله .

و أما مظالم العباد ففيها معصية و جناية على حق الله فإن الله نهى عن ظلم العباد أيضاً ، فما يتعلق منه بحق الله تداركه بالندم و التحسّر و ترك مثله في المستقبل و الا يتان بالחסنات التي هي أضدادها فيقابل إيذاؤه الناس بالا حسان إليهم ويكفر غصب أموالهم بالنصدق بملكه الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه و أمثاله ، ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده فالإعتاق إيجاد لا يقدر إلا إنسان على أكثر منه فيقابل الأعدام

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط و أبونعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف و قد تقدم في النكاح .

(٢) أخرجه أحمد في المسند من حديث عائشة بسند حسن كما في الجامع الصغير و رواه البراد كما في مجمع الروايد ج ١٠ ص ١٩٢ . (٣) كذا .

بالإيجاد ، و بهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل با عتاق رقبة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ولم ينجه مالم يخرج من مظالم العباد ، و مظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراس أو القلوب أعني به الإيذاء المحض . أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية وإيصالها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته و هو في عهدة ذلك قبل الوصول و إن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص ، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدّم و يحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه و إن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب فيه حدّ الله فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه و يهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حقّ الله بل عليه أن يستتر بستر الله و يقيم حدّ الله على نفسه بأنواع المجاهدة و التعذيب فالعفو في محض حدود الله قريب من التائبين النادمين فإن رفع أمره إلى الوالي حتى أقام عليه الحدّ فالحدّ وقع موقعه و تكون توبته صحيحة مقبولة عند الله بدليل ما روي « أن ما عزن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنني قد ظلمت نفسي وزنيت و إنني أريد أن تطهرني فردّه ، فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إنني قد زنيت فردّه الثانية و الثالثة فلما كان في الرابعة أمر به فحفر له حفيرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين ، فقايل يقول : لقد هلك و أحاطت به خطيئته . و قائل يقول : ما توبة أفضل من توبة ما عزن ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم »^(١) . وجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله : إنني زنيت فطهرني فردّها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت ما عزا فو الله إنني لحبلى فقال : أما الآن فلا فاذهبي حتى تضعي فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت : هذا قد ولدته قال : إذهبي فارضيه حتى تقطميه فلما قطمته أتت بالصبي و في يده كسره خبز فقالت : يا نبي الله قد قطمته و قد أكل

(١) أخرجه مسلم ج ٥ ص ١١٩ و قد تقدم .

الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فربحوها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدّم على وجه خالد فسبها فسمع رسول الله ﷺ سبّه إيّاها فقال : « مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لوتابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلّى عليها ودفنت » (١) .

وأما القصاص وحدّ القذف فلا بدّ من تحليل صاحبه المستحقّ فيه وإن كان المتناول مالاً تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كتر وبيع زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكلّ ذلك يجب أن يفش عنه لامن حدّ بلوغه بل من أوّل مدّة وجوده فإنّ ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجّه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به في القيامة إذ يستوي في الحقوق الماليّة الصبيّ والبالغ وليحاسب نفسه على الحسّنات والذّنات من أوّل يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة وليناقدش قبل أن يناقدش ، فمن لم يحاسب نفسه في الدّنيا طال في الآخرة حسابه فإن حصل مجمع ما عليه بظنّ غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلّمهم أو ليؤدّ حقوقهم وهذه التوبة تشقّ على الظّلمة وعلى التجار فإنّهم لا يقدرّون على طلب المعاملين كلّهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كلّ واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلّا أن يكثر من الحسنات حتّى تفيض منه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنّه إن لم تف بها حسناته حمل من سيّئات أرباب المظالم فيهلك بسيّئات غيره ، وهذا طريق كلّ تائب في ردّ المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدّة الظلم فكيف و ذلك ممّا لا يعرف وربّما يكون الأجل قريباً فينبغي أن يكون تشمّره للحسنات والوقت ضيق أشدّ من تشمّره الذي كان في المعاصي في متّسع الأوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمّته أمّا

(١) حديث الفامدية ، رواه مسلم ج ٥ ص ١٢٠ .

أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالاً معيناً وما لا يعرف له مالاً فعلياً أن يتصدق به فإن اختلط الحرام بالحلال فعلياً أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد و يتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحرام والحلال .

أقول: و من طريق الخاصة عن أمير المؤمنين عليه السلام « أنه إذا تصدق بخمسه حل له الباقي » (١) .

قال : و أما الجناية على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم بالغيبة فيطلب كل من تعرض له بلسانه أو أذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحداً واحداً منهم و من مات أو غاب فقد فات أمره و لاتدرك إلا بتكثير الحسنات ليؤخذ منه عوضاً في القيامة و أما من وجده و أحله بطيب قلب منه فذلك كفارته و عليه أن يعرف قدر جنايته و تعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي و ربما لو عرف ذلك و كثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال و ادخر ذلك في القيامة ذخيرة بأن يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فإن كان في جملة جنايته على الغير مالوذكروه و عرفه لتأذي بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شافه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحل مبهماً ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميئت و الغائب ، فأما الذكرك و التعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها و مهما ذكر جنايته و عرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالإحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه فعلياً أن يتلطف به و يسعى في مهماته و أغراضه و يظهر من حبه و الشفقة عليه ما يستميل به قلبه فإن الإنسان عبيد الإحسان و كل من نقر بسيئة مال بحسنة فإذا تاب قلبه بكثرة تودده و تلتطفه سمحت نفسه بالإحلال فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلتطف به و اعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن تجبر بها في القيامة جنايته وليكن قدر سعيه في فرحه و سرور قلبه بتودده و تلتطفه كقدر سعيه في إيذائه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في

(١) رواه الكليني في حديث في الكافي ج ٥ ص ١٢٥ باب مكاسب الحرام .

القيامة بحكم الله به عليه كمن أترف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال عن القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض عنه شاء أم أبى فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين وفي المتنق عليه من الصحيحين^(١) عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعاً وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض وأزهدهم فدل على راهب ، فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة فقال : لا فقتله فكمّل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها ناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا بلغ نصف الطريق أتاه الموت فاختمت فيه ملائكة الرّحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرّحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاموا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرّحمة ، وفي رواية فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها ، وفي رواية « فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي ، وقال : قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له ، فبهذا يعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمنقال فلاهد للتائب من تكثير الحسنات . هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .

فأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً أو يعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزمًا جزمًا أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال ، ولكن لا يكون تائباً مالم يتأكد عزمه في الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول

أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال فإن كان له مالٌ موزونٌ حلالٌ أو كانت له حرفة يكتسب بها قد الكفاية فليقتصر عليه فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات وقد قال بعضهم : من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله تعالى سبع مرّات لم يبتل بها . وقال آخر : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبداً . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنى والغصب مثلاً وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس : إن هذه التوبة لاتصح وقالوا : تصح ، ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال : لا تصح إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك فإننا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتلتها سبب لقلته ونقول لمن قال : تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ ، بل النجاة والفوز بترك الجميع ، هذا حكم الظاهر ولنا نتكلم في خفايا أسرار عفوان الله . فإن قال من ذهب إلى أنه لا تصح : إنني أردت به أن التوبة عبادة عن الندم وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنى إن كان توجعه لأجل المعصية فإن العلة شاملة لهما إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين ، لأن توجعه بفوات محبوه سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجع العبد بفوات محبوه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو بالزنى فكيف يتوجع على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث أنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون بعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدّنين دون الآخر فإن استحال ذلك من حيث

إنَّ المعصية في الخمرين واحدة وإنَّما الدَّتان ظروفاً ، فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث إنَّها مخالفة الأمر واحدة فإنَّ معنى عدم الصحة أنَّ الله وعد التائبين دية وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات دون بعض فهو كالمملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنَّه إذا لم يتم الإيجاب والقبول يقال : إنَّ العقد لا يصحُّ أي لم يترتب عليه الثمرة وهو المملك وتحقيق هذا أنَّ ثمرة مجرَّد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمره الندم تكفير ما سبق ، فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية ، وذلك يعمُّ جميع المعاصي ، وهذا كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء ، فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إمَّا أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة ، أمَّا التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنَّه يعلم أنَّ الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقتنه والصغائر أقرب إلى تطرُّق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندَّم عليه ، كالذي يجني على أهل الملك وحرمه ويجني على دابَّته ، فيكون خائفاً من الجناية على الأهل ، مستحقراً للجناية على الدابَّة . والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله ، وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثرت التائبون في الأعصار الخالية ولم يكن أحدٌ منهم معصوماً فلا تستدعي التوبة العصمة ، والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً ويحذر به السكر تحذيراً أخفَّ منه على وجه يشعر معه أنَّه ربَّما لا يظهر ضرر السكر أصلاً فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإنَّ كليهما جميعاً بحكم شهوته ندم على كل العسل دون السكر .

الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أنَّ بعض الكبائر أشدُّ وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه بأنَّ ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضاً ممكن كما في تفاوت الصغائر والكبائر لأنَّ الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها

وكذلك قد يتوب عن الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنى مثلاً إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور ، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجّح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل وندماً على الماضي .

الثالث أن يتوب عن صغيرة وهو مصرّ على كبيرة يعلم أنها كبيرة كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرّم أو ما يجري مجراه وهو مصرّ على شرب الخمر وهو أيضاً ممكن وجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلّا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً ولكن تكون لذّة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة وأسباب توجب قوّة الشهوة فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون مليّاً بتحريك العزم ولا قوياً عليه فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلّا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية وقد تشدّد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنها وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير المحرّم وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القويّة فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخص العنان بالكليّة بل أجاهده في بعض المعاصي ففساني أغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي ولولم يتصور هذا لما تصوّر من الفاسق أن يصوم ويصلي ولقيل له : إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصحّ وإن كانت لله فاترك الفسق فإنّ أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله مالم تتقرّب بترك الفسق وهذا محال بل يقول : الله عليّ أمران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان وأنا مليّ في أحدهما يقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر ، فأقهره فيما أقدر عليه وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي ، فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم إذ لا مسلم إلّا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلّا هذا وإذا فهم

هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب يمكن وجودها والخوف إذا كان من فعل ماضٍ أودت الندم والندم يورث العزم ، وقد قال النبي ﷺ : « الندم توبة » (١) ولم يشترط الندم على كل ذنب . وقال ﷺ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » (٢) ولم يقل التائب من الذنوب كلها ، وبهذه المعاني يتبين أن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض لسخط الله نعم يجوز أن يتوب عن الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون القليل . لأن لكثرة المعصية تأثيراً في كثرة العقوبة ، فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله كالمريض الذي حدّره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلاً ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد أن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقي عليه ، إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة ، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصوّر اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب وفاقؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي .

فإن قلت : فهل تصح توبة العنّين من الزنى الذي قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول : لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه ، ولكنني أقول : لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقّق به ضرر الزنى الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسّر وتندّم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكان حرقه الندم تقمّع تلك الشهوة وتغلّبها فإنني أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه و ماحياً عنه سيئته إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيبها كان من التائبين وإن لم يطره عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسّر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار

(١) تقدم أول الباب .

(٢) تقدم غير مرة في الباب . وفي استدلاله بالخبر تأمل لأن المراد الجنس لا النوع .

أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنى لو ظهر قصده فإذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حقّ العنّين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدّر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف والله مطلع على ضميره وعلى مقدار تندرته فعماء يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين أحدهما حرقة الندم والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل ، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لقلنا : إن التوبة لا تقبل ما لم يعيش التائب بعد التوبة مدّة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرّات كثيرة و ذلك بما لا يدلّ ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً .

فإن قلت : إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها و يمنعها فأيتهما أفضل ؟ فاعلم أن هذا بما يختلف العلماء فيه ، فقال قوم : إن المجاهد أفضل لأن له مع فضل التوبة فضل الجهاد ، وقال آخرون : ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة . وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حقّ و عن قصور عن كمال الحقيقة . و الحقّ فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان أحدهما أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا إذا تركه بالمجاهدة قد دلّ على قوة يقينه واستيلاء دينه على شهوته ، فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين وأعني بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبعث بإشارة اليقين و تقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين فهاتان قوتان تدلّ المجاهدة عليهما قطعاً و قول القائل : إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب .

فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل : العنّين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة ، و الصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لا عدو له والملك ربّما

يُغلب مرّة وإن غلب مرّات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأنّ العزّ في الأخطار وأنّ العلوّ شرطه اقتحام الأغوار ، بل هو كقول القائل : الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب و الفرس لأنّه آمن من أن يجمع به فرسه فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدي عليه ، فهذا خطأ بل صاحب الفرس و الكلب إذا كان قوياً عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد ، والحالة الثانية أن يكون بطلان النزوع بسبب قوّة اليقين و صدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتّى تأدّب بتأدّب الشرع فلا تهيّج إلاّ بالإشارة من الدّين و قد سكنت بسبب استيلاء الدّين عليه ، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها وقول القائل : ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد ، فإنّ الجهاد ليس مقصوداً لعينه بل المقصود منه قطع ضراوة العدو حتّى لا يستجرك إلى شهواته ، وإن عجز عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدّين فإذا قهرته و حصلت المقصود فقد ظفرت و ما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر . و مثاله كمثل من قهر العدو واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صفّ القتال و لا يدري كيف يسلم و مثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماع بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ، و لقد زلّ في هذا فريق فظنّوا أنّ الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا أنّ ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق ، و ظنّ آخرون أنّ قمع الشهوات و إماطتها بالكليّة مقصود حتّى جرّب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال : هذا محال فكذب بالشرع و سلك سبيل الإباحة و استرسل في اتّباع الشهوات ، و كل ذلك جهل و ضلال ، و قد قرّرنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربح المهلكات .

فإن قلت : فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذّنوب و لم يشتغل بالتفكير فيه و الآخر جعله نصب عينه و لا يزال يتفكّر فيه و يحترق ندماً عليه فأيهما أفضل ؟

فاعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسي ذنبك وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى حاليين وكلام المتصوفة أبداً يكون قاصراً فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهتم حال غيره ، فتختلف الأجوبة باختلاف الأحوال ، وهذا نقصان بالإضافة إلى درجة العلم فإن معرفة الأشياء على ما هو عليه أفضل وأعلى ولكنه كمال بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجهد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهتم أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله ، وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم والتعليم فالطريق إلى الله كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الاشتراك في أصل الهداية .

فأقول : تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدي المريد ، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى الغافل كمالاً ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يرجع على غير السلوك فإن ظهر له مبادي الوصول وانكشف له أتوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ، ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماسبق من أحواله وهو الكمال ، بل لوعاق المسافر عن الطريق إلى بلدة من البلاد نهرٌ حاجز طال تعب المسافر في عبوره من حيث أنه كان قد خرب جسره من قبل فلوجلّس على شاطئ النهر بعد عبوره يبكي متأسفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلاً فتعذر السلوك وكان على طريقه أنهارٌ وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكأوه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله ، فإن حصل له من التنبه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء

عليه ، و هذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق و المقصد و العائق و طريق السلوك و قد
أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم و في ربح المهلكات ، بل نقول : شرط دوام
التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته ، و لكن إن كان شاباً
فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالحور و القصور فإن ذلك
الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة ، بل ينبغي إن يتفكر في
لذة جوار الله فقط فإن ذلك لا نظيره في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون
محركاً للشهوة ، فالمبتدي أيضاً قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا
يصدئك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود و نياحته عليه السلام فإن
قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم
و أفعالهم إلى الدرجات اللأئمة بأمتهم فإنهم ما بعثوا إلا لأرشادهم فعليهم التلبس
بما تنفع أمتهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من
لا يشير على مراده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها ، و قد كان مستغنياً عنها لفراغه
عن المجاهدة و تأديب النفس ولكن تسهلاً للأمر على المريد ، ولذلك قال عليه السلام :
« أما إنني لا أنسى و لكنني أنسى لأشعر » ^(١) و لا تعجب من هذا فإن الأهم
في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء و كالمواشي في كنف الرعاة أما
ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما
قال عليه السلام للحسن عليه السلام : « كخ كخ » لما أخذ ثمرة من الصدقة و وضعها في فيه ^(٢)
و ما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول : ارم هذه الثمرة فإنها حرام و لكنه إذ علم
أنه لا يفهم منطق ترك فصاحته و نزل إلى لكنته بل الذي يعلم شاة أو طائرأ يصوت
به رغاء أو صغيراً تشبهاً بالبهيمة والطائر تلتفتاً في تعليمه ، فإنك أن تغفل عن
أمثال هذه الدقائق فإنها مرآة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين .

(١) ما عثرت على أصله الا على ما في الموطأ هكذا « عن مالك بلغه أن رسول الله

صلى الله عليه وآله قال : « انى لا أنسى أو أنسى لاسن » راجع الموطأ ج ١ ص ٩١ .

(٢) أخرجه البخارى ج ٢ ص ١٥٠ من حديث أبي هريرة .

﴿بيان أقسام العباد في دوام التوبة﴾

إعلم أن طبقات التائبين أربع طبقات : الطبقة الأولى أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا يتفكُّ البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات و اسم هذه التوبة التوبة النصوح و اسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ : «سبِق المفردون المستهترون بذكر الله وضع الذِّكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً» (١) فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ، فمن تأب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة فقتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صراعها ، و إلى من لا يتفكُّ عن منازعة النفس ولكنّه مليء بمجاهدتها و ردّها ، ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلّة وباختلاف المدّة و باختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن غتطف قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ، ومن ممهل طال جهاده وصبره و تبادت استقامته وكثرت حسناته و حال هذا أعلى و أفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة حتّى قال بعض العلماء : إنّما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي عشر مرّات أن يتمكّن منه عشر مرّات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى و اشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظيم أثره لو فرض ، ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فيهيّج الشهوة وتحضر الأسباب حتّى يتمكّن ثم يطمع في الانكفاف فإنّه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتّى يسدّ طريقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء .

(١) أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ٨٨ واستهتر فيه أولع به ولا يتحدث بنيره ولا يفعل غيره .

الطبقة الثانية : تأب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات و كبائر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد و تجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرّضه لها ، وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة ، إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة لاعن تصميم عزم وتخمين رأي و قصد ، وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى ينقل ميزانه فترجع كفة الخيرات فأما إن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد ، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى : «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّٰم إن ربك واسع المغفرة» (١) فكل إمام يقع بصغيرة لاعن توطئ نفس عليه فهو جدير بأن يكون من اللّٰم المعفو عنه ، وقد قال تعالى : «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله» (٢) فأثنى عليهم من ظلمهم أنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه و إلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ فيما رواه علي عليه السلام « خياركم كل مفتن تواب» (٣) و في خبر آخر «المؤمن كالسنبلة تقي أحياناً وتميل أحياناً» (٤) و في الخبر «لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الغينة بعد الغينة» (٥)

(١) النجم : ٣٢ . (٢) آل عمران : ١٣٥ .

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب عن علي عليه السلام بسند صحيح كما في الجامع الصغير . و أخرج أحمد بإسناده عن أبي جعفر محمد بن علي عن محمد بن العنفة عن أبيه علي بن أبي طالب عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب » . والمفتن - بفتح التاء - الذي يفتن و يبتعن بالذنوب .

(٤) أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير . و قال العراقي : وفي الأمثال للرامهرمزي إسناده جيد .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير والوسط بسند جيد كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠١ .

أي الحين بعد الحين ، و كل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرتين ، و من يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار ، و كالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفنوره عن التكرار و التعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة ، وذلك يدل على نقصان الطبيب و الفقيه ، بل الفقيه في الدّين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي ﷺ : « كل بني آدم خطاءٌ وخير الخطائين التوابون المستغفرون » (١) . و قال أيضاً : « المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعته » (٢) أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم .

و قال تعالى : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا و يدرؤن بالحسنة السيئة » (٣) فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً .

الطبقة الثالثة أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق و قصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القعدة و الشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله على قمعها و كفاه شرها هذا اُمنيته في حال قضاء الشهوة و عند الفراغ يتندّم و يقول : ليتني لم أفعله وسأتوب عنه و أجاهد نفسي في قهرها ، لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى و يوماً بعد يوم ، فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسولة صاحبها من

(١) أخرجه الترمذي واستغربه وابن ماجه تحت رقم ٤٢٥١ والحاكم ج ٤ ص ٢٤٤

و صحح استاده وأخرجه أحمد من حديث أنس كما في الفتح الرباني ج ١٩ ص ٣٣٧ .

(٢) رواه الطبراني في الصغير و الاوسط و البزار أيضاً من حديث جابر و قال

الطبراني : معنى واه يعني ملذّب و راقع يعني تائب مستغفر و في سنده ضعف كما في مجمع

الروايد ج ١٠ ص ٢٠١ لتمام الخالد الخزاعي .

(٣) القصص : ٥٤ .

الذين قال الله تعالى فيهم : « و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيئاً » (١) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات و كراهيته لما يتعاطاه مرجو فعى الله أن يتوب عليه و عاقبته بخطرة من حيث تسويغه و تأخيرها ، فربما يختطف قبل التوبة و يقع أمره في المشيئة ، فإن تداركه الله بغضله و جبر كسره و امتن عليه بالنوبة التحق بالسابقين و إن غلبته شقوته و قهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ماسبق عليه من القول في الأزل لأنه مهما تعذر على المتفق مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه ، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة و دركاتنا بالحسنات و السيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض و الصحة بتناول الأغذية و الأدوية و ارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل و المواظبة على تقوية النفس ، فكما لا يصلح لمنصب الرئاسة و القضاء و التقدم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التقية ، فلا يصلح لملك الآخرة و نعيمها و لا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية و التطهير هكذا سبق في الأزل تدبير رب الأرباب و لذلك قال تعالى : « و نفس و ماسواها فآلهمها فجورها و تقويها قد أفلح من زكياها » و قد خاب من دسيتها (٢) فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً و التوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال عليه السلام : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس : إنه من أهلها و لا يبقى بينه و بينها إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فليعمل بعمل أهل النار فيدخلها » (٣) فاذا خوف من الخاتمة قبل التوبة و كل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به فليراقب الأنفاس و لا وقع المحذور و دامت الحسرات حين لا ينفع التحسر .

(١) التوبة : ١٠٢ . (٢) الشمس : ٧ الى ١٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٧٦ باب القدر . وفيه « ذراع » مكان « شبر » .

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجري مدّة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسّف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع الشهوات فهذا من جملة المصرّين و هذه النفس هي النفس الأمّارة بالسوء الفعّارة من الخير و يخاف على هذا سوء الخاتمة و أمره في مشيئة الله ، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها و إن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار و لو بعد حين ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه كما لا يستحيل أن يدخل الانسان خراباً ليجد كنزاً فيتفق أن يجده ولا أن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلّم كما كان للأَنْبياء ﷺ فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد و التكرار و طلب المال بالتجارة و ركوب البحار و طلبها بمجرّد الرّجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة و طلب العلوم من تعليم الملائكة ، وليت من اجتهد تعلّم ، وليت من اتّجر استغنى ، وليت من صام وصلى غفر له ، فالناس كلّهم محرومون إلّا العاملون و العاملون كلّهم محرومون إلّا العاملون و العاملون كلّهم محرومون إلّا المخلصون و المخلصون على خطر عظيم ، و كما أن من خرب بيته و ضيّع ماله و ترك نفسه و عياله جياً يزعم أنّه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب بعد عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين و إن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله و هو مقصّر عن الطاعة مصرّ على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة معدود عند أبواب القلوب من المعتوهين ، والعجب من عقل هذا المعتوه و ترويعه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول : إن الله كريمٌ و جنته ليست تضيق عن مثلي و معصيتي ليست تضرّه ثمّ تراه يركب البحار و يقتحم الأوعار في طلب دينار و إذا قيل له : إن الله كريمٌ و دنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك و كسلك بترك التجارة ليس يضرّك فاجلس في بيتك فعاث يرزقك من حيث لا تحسب يستحق قائل هذا الكلام و يستهزئ و يقول : ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهباً و لا فضة و إنما ينال ذلك بالكسب هكذا قدّره ربّ

الأرباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ، ولا يعلم المغرور : أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً وأنه قد أخبر بذلك إذ قال : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ^(١) فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا ، وكيف يقول : ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاء الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد ، وهذا يمنعه من شدة الاجتهاد في غالب الأمر ، فنعوذ بالله من العمى والضلال ، فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحبه جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى : « ولوترى إذا المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لعمل صالحاً » ^(٢) أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » فارجعنا لنسعى وعند ذلك لا يتمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب ، فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب .

❖ (بيان ما ينبغي أن يبادر إليه الغالب) ❖

❖ (ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة أو عن الغفلة بحكم الاتفاق) ❖
إعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه ، فإن لم يساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يبدأ بالحسنة السيئة لتحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً والحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها . فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل لتذلل العبد الآبق ويكون ذلّه بحيث يظهر لسائر العباد ، وذلك بنقصان كبره فيما بينهم ، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات . وأما باللسان

(١) النجم : ٣٩ .

(٢) السجدة : ١٢ .

فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول : «ربّ ظلمت نفسي وعملت سوء فاعفر لي ذنوبي وكذلك يكثّر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار . وأمّا بالجوارح فبالطاعات والصدقات . وفي الآثار ما يدلّ على أنّ الذّنوب إذا تبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوًّا ، أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أو العزم على التوبة وحبّ الاقتلاع عن الذّنوب وخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له ، وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن يصليّ عقيب الذّنوب ركعتين ثمّ يستغفر الله بهما سبعين مرّة ، ويقول : « سبحان الله العظيم وبحمده » مائة مرّة ، ثمّ يتصدّق بصدقة ثمّ يصوم يوماً ، وفي بعض الآثار « يسبغ الوضوء ويدخل المسجد ويصليّ ركعتين ، وفي بعض الأخبار « يصليّ أربع ركعات » ^(١) وفي الخبر « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة يكفرها السرّ بالسرّ والعلانية بالعلانية » ^(٢) ولذلك قيل : صدقة السرّ تكفر ذنوب الليل ، وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار . وفي الخبر « إنّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ : إنّي عالجت امرأة فأصببت منها كلّ شيء إلّا المسيس فاقض عليّ بحكم الله ، فقال ﷺ : أو ماصليت معنا صلاة الغداة ؟ قال : بلى ، فقال : إنّ الحسنات يذهبن السيئات » ^(٣) وهذا يدلّ على أنّ ما دون الزّنى من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله « الصلوات الخمس كفارة لما بينهنّ إلّا الكبائر » ^(٤) فعلى الأحوال كلّها ينبغي أن يحاسب نفسه كلّ يوم و يجمع سيئاته و يجتهد في دفعها بالحسنات ، فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حلّ عقدة الإصرار ؟ وفي الخبر « المستغفر من الذّنوب وهو مصرّ عليه كالمستهزئ بآيات

(١) أخرج أحمد من حديث أبي الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام فصلى ركعتين - أو أربعاً - (الشك من الراوي) يحسن فيها الركوع والخشوع ثم استغفر الله غفر له » راجع لمجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠١ .
(٢) أخرجه أحمد في الزهد عن عطاء مرسل بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه البخاري ج ٦ ص ٩٤ من حديث ابن مسعود .

(٤) تقدم غير مرة .

الله» (١) و كان بعضهم يقول : أستغفر الله من قولي أستغفر الله . و قيل : الاستغفار باللسان توبة الكذابين ، وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ؟ فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول فقال : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » (٢) فكان بعض الصحابة (٣) يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار فإن ذهب هلكنا . فنقول : الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرّد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الإنسان : بحكم العادة وعن رأس الغفلة : أستغفر الله و كما يقول إذا سمع صفة النار : نعوذ بالله منها ، من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع إلى مجرّد حركة اللسان ولا جدوى له فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى و ابتهاجه في سؤال المغفرة عن صدق إرادة و خلوص نيّة و رغبة فلهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال رَبِّهِمْ : « ما أصرّ من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة » (٤) وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب .

وللتوبة و الاستغفار درجات و أوائلها لا تخلو عن الفائدة و إن لم ينته إلى أواخرها ولذلك قال سهل . لا بدّ للعبد في كلّ حال من مولا ف أحسن أحواله أن يرجع إليه في كلّ شيء ، فإن عصي قال : يا ربّ استر عليّ ، فإذا فرغ من المعصية قال : يا ربّ تب عليّ ، فإذا تاب قال : يا ربّ ارزقني العصمة ، و إذا عمل طاعة قال :

(١) أخرجه البيهقي في الشعب و ابن عساكر عن ابن عباس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٢) الانفال : ٣٣ .

(٣) أخرجه الترمذي عن أبي موسى الأشعري أنه قال هذا القول . وأخرج أبو الشيخ والحاكم و صححه البيهقي في الشعب أن قائله أبو هريرة . و البيهقي في طريق آخر أنه ابن عباس رضي الله عنه . راجع الدر المنثور ج ٣ ص ١٨٢ .

(٤) أخرجه الترمذي ج ١٣ ص ٦٩ و قد تقدم في الدعوات .

يا ربّ تقبل منّي . و سئل أيضاً عن الاستغفار الذي يكثر الذنوب فقال : أوّل الاستغفار الاستجابة ، ثمّ الإجابة ، ثمّ التوبة ، فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإجابة أعمال القلوب ، و التوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثمّ يستغفر من تقصيره الذي هوفيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ، ثمّ التنقل إلى الانفراد ، ثمّ الثبات ، ثمّ البيان ، ثمّ القرب ، ثمّ المعرفة ، ثمّ المناجاة ، ثمّ المصافاة ، ثمّ الموالاتة ، ثمّ محادثة السرّ وهو الخلّة ، ولا يستقرّ هذا في قلب عبد حتّى يكون العلم غذاءه ، و الذّكر قوامه ، و الرضا زاده ، و التوكل صاحبه ، ثمّ ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش .

وسئل أيضاً عن قوله ﷺ : « التائب حبيب الله » فقال : إنّما يكون التائب حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون - الآية - » ^(١) وقال : الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكبره حبيبه و المقصود أن للتوبة ثمرتين إحداهما تكفير السيئات حتّى يصير كمن لا ذنب له ، و الثاني نيل الدرجات حتّى يكون حبيباً ، و للتكفير أيضاً درجات فبعضها محو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضها تخفيف له و تفاوت ذلك بحسب درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب و التدارك بالحسنات و إن خلا عن حلّ عقدة الإصرار من أوائل الدرجات و ليس يخلو عن الفائدة أصلاً فلا ينبغي أن يظنّ أن وجودها كعدمها ، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ^(٢) صدق و أنّه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكن لا يرجح الميزان بأعمال الذرّات ، وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يترجّح بذرات الخير إلى أن يثقل ومثله كثرة السيئات فأياك وأن تستصغر ذرّات الطاعات فلا تأتيتها و ذرّات المعاصي فلا تتقيها ، كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعلّلاً بأنّها لا تقدر في كلّ ساعة إلّا على خيط واحد و أي غنى يحصل بخيط و ما وقع ذلك في

التياب ، ولا تدري المعنوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة ، فاذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً ، بل أقول : الاستغفار باللسان أيضاً حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام بل خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصاً بالاضافة إلى عمل القلب ، ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل ؟ فقال : اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في خير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول . وما ذكره حق فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي ، فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما تعود فقال : أستغفر الله ، ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى أن يقول : ما أحمقك وما أقبح كذبك ، ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادي الشر من شريك قال بحكم سبق اللسان : نعوذ بالله ، فإذا تعود الفضول قال : لعنة الله فيعصي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير ، وهو من جملة معاني قوله تعالى : « إن الله لا يضيع أجر المحسنين » ^(١) ومعاني قوله تعالى : « وإن تك حسنة يضاعفها » ^(٢) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، فإياك أن تلمخ في الطاعات بمجرّد الآفات فيفتردغبك في العبادات فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعبه على المغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا و السرائر فأبي خير في ذكر اللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق في هذه المكيدة على ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ، أما السابق فقال : صدقت يا ملعون ، ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلاً فلا جرم أعدّ بك مرتين وأرغم أنفك

من وجهين فأُضيف إلى حركة اللسان حركة القلب و كان الذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه ، وأما الظالم المغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكّر فأسعف الشيطان و تدلّى بحبل غروره فتّمت بينهما المشاكلة و الموافقة كما قيل :

وافق شئ طبقة ✽ وافقه فاعتنقه^(١).

و أما المقتصد فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل و تقطّن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت و الفضول و استمرّ عليه و سأل الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير ، فكان السابق كالحائك الذي ذمّت حيا كنه فتركها فأصبح كاتباً و الظالم المتخلف كالذي ترك الحياكة وأصبح كناساً . والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال : لا أنكر منعمة الحياكة ولكن الحائك مذمومٌ بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس ، فان عجزت عن الكتابة فلا تترك الحياكة ، ولذلك قالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ، فلا تظنّ أنها تذرّ حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تظنّ غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكّت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى الاستغفارين لا إلى استغفار واحد ، فهكذا ينبغي أن يفهم ذمّ ما يذمّ و حمد ما يحمد ، و إلّا جهلت معنى ما قال القائل الصادق : « حسنات الأبرار سيئات المقرّبين » ، فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغي أن لا تستحقّ ذرّات الطاعات و المعاصي و لذلك قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام : « إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث رضاء في طاعته فلا تحقّروا منها شيئاً فلعلّ رضاء فيه ، و غضبه في معاصيه فلا تحقّروا منها شيئاً فلعلّ غضبه فيه ، و خبأ ولايته في عبادته فلا تحقّروا منهم أحداً فلعلّه وليّ الله » .

(١) مثل سائر ، راجع مجمع الأمثال للسيداني الباب السادس والعشرين .

❖ (الركن الرابع في دواء التوبة) ❖

❖ (و طريق العلاج لحل عقدة الإصرار) ❖

إعلم أن الناس قسمان شاب^١ لاصبوة له نشأ على الخير و اجتناب الشر وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « يعجب ربك من شاب^٢ ليست له صبوة »^(١) وهذا عزيز نادر ، والقسم الثاني هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب ، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين و غرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار و نذكر الدواء فيه ، فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب و رفعه و إبطاله ولا يبطل الشيء إلا بضده ولا سبب للأصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة ، والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى : « أولئك هم الغافلون » لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ،^(٢) فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلالة العلم و مرادة الصبر ، وكما يجمع في السكنجين بين حلالة السكر و حموضة الخل و يقصد بكل واحد منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فينتقم الأسباب المهيجة للصغراء ، فهكذا ينبغي أن يفهم علاج القلب عما به من مرض الإصرار ، فإذن لهذا الدواء أصلان أحدهما العلم و الآخر الصبر فلا بد من بيانهما ، فإن قلت : أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص ؟ فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب لكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة و لكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار ، فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم ، فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأموار أربعة : الأول أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبة مسبب

(١) أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر كفاي المشي .

(٢) النحل : ١٠٩ و ١١٠ .

الأسباب وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج و
يحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أن السعادة
في الآخرة سبباً هو الطاعة وللشقاوة سبباً وهو المعصية وهو الإيمان بأصل الشرائع
وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان ، الثاني
أنه لا بد وأن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما
يعبر عنه ، لا يلبس ولا يكذب ، فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون
هذا الإيمان وزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول ﷺ والإيمان بأن كل
ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف ، الثالث أنه لا بد وأن يصغي إلى الطبيب
فيما يحذره من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف
في ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء ، وزانه من الدين
الاصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من إرتكاب
الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقي إلى سمعه من ذلك من غير شك
واستجابة حتى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في
العلاج ، الرابع أن يصغي إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه بنفسه الاحتماء
عنه ليعرفه أولاً تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه فليس
على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء ، بل لكل علة خاصة
علم خاص وعلاج خاص وزانه من الدين أن كل عبد ليس يبغى بكل شهوة و
ارتكاب كل ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في
الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ثم إلى العلم بآفاتهما وقدر ضررها في الدين ثم
إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق
منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، فالعاصي إن علم
عصيانته فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لا يدي أن ما يرتكبه
ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد
أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم مما ينفعهم وما يشقيهم مما يسعدهم و

لا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فانهم ورثة الأنبياء والأنبياء ماتوا كوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء و يطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم ، فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف مرضه مالم يعرفه غيره ، وهذا فرض عين على العلماء كافة ، وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وكل محلة فقيهاً متديناً يعلم الناس دينهم ، فان الخلق لا يولدون إلا جهلاً فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع فالدنيا دار مرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم و مرض القلوب أكبر من مرض الأبدان ، والعلماء أطباء و السلاطين قوام دار المرضى ، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكشف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقينه بالسلاسل والأغلال ويكشف شره عن نفسه وعن سائر الناس ، وإذ ما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل : إحداها أن المريض به لا يدرى أنه مريض ، والثانية أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن ، فان عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد الموت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلبت السفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكلم على فضل الله في مرض القلب و يجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال ، والثالثة - و هو الداء العضال - فقد الطبيب فان الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه و صارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استكفاً من أن يقال لهم : فما بالكم تأمرون بالعلاج و تنسون أنفسكم ، فبهذا السبب عم الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء و هلك الخلق لفقد الأطباء ، بل اشتغل الأطباء بغنون الإغواء ، فليتهم إذ لم يصلحوا لم

يفسدوا ، و ليتهم سكتوا فما نطقوا ، فإنهم إذا تكلموا لم يهتمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالارضاء و تغليب أسباب الرضاء ، و ذكر دلائل الرحة لأن ذلك ألد في الأسماع و أخف على الطباع فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ و قد استفادوا مزيد جرأة على المعاصي و مزيد ثقة بفضل الله ، و مهما كان الطبيب جاهلاً أو خائناً أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرضاء والخوف دواءآن و لكن لشخصين متضادتي العلة ، أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكليّة و كلف نفسه مالا يطيق و ضيق العيش على نفسه بالكليّة فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرضاء ليعود إلى الاعتدال ، و كذا المصّر على الذنوب المشتبهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط و اليأس استعظماً لذنبه التي سبقت يعالج أيضاً بأسباب الرضاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب . فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرضاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء ، و ذلك من دأب الجهال و الأغبياء ، فإن فساد الأطباء هو الدواء المعضل الذي لا يقبل الدواء أصلاً .

فان قلت : فاذا ذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في وعظه مع الخلق ؟ فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار ، و حمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع :

النوع الأول - أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوِّفة للمذنبين والعاصين ، و كذلك ماورد من الأخبار والآثار مثل قوله ﷺ (١) : « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة عاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، و يقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : و يا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا . » - و في بعض الروايات

(١) قال المراقى : لم أجده هكذا ، و روى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف « أن الله ملكاً ينادى في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنى حصاده » - و فيه - « ليت الخلاق لم يخلقوا وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا فتعجبوا لولا بينهم فتداكروا - الحديث - » .

« تجالسوا فتذاكروا ما علموا - فيقول الآخر : ويا ليتهم إذلم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا » . وقال بعض السلف : إذ أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال - وهو أمير عليه - أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها .

وقال بعض السلف : ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفاً عن عبدي وامهلاه فإنكما لم تخلقاها ولو خلقتما لرحمتما ، لعله يتوب إليّ فأغفر له ، لعله يستبدل صالحاً فأبدله حسنات ، فذلك معنى قوله تعالى : « وإن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » (١) .

والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى ، فينبغي أن يستكثر الواظ منها إن كان هو وارث رسول الله ﷺ فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة ورثه كل عالم بقدر ما أصابه .

و النوع الثاني حكايات الأنبياء والسلف وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم عليه السلام في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة حتى روي أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده و بدت عورته فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبرئيل فأخذ التاج من رأسه وحلّ الإكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش اهبطا من جواربي فإنه لا يجاورني من عصاني ، قال : فالتفت آدم إلى حواء ، باكياً وقال : هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب .

وروي في الاسرائيليات أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى وأرسل عبده يحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال : فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبياً في بني إسرائيل ، وفي قصص موسى ﷺ أنه قال : للخضر عليه السلام هم أطلعك الله على الغيب ؟ فقال : بتركي المعاصي لأجل الله تعالى ، وروي أن الله تعالى

أوحى إلى يعقوب عليه السلام : أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا ، قال : لقولك لا خوته أخاف أن يأكله الذئب لم خفت عليه الذئب ولم ترجني ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك : « اذكرني عند ربك » قال تعالى : « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » ^(١) .
وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسماء ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ليعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار ، نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة ، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة .

النوع الثالث : أن يقرّ عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر حتى قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته عن القلوب ويستولي عليه أعداؤه قال عليه السلام : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه » ^(٢) وقال ابن مسعود : « إنني لأحسب أن العبد لينسى العلم بذنوبه يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام : « من قارف ذنباً فارق عقله لا يعود إليه أبداً » ^(٣) .

وقال بعض السلف : ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصاناً في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو أشد منه ، وهو كما قاله لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد ، والحرمان عن رزق

(١) يوسف : ٤٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٠٢٢ باسناد حسن وفي الكافي ج ٢ ص ٢٧١ مثله .

(٣) قد تقدم .

التوفيق أعظم حرمان ، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر و يتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع في مجالسة العلماء المنكرين للذنوب وعن مجالسة الصالحين بل يملكه الصالحون ، وفي الخبر «ما أنكرتم من زمانكم فيما غيرتم من أعمالكم»^(١) وفيه يقول الله تعالى «إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرّمه لذنيذ مناجاتي». أقول : وهذا مروي من طريق الخاصة أيضاً ، وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : «قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى : «وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم و يغفو عن كثير» : ليس من التواء عرق ولا نكبة حجر ولا عشرة قدم ولا خدشة عود إلا بذنب ولما يغفو الله أكثر»^(٢).

و عنه عليه السلام قال : «قال أمير المؤمنين : ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة ، وكم من شهوة ساعة أدرثت حزناً طويلاً و الموت فضح الدنيا و لم يترك لذي لب فرحاً»^(٣).

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا ، والسرقة و القتل و الغيبة و الكبر و الحسد وذلك مما لا يمكن حصره و ذكره مع غير أهله وضع للدواء في غير موضعه ، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق يستدل أولاً بالنبض و السحنة^(٤) و وجوه الحركات على العلل الباطنة و يشتغل بعلاجها فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات و ليتعرض لما وقف عليه

(١) أخرجه البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال : غريب تفرد به هكذا العقيلي و هو عبد الله بن هاني ، قال العراقي : هو متهم بالكذب وقال ابن أبي حاتم : روى عن أبيه بواطيل . أقول : معناه صحيح والدليل على ذلك كتاب الله عز وجل : « ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم و يغفو عن كثير » وقوله تعالى : «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٤٥ تحت رقم ٦ ، و الآية في سورة الشورى : ٣٠ . الالتواء : الانفتال و الانعطاف . في القاموس لواء يلويه لياً ولويماً بالغم : قتله و ثناه ، فالتوى و تلوى . و برأسه : أمال . و قال : نكب الحجارة رجله لثمتها أو أصابتها .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٤٥١ تحت رقم ١ . (٤) أي الهيئة واللون .

اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد : أوصني ولا تكثر عليّ فقال : لا تغضب .
 و قال له آخر : أوصني فقال : عليك باليأس بما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى ،
 وإيتاك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودّع وإيتاك وما يتعذر منه^(١) .
 فكانت عليه السلام توسم بالسائل الأول مخائل الغضب فنهاء عنه ، وفي السائل الآخر مخائل
 الطمع في الناس و طول الأمل ، والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون
 بحسب حال القائل ، فإن على كل ناصح أن تكون غايته مصروفة إلى تفرّس
 الصفات الخفية و توسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع
 مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ
 فيه تضنيع زمان .

فإن قلت : فإن كان الواعظ يتكلّم في جمع أو سأل من لا يدري باطن حاله
 أن يعظه فكيف يفعل ؟ فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في
 الحاجة إليه إمّا على العموم وإمّا على الأكثر فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية
 فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل ، ومثاله ما قال لقمان لابنه : «يا بني زاحم
 العلماء بر كبتك ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك
 لا آخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرّفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرّجال كلاً ،
 وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضرّ بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم
 ولا تجالس السفهية ولا تتخالط ذا الوجهين . و قال لابنه أيضاً : يا بني لا تضحك من
 غير عجب ولا تمش في غير أرب^(٢) ولا تسأل عما لا يعينك ولا تضيع مالك و تصلح
 مال غيرك فإن مالك ما قدّمت و مال غيرك ما تركت ، يا بني إن من يرحم يرحم
 و من يصمت يسلم ، و من يقل الخير يغنم ، و من يقل الشرّ يائس ، و من لا يملك
 لسانه يندم » . و قال رجل لأبي حازم : أوصني ، فقال : كل ما لوجاءك الموت عليه
 فرأيت غنيمة فالزمه و كل ما جاءك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه .

(١) أخرجه الحاكم و ابن ماجه وقد تقدم .

(٢) الارب - معركة - : الحاجة .

و قال موسى ﷺ للخضر : أوصني فقال : كن بساماً ولا تكن غضاباً وكن نفاعاً ولا تكن ضرراً ، وانزع عن اللجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير الخطأين بخطاياهم ، واهك على خطيئتك يا ابن عمران .
و قال : رجل لمحمد بن كرام : أوصني فقال : اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك .

فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها ولا أجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاض و غلبت المعاصي واستسرى الفساد و بلي الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعاً وينشدون أبياتاً و يتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم و يتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم و لم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متكلف^(١) و المستمع متكلف و كل واحد منهما مدبر متكلف ، فإذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى فطلب العلماء أول علاج العاصين ، فهذا أحد أركان العلاج وأصوله .

و الأصل الثاني : الصبر و وجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره و إنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مضرته و إما لشدة غلبة شهوته فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس ، وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لما كوله مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه فلا يدّ على كل حال من مرارة الصبر ، فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشباب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهي والنظر إليه و علاجه

(١) المتكلف : من تكلف الصلف و هو التمدح بما ليس فيه والتملق .

الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذائد الأطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة واقتدار أو عن سماع وتقليد فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع عن قلب مجرّد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكير فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعث الدواعي لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك ، فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله لليسرى وأما من يخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى ، ثم لا يغني عنه ما اشتغله به من ملاحذ الدنيا مهما هلك فتردّى وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإنما الله الآخرة والأولى .

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر والصبر لا يمكن إلا بالخوف والخوف لا يحصل إلا بالعلم بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله فهو الإيمان فكل من أصر على الذنب لم يصبر عليه إلا لأنه غير مؤمن ؟ فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان إذ كل مؤمن مصدّق بأن المعصية سبب البعد من الله وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور : أحدها أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر ، والثاني أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالخلق وقد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف والعادة طبيعة خامسة ، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى : « كلاً بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » ^(١) وقال : « بل تؤثرن الحياة الدنيا » ^(٢) وقد عبّر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ : « حفت الجنة

(١) القيامة : ٢٠ و ٢١ .

(٢) الاعلى : ١٧ .

بالمكارة وحفت النار بالشهوات» ^(١) وقوله **عَزَّ وَجَلَّ** : «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لجبرئيل : اِذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا ، فَحَفَّتْهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ : اِذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَانْظَرَ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا ، وَخَلَقَ الْجَنَّةَ فَقَالَ لجبرئيل : اِذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَانْظَرَ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا ، فَحَفَّتْهَا بِالمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ : اِذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَانْظَرَ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ» ^(٢) فَأَمَّا كَوْنُ الشَّهْوَةِ مَرَهَقَةً فِي الْحَالِ وَكَوْنُ الْعِقَابِ مُتَأَخِّرًا إِلَى الْمَالِ سَبِيحَانِ ظَاهِرَانِ فِي الْأَسْتِرْسَالِ مَعَ حَصُولِ أَصْلِ الْإِيمَانِ ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ فِي مَرَضِهِ مَاءَ الثَّلْجِ لَشِدَّةِ عَطَشِهِ مَكْذُوبًا بِأَصْلِ الطَّبِّ وَلَا مَكْذُوبًا بِأَنَّ ذَلِكَ مُضَرٌّ فِي حَقِّهِ ، وَلَكِنَّ الشَّهْوَةَ تَغْلِبُهُ وَأَلَمُ الصَّبْرِ عَنْهُ نَاجِزٌ فِيهِونَ عَلَيْهِ الْأَلَمُ الْمُنْتَظَرُ ، وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ مَا مِنْ مُذْنِبٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَهُوَ فِي الْغَالِبِ عَازِمٌ عَلَى التَّوْبَةِ وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ وَقَدْ وَعَدَ بِأَنَّ ذَلِكَ يُجْبِرُهُ إِلَّا أَنْ طَوَّلَ الْأَمَلُ غَالِبٌ عَلَى الطَّبَاعِ فَلَا يَزَالُ يَسُوِّفُ التَّوْبَةَ وَالتَّكْفِيرَ فَمِنْ حَيْثُ رَجَائِهِ التَّوْفِيقُ لِلتَّوْبَةِ رُبَّمَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ مَعَ الْإِيمَانِ ، وَالرُّبَاعُ أَنَّهُ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ مُوقِنٍ إِلَّا وَهُوَ مُعْتَقِدٌ أَنَّ الذَّنْبَ لَا يُوجِبُ الْعُقُوبَةَ إِلَّا جَبَابًا لَا يُمْكِنُ الْعَفْوُ عَنْهَا فَهُوَ يَذْنِبُ وَيَنْتَظِرُ الْعَفْوَ اتِّكَالًا عَلَى فَضْلِ اللَّهِ ، فَهَذِهِ أَسْبَابُ أَرْبَعَةِ مَوَاقِفَ لِلإِصْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ مَعَ بَقَاءِ أَصْلِ الْإِيمَانِ نَعَمْ قَدْ يَقْدَمُ الْمَذْنِبُ بِسَبَبٍ خَامِسٍ يَقْدَحُ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ وَهُوَ كَوْنُهُ شَاكًّا فِي صَدَقِ الرَّسْلِ وَهَذَا هُوَ الْكُفْرُ كَالَّذِي يُحْذِرُهُ الطَّبِيبُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا يَضُرُّهُ فِي الْمَرَضِ وَكَانَ الْمَحْذَرُ مِمَّا لَا يَعْتَقِدُ فِيهِ أَنَّهُ عَالِمٌ بِالطَّبِّ فَيَكْذِبُهُ أَوْ يَشْكُ فِيهِ فَلَا يُبَالِي بِهِ فَهَذَا هُوَ الْكُفْرُ ، فَإِنْ قُلْتُ : فَمَا عِلَاجُ الْأَسْبَابِ الْخَمْسَةِ ؟ فَأَقُولُ : هُوَ الْفِكْرُ وَذَلِكَ بِأَنْ يَقْرُرَ عَلَى نَفْسِهِ فِي السَّبَبِ الْأَوَّلِ وَهُوَ تَأَخُّرُ الْعِقَابِ أَنْ كُلُّ مَا هُوَ آتٍ وَآتٍ وَأَنْ غَدًا لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبٌ وَأَنْ الْمَوْتَ أَقْرَبُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنْ شِرَاكٍ

(١) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٣٢ وأحمد ومسلم من حديث أنس و أيضاً أحمد في

الزهد عن ابن مسعود و مسلم أيضاً عن أنس هريرة كلهم بسند صحيح كما في الجامع الصغير.

(٢) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٣٣ .

نعله فما يدريه فلعل الساعة قريب والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً و يذكر نفسه أنه
أبدأ في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال إذير كب البحار ويقاسي الأسفار
لأجل الرب الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض وأخبره
نصراني طبيب بأن شرب الماء البارد يضره و يسوقه إلى الموت وكان الماء البارد الذي
الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ما بعده ومفارقته للدنيا
لا بد منها فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلاً وأبدأ ، فلينظر كيف يبادر إلى
ترك ملاذّه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبعه فيقول : كيف يليق بعقلي أن يكون
قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا
معجزة على طبعه ولا يشهد له إلا عوام الخلق وكيف يكون عذاب النار أخف عندي
من عذاب المرض ، وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا و
بهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول : إذا كنت
لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبداً بآباد؟
وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار؟ وإذا كنت لا أصبر عن
زخارف الدنيا مع كدورتها وتنغصها و امتزاج صفوها بكدها فكيف أصبر عن نعيم
الآخرة؟

و أما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف
لأن المسووف يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى ، وإن بقي فلا
يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة
الشهوة ، و الشهوة ليست تغارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتقاد فليست الشهوة
التي أكلها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها وعن هذا هلك المسووفون لأنهم
يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات
فيها أبداً شاق ، و ما مثال المسووف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية
لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال : أوخرها سنة ثم أعود إليها و هو يعلم أن الشجرة
كلما بقيت ازداد رسوخها و هو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم

من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه و قوي الضعيف ، وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ما سبق كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل وقال : أنتظر من فضل الله أن يسلب غفلة وعقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار فإن الموت ممكنة ، وقد حكى في الأسفار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكن في غاية الحماقة ، وأما الخامس وهو الشك فهذا كفر ، وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له : ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو يقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فإن قال : أعلم استحالة ذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقل ، وإن قال : أنا شاك فيه ، فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول عند ترك طعامك في البيت لحظة أنه قد ولغت فيه حبة وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه ، وإن كان الذاء الأطعمة ، فنقول : أتركه لا محالة لأنني أقول : إن كذب فلا يعفوني إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب وإن صدق فتعفوني الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد فيقال : يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة العلماء والأولياء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء و لست أعني بهم جهال العوام بل ذوي الأبواب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضاً فيما يقول ، فليس في العقل إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثواباً وعقاباً وإن اختلفوا في كيفية ، فإن صدقوا فقد أشرقت على عذاب يبقى أبداً باد وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكذبة فلا يبقى له توقف إن كان عاقلاً مع

هذا التفكير إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد ، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة
وقد رنا طائراً يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لغنيت الذرة ولم ينقص
أبد الآباد شيئاً فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل
سعادة تبقى أبد الآباد ، و ذلك لا ينتهي له ، و لذلك قال أبو العلاء المعري :

قال المنجم والطبيب كلاهما ❖ لا يحشر الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فليست بخاسر ❖ أو صح قولتي فالحصار عليكما

و لذلك قال علي عليه السلام : لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان
شاكراً : إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً وإلا فقد تخلصنا وهلك . أي العاقل يسلك
طريق الأمن في جميع الأحوال .

فإن قلت : فهذه أمور جليلة ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب
هجرت الفكر فيها و استثقلته و ما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيما من
آمن بأصل الشرع و تفصيله ؟ فاعلم أن المانع من الفكر أمران :

أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة و أهوالها و شدائدها
وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم ، وهذا فكر لدأغ مؤلم للقلب فينفر
القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة ، والثاني أن
الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات و ما من إنسان إلا وله في كل
حال من أهواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقتة فصارعته مسخراً
لها فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة
والفكر يمنعه من ذلك ، وأما علاج هذين المانعين فهو أن يقول لقلبه : ما أشد غباوتك
في الاحتراز من الفكر في الموت و ما بعده تألماً بذكره مع استحراق ألم مواعته
فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع و أنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت و ما
بعده ومتألماً به ؟ وأما الثاني وهو كون الفكر مغوياً للذات الدنيا فهو أن يتحقق أن
فوات لذات الآخرة أشد وأعظم ، فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها ، ولذات الدنيا

سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذّة صافية عن كد وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلمذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأُنس به ، ولو لم يكن للمنطبع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلالة الطاعة وروح الأُنس بمناجاة الله لكان ذلك كافياً ، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللذّة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها تصبر عليها مدّة مديدة وقد صار الخير ديدناً كما كان الشر ديدناً ، فالنفس قابلة ماعودتها تنعّود ، والخير عادة و الشرّ لاجاجة ، فإذن هذه الأفكار المهيّجة للخوف المهيّج لقوّة الصبر عن اللذات ومهيّج هذه الأفكار وعظ الوعّاظ ومنبّهات تقع للقلب بأسباب تشفق لا تدخل تحت الحصر فيصير الفكر موافقاً للطبع فيميل القلب إليه ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع وبين الفكر - الذي هو سبب الخير - بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة . وقد روي في حديث طويل أنّه قام عمار بن ياسر فقال لعليّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني ؟ فقال : على أربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة والشكّ فمن جفا احتقر الحقّ وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عمى نسي الذّكر ، ومن غفل حاد عن الرّشد ومن شكّ غرّته الأمانيّة فأخذته الحسرة والندامة ، وبداله من الله ما لم يكن يحسنه (١) .

فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكّر ، وهذا التقدر في التوبة كاف . وإذ كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة فلا بدّ من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى والحمد لله ربّ العالمين وصلاته وسلامه على سيّدنا محمد النبي وآله الطيّبين الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تمّ كتاب التوبة من ربح المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوّه كتاب الصبر والشكر والحمد لله .

(١) أصل هذا الخبر مروي في الكافي باختلاف كما يأتي عن قريب .

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربيع المنجيات من المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المنقرد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات
المجدد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء ، والشكر
على البلاء والنعماء ، والصلاة على محمد سيد الأنبياء ، وعلى أصحابه سادة الأصفياء ،
وعلى آله قادة البررة الأتقياء ، صلاة محروسة بالدوام عن الغناء ، ومصونة بالتعاقب
عن التصرُّم والإيقضاء .

أما بعد فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر^(١) كما وردت به الأخبار
وشهدت له الآثار وهما أيضاً وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنی
إذ سمي نفسه صبوراً شكوراً ، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري
الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ، ولا سبيل إلى القرب من الله
تعالى إلا بالإيمان ، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان
ومن به الإيمان والتقاعذ عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان
وعن إدراك ما به الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان ، ونحن
نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله .

❦ (الشرط الأول في الصبر) ❦

وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حدته وحقيقته ، وبيان كونه نصف الإيمان ،
وبيان اختلاف أساميهِ باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة و
الضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه ،
فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

بيان فضيلة الصبر : قد وصف الله سبحانه الصابرين بأوصاف و ذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الخيرات والدراجات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال : عز من قائل : « وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا » ^(١) وقال : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا » ^(٢) وقال : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون » ^(٣) وقال : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » ^(٤) وقال : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ^(٥) .

فما من قرابة إلا وأجرها بتقدير و حساب إلا الصبر ولا أجل كون الصوم من الصبر فإنه نصف الصبر قال تعالى : « الصوم لي وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات و وعد الصابرين بأنه معهم فقال : « واصبروا إن الله مع الصابرين » ^(٦) وعلق النصرة على الصبر فقال : « بلى إن تصبروا وتتقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوئين » ^(٧) و جمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ^(٨) فالهدى و الصلوات والرحمة مجموعة للصابرين واستقصاء جميع آليات في مقام الصبر يطول .

و أما الاخبار فقد قال عليه السلام : « الصبر نصف الإيمان » ^(٩) على ما سيأتي وجه كونه نصفاً .

و قال عليه السلام : « من أقل ما أوتيتم اليقين و عزيمة الصبر و من أعطي حظّه منهما لم يبال بما فاتّه من قيام الليل و صيام النهار و لئن تصبروا على مثل ما أنتم

(١) السجدة : ٢٤ . (٢) الاعراف : ١٣٤ .

(٣) النحل : ٩٦ . (٤) القصص : ٥٤ .

(٥) الزمر : ١٤ . (٦) الانفال : ٤٦ .

(٧) آل عمران : ١٢٥ . (٨) البقرة : ١٥٣ .

(٩) أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود بسند ضعيف كما في الجامع الصغير . و رواه الطبراني في الكبير و رواه الصريح و هو موقوف و قد دفعه بعضهم كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٧٧ .

عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنني أخاف أن يفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ، ثم قرأ قوله تعالى : « ما عندكم يتعد وما عندنا باق ولنجزين الذين صبروا - الآية - » (١) .

وروى جابر أنه سئل عنه عن الإيمان فقال : « الصبر والسماحة » (٢) .
وقال أيضاً : « الصبر كنز من كنوز الجنة » (٣) ، و سئل مرة ما الإيمان فقال : « الصبر » (٤) وهذا يشبه قوله عنه : « الحج عرفة » (٥) معناه معظم الحج عرفة . وقال أيضاً : « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » (٦) .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام تخلق بأخلاقه وإن من أخلاقي أني أنا الصبور . وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال : « أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله ، فقال : وما علامة إيمانكم ؟ فقالوا : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مؤمنون و رب الكعبة » (٧) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « في الصبر على ما تكره خير كثير » (٨) .

(١) قال العراقي : تقدم في العلم مختصراً و لم أجده هكذا .

(٢) أخرجه الطبراني في معارج الآفاق وابن حبان في الضعفاء بسند ضعيف ورواه الطبراني في الكبير أيضاً من رواية عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده كافي المغني .

(٣) ما عثرت على لفظ له في كتبهم و يأتي من طريق الخاصة نحوه .

(٤) ما عثرت عليه بهذا اللفظ وأخرج أبو منصور الدبلي في مسند الفردوس بسند ضعيف « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » ويأتي عن علي عليه السلام « لا إيمان لمن لا صبر له »

(٥) تقدم في الحج .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من قول عمر بن عبدالعزيز وقال العراقي : لا أصل له مرفوعاً .

(٧) أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث

عن عطاء (المغني) . (٨) أخرجه الترمذي و قد تقدم .

وقال المسيح عليه السلام: «إنكم لا تندكون ماتحبون إلا بصبر كم على ماتكروهون». وقال رسول الله ﷺ: «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً، والله يحب الصابرين» (١).

وقال علي عليه السلام: «بني الإيمان على أربع دعائم اليقين والصبر والجهاد والعدل» (٢).

وقال أيضاً: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له» (٣).

أقول: وهذا المعنى الأخير مروى من طريق الخاصة عن النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وعلي بن الحسين وأبي عبد الله عليه السلام بغير واحد من الإسناد رواء في الكافي. وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبر مطل عليه ويتنحى الصبر ناحية فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فأننا دونه» (٤).

وعنه عليه السلام: «من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد» (٥). وعنه عليه السلام قال: «إن الله تعالى أنعم على قوم فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً، وابتلي قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة» (٦).

وعنه أوعن أبي جعفر عليه السلام قال: «من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز» (٧). وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنم محفوفة باللذات والشهوات فمن أعطى نفسه

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٢) يأتي من الكافي مثله.

(٣) أورده الشريف الرضي في النهج باب الحكم تحت رقم ٨٢.

(٤) المصدر ج ٢ ص ٩٠ تحت رقم ٨.

(٥) و (٦) المصدر ج ٢ ص ٩٢ تحت رقم ١٨.

(٧) المصدر ج ٢ ص ٩٣ تحت رقم ٢٤.

لذتها وشهوتها دخل النار» (١).

وعن النبي ﷺ قال : «سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالغضب والبخل ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى ، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الدل وهو يقدر على العز آتاه الله ثواب خمسين صدقاً بمن صدق بي» (٢). والأخبار في فضيلة الصبر أكثر من أن تحصى . قال أبو حامد : هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل ، فأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه ، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا يحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقة ومعناه .

✽ (بيان حقيقة الصبر ومعناه) ✽

إعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين إنما ينتظم من ثلاثة أمور : معارف وأحوال وأعمال . فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال والأحوال تنمى الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار ، وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله ، واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة أمّا في البهائم فلنقصانها وأمّا في الملائكة فلكمالها ، وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا ياعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً ، وأمّا الملائكة

(١) الكافي ج ٢ ص ٨٩ تحت رقم ٧ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٩١ تحت رقم ١٢ .

فإنهم جردوا للشوق إلى الحضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادرة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف ، وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبي ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة إذ الصبر عبادة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضاهما ومطالبهما وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين أحدهما يهديه والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب ، وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف ، فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط ، فلذلك لا تطلب إلا اللذيق فأمّا الداء النافع مع كونه مضرًا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه ، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن أتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر ، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمريض النازل به مثلاً ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عدوانها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جنود الشهوة فتارة يضعف هذا الجند بقتال جنود الشهوة ، وتارة يقوى وذلك بحسب إمداد الله عبده بالتأييد كما أن نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم - في قمع الشهوات وقهرها - باعثاً دينياً ، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وبعث الهوى والحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين

لحزب الله ، و مدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدّين في مقابلة باعث الشهوة فإن ثبت حتّى قهره و استمرّ على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله و التحق بالصابرين ، و إن تخاذل و ضعف حتّى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين فأذن ترك الأفعال المشتبهة عمل يثمره حال يسمّى الصبر وهو ثبات باعث الدّين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة ، وثبات باعث الدّين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادّها لأسباب السعادات في الدّنيا و الآخرة فإذا قوي يقينه أعني المعرفة التي تسمّى إيماناً و هو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى قوي ثبات باعث الدّين ، و إذا قوي ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة ، فلا يتم ترك الشهوة إلّا بقوة باعث الدّين المضادّ لباعث الشهوة ، وقوّة المعرفة و الإيمان تقبح مغبة الشهوات و سوء عاقبتها ، وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى و تسخيرهما إليهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكلّ شخص من الأدميين و إذ عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوّي لم يخف عليك أن جانب اليمين الذي هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست ينبغي أن يكون مسلماً له فهو إذن صاحب اليمين و الآخر صاحب الشمال ، و للعبد طوران في الغفلة و في الفكر وفي الاسترسال و المجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه فيكتب إعراضه سيئة و بالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة و كذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستعداد منه فهو مسيء إليه فيثبت عليه سيئة و بالمجاهدة مستمدّ من جنوده فيثبت له به حسنة ، و إنّما تثبت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما فلذلك سمّيا كراماً كاتبين أمّا الكرام فلا تتفاد العبد بكرمهما و لأنّ الملائكة كلهم كرام برة ، و أمّا الكاتبون فلا ثباتهما الحسنات والسيئات و إنّما يكتبان في صحائف مطوية في سرّ القلب و مطوية عن سرّ القلب حتّى لا يطلع عليه في هذا العالم ، فإنّهما و كتبتهما و خطّهما و صحائفهما و جملة ما يتعلّق بهما من عالم الغيب و الملكوت لامن عالم الشهادة و كلّ شيء من عالم الملكوت

لا تدركه الأبصار في هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين ، مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى ، وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال ﷺ : « من مات فقد قامت قيامته » ^(١) و في هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال : « لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » ، وفيها يقال : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق لا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملاء من الخلق ، وفيها يساق المنتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار ، زمرأ لا آحاداً ، والهول الأول هو هول القيامة الصغرى ، ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلاً فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال : قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الإنسان وداره فقد حصلت الزلزلة في حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحسنته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان ، واعلم أنك أرضي مخلوق من التراب وحظك الخاص من التراب بدنك فقط فأما بدن غيرك فليس بحظك ، والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه وإلا فالهواء أبداً متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فحظك من زلزلة الأرض كلها بزلزلة بدنك فقط ، فهي أرضك وترباك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ، ومفيض العروق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصل العظام من اللحوم فقد حلت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفاً فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويراً ، فإذا بطل سميعك وبصرك وسائر

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف كما في المعنى.

حواستك فقد انكدرت النجوم انكداراً ، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقاً ، فإذا اتعجر من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيراً ، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلاً ، فإذا فارق الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ، ولست أطول بموازنة جميع الأحوال والأحوال ولكنني أقول : بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء ، مما يخصك بل مما يخص غيرك ، فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ما ذا ينفعك ، وقد انتشرت حواستك التي بها تنتفع بالكواكب والأعمى يستوي عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنه قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهي حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصّة غيره ، ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه ، إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سماء له ، فمن أين ينتفع بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل والهول بعد مدّخر ، وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وطلت السماوات والأرض ونسفت الجبال وتمت الأحوال .

واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا في وصفها فإننا لم نذكر عشر عشر أوصافها فهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فإنّ للإنسان ولادتين إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام وهو في الرحم في قرار مكين إلى قد معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نقطة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضاً إلى الرحم بل أوسع وأعظم ، فقس الآخرة بالأولى « فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى ، بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الإشارة بقوله تعالى :

« و ننشئكم فيما لا تعلمون » ^(١) فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة و موثق بالملك والملكوت ، والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، و ذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدجال فما أعظم عفلتك يا مسكين - وكلنا ذلك المسكين - و بين يديك هذه الأهوال ، فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك القيامة الصغرى ، أو ما سمعت قول سيد الأنبياء : « كفى بالموت واعظاً » ^(٢) أو ما تستحيي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ، فيأتيهم المرض نذيراً من الموت فلا ينزجرون ، ويأتيهم الشيب رسولاً منه فما يعتبرون « فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن » أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون ، « أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون » أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا « إن كل لما جميع لدينا محضرون » ولكن « ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » وذلك لأننا جعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم ، أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .

و لنرجع إلى الغرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصّة الأدميين لما وكل بهم من الكرام الكائين فلا يكتبان شيئاً على الصبيان والمجانين إذ ذكرنا أن الحسنّة في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الإعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا ينصرون منهما إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض ، ولعمري إنّه تظهر مبادي إشراف نور الهداية عند سن التمييز

(١) الواقعة : ٦١ .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث عمار بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

وتنمو على التدرّج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزاً ولا يعاقب في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة ، بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام البررة الأخيار أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ، ثم ينشره عليه بالتعريف ، ثم يعدّه به عليه بالضرب ، فكل ولي هذا سمت في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقرئين والصدّيقين ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم كهاتين » (١) .

❖ (بيان كون الصبر نصف الإيمان) ❖

إعلم أن الإيمان تارة يخص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يخص بالأعمال الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعاً وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيتاً وسبعين باباً (٢) واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربيع العبادات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً فيكون للإيمان ركنان أحدهما اليقين والآخر الصبر ، والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٠٧ وصححه . وفيه « وأشار بأصبعيه على السبابة

والوسطى » .

(٢) أخرج ابن ماجه تحت رقم ٥٧ « الإيمان بضع وستون أو سبعون شعبة » .

بينهما فقال : « من أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر.... الحديث إلى آخره »^(١). الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، و عند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره . وفيهما وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار ، كما كان اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه : الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضاً إلى رسول الله ﷺ^(٢) ولما كان الصبر صبراً عن بواعث الهوى بثبات بواعث الدين و كان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة و باعث من جهة الغضب و الشهوة لطلب اللذيق و الغضب الهرب من المؤلم و كان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن و الفرج دون مقتضى الغضب قال ﷺ بهذا الاعتبار « الصوم نصف الصبر »^(٣) لأن كمال الصبر بالصبر عن داعي الشهوة وداعي الغضب جميعاً فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان ، فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع لحدود الأعمال و الأحوال و نسبتها إلى الإيمان والأصل فيه أن يعرف كثرة أبواب الإيمان ، و أن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

﴿ بيان الاسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة الى ما عنه الصبر ﴾

إعلم أن الصبر ضربان أحدهما ضرب بدني كتحمّل المشاقّ بالبدن والثبات عليه و هو إمّا بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقّة إمّا من العبادات أو من غيرها و إمّا بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم و الجراحات الحائلة ، وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع ولكنّ المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر

(١) تقدم أول الكتاب و من طريق الخاصة في الكافي ج ٢ ص ٥٢ تحت رقم ٦ .

في حديث الرضا عليه السلام « لم يقسم بين العباد شيء أقل من اليقين » .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب وابن ماجه على ما في الجامع الصغير هكذا « الصيام

نصف في الصبر و نصف في الشكر » .

النفس عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى ، ثم هذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن و الفرج سمي عفّة ، و إن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميّه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، و تضادّه حالة تسمّى الجزع والهلع و هو اطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود و شقّ الجيوب وغيرها ، و إن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، و تضادّه حالة تسمّى البطر ، و إن كان في حرب و مقاتلة سمي شجاعة ، و يضادّه الجبن ، و إن كان في كظم الغيظ و الغضب سمي حلاًماً ، و يضادّه التذمّر ، و إن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ، و يضادّه الضجر و التبرّم و ضيق الصدر ، و إن كان في إخفاء كلام سمي كتماناً و سمي صاحبه كتوماً ، و إن كان عن فضول العيش سمي زهداً ، و يضادّه الحرص ، و إن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، و يضادّه الشره ، فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر فلذلك لما سئل عن الصبر مرة عن الإيمان قال : « هو الصبر » ^(١) لأنه أكثر أعماله وأعزّها كما قال « الحجّ عرفة » ^(٢) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمّى الكلّ صبراً فقال تعالى : « والصابرين في البأساء (أي المصيبة) والضراء (أي الفقر) و حين البأس (أي المحاربة) أولئك الذين صدقوا و أولئك هم المتّقون » ^(٣) فاذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها و من يأخذ المعاني من الأسامي يظنّ أنّ هذه أحوال مختلفة في ذواتها و حقايقها من حيث رأى الأسامي مختلفة ، والذي يسلك الطريق المستقيم و ينظر بنور الله يلحظ المعاني أولاً فيطلع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامي فإنّها وضعت دالة على المعاني ، فالمعاني هي الأصول و الألفاظ هي التوابع و من يطلب الأصول من التوابع لا بدّ و أن يزلّ و إلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى : « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم » ^(٤) فإنّ الكفّار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلّا بمثل هذه الانعكاسات .

(١) و (٢) تقمآنفا . (٣) البقرة : ١٧٧ . (٤) الملك : ٢٢ .

﴿بيان اقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف﴾

إعلم أن باعث الدين بالاضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال : من صبر ظفر ، والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقرَّبون «الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى بواعث الدين وإيَّاهم ينادي المنادي «يا أيُّتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية» .

الحالة الثانية أن تغلب داعي الهوى وتسقط بالكليَّة منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشيطان ولا يجاهد ليأسه عن المجاهدة ، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوقهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله وأمر من أمور الله ، وإليهم الإشارة بقوله تعالى : «و لو شئنا لآتينا كل نفس هديها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين»^(١) وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخرست صفقتهم ، وقيل لمن قصد إرشادهم : «فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلَّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم» وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط ، أو الغرور بالأُماني ، وهو غاية الحمق كما قال عليه السلام : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^(٢) وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنَّها قد تعذرت عليّ فلست أطمع فيها ، أو لم يكن مشتاقاً إلى التوبة ولكن قال : إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ كريمٌ فلا حاجة به إلى توبتي ، وهذا المسكين قد صار عقله رفيقاً لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلَّا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهواته ، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار ، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ،

(١) السجدة : ١٣ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٢٥١ وقد تقدم في ذم الغرور .

ومحله عند الله محل من يقهر مسلماً ويسلمه إلى الكفار و يجعله أسيراً عندهم ، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن يستسخر ، وسلط من حقه أن يتسلط عليه ، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطاً لما فيه من معرفة الدين وباعث الدين ، وإنما استحق الكافر أن يكون متسلطاً عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه ، فمهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله كان كمن أرق مسلماً لكافر ، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى بعض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته لأن الهوى أبغض إله عبد في الأرض عند الله والعقل أعز موجود خلق في الأرض .

الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجلاً بين الجندين ، فتارة له اليد عليها ، وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يعد مثله لامن الظافرين . وأهل هذه الحالة هم الذين « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم » هذا باعتبار القوة والضعف ، ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات ، أو لا يغلب شيئاً منها ، أو يغلب بعضها دون بعض ، وتنزيل قوله تعالى : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » ^(١) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى ، والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل ، إذ البهيمة لم يخلق لها المعرفة والقدرة التي بهما يجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق له وعطله فهو الناقص حقاً المدير يقيناً ولذلك قيل :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كتنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد و تعب شديد ، ويسمى ذلك تصبراً ، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ، ويخص ذلك باسم الصبر ،

و إذا دام التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ، و لذلك قال تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ فَسَنِيسِرُهُ لِلْيسْرِ ۖ » (١) و مثال هذه القسمة قدوة المصارع على غيره ، فإنَّ الرجل القويَّ يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حيلة و أيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء و لا لغوب ، و لا تضطرب فيه نفسه ولا ينهز (٢) ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب و مزيد جهد و عرق جبين ، فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدِّين و باعث الهوى فإنَّه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة و جنود الشياطين ، و مهما أذغنت الشهوات و انقمعت و تسلط باعث الدِّين و استولى و تيسر الصبر بطول المواظبة أودرث ذلك مقام الرضا كما سيأتي في كتاب الرضا فالرُّضا أعلى من الصبر ، و لذلك قال ﷺ : « عابد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » (٣).

و قال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاث مقامات أوَّله ترك الشكوى و هذه درجة التائبين و الثانية الرضا بالمقدور و هذه درجة الزاهدين و الثالثة المحبة لما يصنع به مولاة و هذه درجة الصديقين ، و سنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر ، و كأن هذا الانقسام يجري في صبر خاص و هو الصبر على المصائب و البلايا .

و اعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض و نفل و مكروه و محرّم فالصبر عن المحظورات فرض ، و على المكروه نفل ، و الصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده و هو يصبر عليه ساكتاً و كمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة و يسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرّم ، و الصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر ، فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

(١) الليل : ٥ و ٦ . (٢) البهر - بالضم - : تتابع النفس .

(٣) أخرجه الترمذى و أحمد في المسند نحوه من حديث ابن عباس .

﴿بيان مظان الحاجة إلى الصبر﴾

﴿وإن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال﴾

لعل أن جميع ما يلقي العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين أحدهما هو الذي يوافق هواه والآخر هو الذي لا يوافق بل يكرهه و هو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كلاهما فهو إذن لا يستغني قط عن الصبر .

النوع الأول ما يوافق الهوى والصحة والسلامة والمال و الجاه وكثرة العشرة و اتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا ؛ وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور ، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة لها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ، حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن و العوافي لا يصبر عليها إلا صديق ، ولما فتحت أموال الدنيا على الصحابة قالوا : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا و ابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر . ولذلك جذر الله تعالى عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » ^(١) وقال عز وجل : « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » ^(٢) . وقال ﷺ : « الولد مبخلة مجبنة محزنة » ^(٣) ولما نظر ﷺ إلى ابنه الحسين يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ، ثم قال : « صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة إنني لما رأيت ابني يتعثر لم أملك نفسي أن أخذته » ^(٤) ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار

(١) المناقون : ٩ . (٢) التباين : ١٤ .

(٣) أخرجه أبو يعلى عن أبي سعيد الخدري بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

و أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٦٦٦ > الولد مبخلة مجبنة .

(٤) أخرجه النسائي ج ٣ ص ١٠٨ من السنن من حديث بريدة و رواه أبو داود و

ابن ماجه والترمذي و قال : حسن غريب .

فالرجل كلُّ الرجل من يصبر على العافية ، و معنى الصبر عليها أن لايركن إليها و يعلم أن كلُّ ذلك مستودعٌ عنده و عسى أن يسترجع على القرب و أن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولاينهمك في التمتع و اللذة و اللهو و اللعب و أن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق و في بدنه ببذل المعونة للخلق و في لسانه ببذل الصدق و كذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متبصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتي و إنما كان الصبر على السراء أشدَّ لأنَّه مقرون بالقدرة و من العصمة أن لا تقدر ، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولَّاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك و حجامتك نفسك و الجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة و قدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء .

النوع الثاني ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إمَّا أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي أولا يرتبط باختياره كالمصائب و النوائب ، أو لا يرتبط أوَّلُه باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشغيتي من المؤذي بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام :

القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان الضرب الأول الطاعة و العبد يحتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأنَّ النفس بطبعها تنفر عن العبودية و تشتهي الربوبية ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا و هي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله : و أنا ربكم الأعلى ، ولكن فرعون وجد له مجالاً و قبولاً فأظهره إذ استخفَّ قومه فأطاعوه ، و ما من أحد إلا و هو يدَّعي ذلك مع عبده و خادمه و أتباعه و كلُّ من هوتحت قهره و طاعته و إن كان ممتنعاً من إظهاره فإنَّ امتناعه و غيظه عند تقصيرهم في خدمته و استعباده ذلك ليس يصدر إلا عن إضرار الكبر و منازعة الربوبية في رداء الكبرياء ، فإذن العبودية شاقّة على النفس مطلقاً ، ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة و منها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ، و منها ما يكره بسببهما جميعاً كالجهاد و الجهاد ، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد و يحتاج المطيع

إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال ، الأولى قبل الطاعة و ذلك في تصحيح النية و الإخلاص و الصبر عن شوائب الرّياء و دواعي الآفات و عقد العزم على الإخلاص و الوفاء ، و ذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية و الإخلاص و آفات الرّياء و مكائد النفس ، و قدنبّه عليه صلوات الله عليه و آله إذ قال : «إنّما الأعمال بالنيّات ، ولكلّ امرئ ما نوى» ^(١) وقال الله تعالى : « وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين » ^(٢) و لهذا المعنى قدّم الله الصبر على العمل فقال : « إلّا الذين صبروا و عملوا الصالحات » ^(٣).

الحالة الثانية حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله و لا يتكاسل عن تحقيق آدابه و سننه ، و يدوم على شروط الأدب إلى الآخر عمل الأخير فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، و هذا أيضاً من شدائد الصبر و لعلّه المراد بقوله تعالى : « نعم أجر العاملين » الذين صبروا ^(٤) أي صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه و التظاهر به للسمعة و الرّياء و الصبر عن النظر إليه بعين العجب و عن كلّ ما يبطل عمله و يحبط أثره كما قال تعالى : « و لا تبطلوا أعمالكم » ^(٥) و كما قال : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى » ^(٦) فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المنّ و الأذى فقد أبطل عمله ، والطاعات تنقسم إلى فرض و نفل و هو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً و قد جمعهما الله تعالى في قوله : « إنّ الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاء ذي القربى » ^(٧) فالعدل هو الفرض و الإحسان هو النفل ، و إيتاء ذي القربى المروّة و صلة الرّحم ، و كلّ ذلك يحتاج إلى الصبر . الضرب الثاني المعاصي فما أحوج العبد إلى الصبر عنها و قد جمع الله أنواع المعاصي في قوله : « و ينهى عن الفحشاء و المنكر » ^(٨) وقال عليه السلام :

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٢٧ و قد تقدم عن الصحيحين .

(٢) البينة : ٥ . (٣) هود : ١١ .

(٤) العنكبوت : ٥٩ و ٦٠ . (٥) محمد : ٣٦ .

(٦) البقرة : ٢٦٤ . (٧) و (٨) النحل : ٩٠ .

« المهاجر من هجر السوء و المجاهد من جاهد هواه » ^(١) و المعاصي مقتضى باعث الهوى وأشد أنواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة ، فإن العادة طبيعة خامسة فإذا انضافت إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى ، فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب و المراء و الثناء على النفس تعريضاً و تصريحاً ، و أنواع المزاح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء و الاستحقار وذكر الموتى بالقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم و مناصبهم ، فإن ذلك في ظاهره غيبة و في باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان إحداهما نهي الغير و الأخرى إثبات نفسه ، وبهما تتم له الرُبُوبِيَّة التي في طبعه وهي ضد ما أمر به من العبودية ، و لا اجتماع للشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتاداً في المحاورات يعسر الصبر عنها حتى يزول استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الناس بها ، فتري الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستبعد غاية الاستبعاد ، و يطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر من « أن الغيبة أشد من الزنى » ^(٢) ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيهِ غيره ، فالصبر على الأفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها ، وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوسواس فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة فلا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه هم واحد وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه .

(١) أخرج شطره الاول ابن ماجه و شطره الثاني النسائي في الكبرى وكلاهما من

حديث فضالة بن عبيد باسناد جيد و قد تقدماً .

(٢) تقدم في آفات اللسان .

القسم الثاني ما لا يرتبط هجومه باختياره و له اختيار في دفعه كما لو أُوذِيَ بفعل أو قول و جني عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة يكون واجباً و تارة يكون فضيلة ، قال بعض الصحابة : ما كنّا نعدُّ إيمان الرجلُ إيماناً إذا لم يصبر على الأذى وقال تعالى : « ولنصبرنَّ على ما آذيتُمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ^(١) وقسم رسول الله ﷺ مرةً مالا فقال : بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر به رسول الله ﷺ فأحمرَّت وجنتاه ثم قال : رحم الله أخى موسى قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر ، ^(٢) وقال تعالى : « ودع أذاهم وتوكل على الله » ^(٣) وقال : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً » ^(٤) وقال : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك » ^(٥) وقال : « ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإنَّ ذلك من عزم الأمور » ^(٦) أي تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال : « وإن عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولكن صبرتم لهُو خير للصابرين » ^(٧).

وقال رسول الله ﷺ : « صل من قطعك و أعط من حرمك واعف عمن ظلمك » ^(٨) ورأيت في الإنجيل قال عيسى عليه السلام : « لقد قيل لكم من قبل : إنَّ السنَّ بالسنِّ والأُنفُ بالأُنفِ ، وأنا أقول لكم : لا تقاوموا الشرَّ بالشرِّ بل من ضرب خدَّك اليمنى فحوِّلْ إليه الخدَّ اليسرى ، ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ، ومن سخَّرَكَ لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين . وكلُّ ذلك أمر بالصبر على الأذى فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنَّه يتعاون فيه باعث الدَّين و باعث الشهوة والغضب جميعاً .

القسم الثالث ما لا يدخل تحت الاختيار أو له و آخره كالمصائب مثل موت

(١) إبراهيم : ١٢ . (٢) تقدم غير مرة عن البخاري و مسلم .

(٣) الأحزاب : ٤٨ . (٤) الزمل : ١٠ .

(٥) الحجر : ٩٧ . (٦) آل عمران : ١٨٦ .

(٧) النحل : ١٢٦ . (٨) تقدم غير مرة .

الأعزة وهلاك الأموال و زوال الصحة بالمرض وعمى العين و فساد الأعضاء ، وبالجمله فسائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر ، قال ابن عباس - رضي الله عنه - : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله فله ثلاثمائة درجة ، و صبر عن محارم الله وله ستمائة درجة ، و صبر في المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة ، وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم ، فأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا الأنبياء ، لأنه بضاعة الصديقين ، فإن ذلك شديد على النفس ، ولذلك قال عليه السلام : « أسألك من اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا » (١) فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

قال أبو سليمان : و الله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره .
أقول : كلام أبي حامد ههنا ينافي ما ذكره في أوائل هذا الفصل من أن الصبر على العافية أشد و أفضل من الصبر على البلاء ، و ذلك هو الصحيح دون هذا و ما نقله ههنا عن ابن عباس يخالف ما روينا بطريق أهل البيت عليهم السلام فقد روي في الكافي بإسناده إلى أبي علي عليه السلام أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الصبر ثلاثة صبر عند المصيبة و صبر على الطاعة و صبر عن المعصية فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين الأرض إلى العرش ، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش » (٢) .

و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام : « الصبر صبران صبر على البلاء حسن جميل و أفضل الصبرين الورع عن محارم الله » (٣) وروي هذا عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً .
قال أبو حامد : و قال عليه السلام : « قال الله عز وجل : إذا وجهت إلى عبد من

(١) أخرجه الترمذي والنسائي والعاكم و صححه من حديث ابن عمر .

(٢) و (٣) المصدر ج ٢ ص ٩١ تحت رقم ١٥ و ١٤ .

عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً « (١) .

و قال ﷺ : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » (٢) .

و قال ﷺ : « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى : «إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتى وأعقبنى خيراً منها ، إلا فعل الله ذلك به » (٣) .

و عنه ﷺ «إن الله عز وجل قال : يا جبرئيل ماجزأ من سلبت كريمته ؟ قال : سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا قال : جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي » (٤) .

و قال ﷺ : يقول الله عز وجل : « إذا ابتليت عبيدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتي » (٥) .

و قال داود عليه السلام : « يا رب ماجزأ الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان فلا أنزعه عنه أبداً » .

وقال داود لسليمان عليه السلام : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات .
و قال نبينا ﷺ : « من إجلال الله تعالى ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » (٦) .

(١) أخرجه ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف (المعنى) .

(٢) أخرجه القضاوى فى مستند الشهاب من حديث ابن عمر كما فى الجامع الصغير

(٣) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٣٧ من حديث أم سلمة .

(٤) أخرجه البخارى باختلاف ج ٧ ص ١٥١ من حديث ابن ظلال القسلى عن أنس

و أخرجه الطبرانى فى الاوسط من رواية أنس أيضاً . كفاى المعنى

(٥) أخرجه مالك فى الموطأ ج ٢ ص ٢٢٩ من حديث عطاه بن يسار .

(٦) قال العراقي : لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبى الدنيا فى المرض والكفارات

من رواية سفيان عن بعض الفقهاء نحوه .

أقول: و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : من مرض ثلاثاً فلم يشك إلى عواده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه فإن عافيته عافيته و لا ذنب له و إن قبضته قبضته إلى رحمتي » ^(١) و في معناه أخبار أخر .

و في بعضها فسر التبديل بخير بأن يبدله لحماً و دماً و بشرة لم يذنب فيها ^(٢) . و فسر الشكاية بأن يقول : « ابتليت بما لم يبتل به أحدٌ و أصابني ما لم يصب أحداً ، قال : و ليس الشكوى أن يقول : سهرت البارحة و حممت اليوم و نحو هذا ^(٣) . و في رواية عن الصادق عليه السلام « من اشتكى ليلة فقبلها بقبولها وأدّى إلى الله شكرها كانت كعبادة ستين سنة ، سئل ما قبولها قال : يصبر عليها و لا يخبر بما كان فيها فإذا أصبح حمد الله على ما كان » ^(٤) .

وسئل الباقر عن الصبر الجميل فقال : « ذاك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس » ^(٥) . قال أبو حامد : فإن قلت : فيما ذا تنال درجة الصبر في المصائب و ليس الأمر إلى اختياره فهو مضطربٌ شاء أم أبى فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار ؟ فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع و شقّ الجيوب و ضرب الخدود و المبالغة في الشكوى و إظهار الكآبة و تغيير العادة في الملابس والمفرش و المطعم ، وهذه الأمور داخله تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها و يظهر الرضا بقضاء الله تعالى و يبقى مستمراً على عادته و يعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روي عن الرضا عليه السلام أم سليم أنها قالت توفي ابن لي و زوجي أبوطلحة غائب فقممت فسجّيته في ناحية البيت فقدم أبوطلحة فقممت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل فقال : كيف الصبي ؟ فقلت : بأحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى خيراً منه الليلة ثم تصنّعت له أحسن ما كنت أتصنع قبل

(١) المصدر ج ٣ ص ١١٥ تحت رقم ١ .

(٢) و (٣) و (٤) المصدر ج ٣ ص ١١٦ تحت رقم ٦ و ١ و ٥ على الترتيب

(٥) المصدر ج ٢ ص ٩٣ تحت رقم ٢٣ .

ذلك حتى أصاب مني حاجته ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا ؟ قال : وما لهم ؟ قلت : اعيروا عارية فلماً طلبت منهم جزعوا فقال : بئس ما صنعوا ، فقلت : هذا ابنك كانت عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه ، فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره فقال : « اللهم بارك لهما في ليلتهما » قال الراوي : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرؤوا القرآن ^(١) . وروى جابر أنه ﷺ قال : رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة .

وقد قيل : الصبر الجميل هو أن لا يُعرف صاحب المصيبة ، إذ يشبه غيره . ولا يخرج عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ولأن البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه فقيل له : « أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال : إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » ^(٢) بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقام الرضا فالمقدم على الفصد والحجامة راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عينه إذا عظم ألمه ، وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله .

وكتب ابن أبي نجيح يعزّي بعض الخلفاء فكتب أن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له ، واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك ، واعلم أن أجر الصابرين فيما

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ومسلم في الصحيح ج ٧ ص ١٤٥ والرميصاء بضم الراء صعاية .

(٢) رواه البزار والطبراني من حديث عبد الرحمن بن عوف قال : بعثت ابنة لرسول الله صلى الله عليه وآله أن ابنتي مغلوبة فقال للرسول : قل لها إن الله ما أخذ وله ما أعطى ثم بعثت إليه ثانية فقال لها مثل ذلك ، ثم بعثت إليه الثالثة فجاءها في ناس من أصحابه فأخرجت إليه الصبية ونفسها تغمغم (أي تضطرب) في صدرها ، فرق عليها فذرفت عيناه ففطن به بعض أصحابه وهم ينظرون إليه حين ذرفت عيناه ، فقال : « ما لكم تنظرون رحمة الله يضيئها حيث يشاء إنما يرحم الله من عباده الرحماء » . راجع مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٨ . وما عثرت على لفظ ما نقله المصنف .

يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فإذن مهمادفع الكراهة بالتفكير في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب ، وقد قيل : من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة ، فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال فإن الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده فلا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهراً وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطناً ، فإن اختلاج الخواطر لا يسكن ، فأكثر جولان خاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدّر فهو كيف ما كان تضييع زمان ، وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره ، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله أو عن فكر يستفيد معرفة بالله ليستفيد بالمعرفة محبة الله فهو مغبون ، هذا إن كان فكره وسواسه في المباحات مقصوراً عليه ولا يكون ذلك غالباً بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال ينازع كل من تحرّك على خلاف غرضه في جميع عمره أو من يتوهم به أنه ينازعه ويخالف غرضه بظهور أمارته منه بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله ولده ، ويتوهم مخالفتهم له ، ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم ، وجوابهم عما يتعلّلون به في مخالفته ولا يزال في شغل دائم ، فللشيطان جندان جنديطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حرّكة جنده الطيّار ، والشهوة عبارة عن حرّكة جنده السيّار ، وهذا لأن الشيطان خلق من النار ، وخلق الإنسان من صلصال كالفخار ، والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين ، والطين طبعه السكون ، والنار طبعها الحركة ، فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرّك ، بل لا تزال تتحرّك بطبعها وقد كلّف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حرّكته ، ساجداً لما خلق من الطين فأبي واستكبر واستعصى ، وعبر عن سبب استعصائه بأن قال : « خلقتني من نار وخلقته من طين » فإذن حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده ، ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه وانقياده بالاذعان

سجود منه فهو روح السجود وإنما وضع الجبهة على الأرض قلبه ، وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح و لو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدي المعظم المحترم يرى استخفافاً بالعادة ، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر و قالب الروح عن الروح و قشر اللب عن اللب ، فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب و تحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك همّاً واحداً ، فيشتغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالاً فيك فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الدّاخلين في الاستثناء من سلطنة هذا اللعين ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدّم و سيالانه مثل الهواء في القدح فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لامحالة ، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين يخلو عن جولان الشياطين و إلا فمن غفل عن الله و لو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، و لذلك قال تعالى : « و من يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » (١).

وقال عليه السلام : « إن الله يبغض الشاب الفارغ » (٢) و هذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً و لم يبق قلبه فارغاً بل يعيش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم يزدوج أفراده أيضاً ويبيض مرة أخرى ويفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار ، و إذا وجد الحلفاء اليابسة كثر تولده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا ينقطع ألبته ، بل يسري شيئاً فشيئاً على الاتصال ، فالشهوة

(١) الزخرف : ٣٦ .

(٢) قال المراقى : لم أجده . أقول : رواه الكليني في الكافي ج ٥ ص ٨٤ من

حديث موسى بن جعفر عليهما السلام هكذا « ان الله يبغض العبد النوام الفارغ » .

في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار ، وكما لا يبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذ لم تكن شهوة فاذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدو لك شهواتك وهي صفة نفسك التي إن لم تشغلها شغلتك ، فاذن حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة ، و حركة الباطن أولى بالصبر عنها وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت .

﴿ يان دواء الصبر وما يعتان به عليه ﴾

إعلم أن الذي أنزل الدواء أنزل الدواء و وعد الشفاء ، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل ، فالعلم والعمل هما الاخلات التي منها تتركب الأدوية لأمراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر ، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منها مختلفة ، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج ، إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك مما يطول ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة فنقول : إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً فقد غلبت عليه بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدته بمقتضيات الشهوة ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة ، فنقول : قد قد منا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ، فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فسييل تضعيفه ثلاثة أمور أحدها أن تنظر إلى مادة قوتها فهي الأغذية الطيبة المحرّكة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيّجة للشهوة ، والثاني قطع أسبابه المهيّجة له في الحال فإنه إنما يبيح بالنظر إلى مظان الشهوة إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على

الصور المشتهاة والفرار منها بالكلفة ، قال رسول الله ﷺ : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس » ^(١) وهذا سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا انتقلت عن صوب الصور لم يصبك سهمه ، الثالث تسليية النفس بالمباح من الجنس الذي يشتهيه وذلك بالنكاح فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات ما يغني عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر ، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يجمع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال ﷺ : « عليكم بالباه فمن لم يستطع فعله بالصوم فإن الصوم له وجاء » ^(٢) فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهاى قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فيسقط قوته ، والثاني يضاهاى تغيب اللحم عن الكلب وتغيب الشعر عن البهيمة حتى لا يتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها ، والثالث يضاهاى تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر على التأديب .

وأما تقوية باعث الدّين فإنما تكون بطريقتين : أحدهما في إطماعه هي فوائد المجاهدة وثمراتها في الدّين والدّنيا وذلك بأن يكثّر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدّنيا والآخرة ، وفي الأثر : أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات . وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدّة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ، ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لغوات الخسيس في الحال وهذا باب المعارف ، وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى ، فإن قوي قوي باعث الدّين و هيّة تهيجاً شديداً وإن ضعف ضعف ، وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٣١٤ وتقدم كراداً في كتاب النكاح وغيره .

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٢٨ والبخارى ج ٧ ص ٣ والنسائي ج ٦ ص ٥٧ كلهم

لعزيمة الصبر « وأقل ما أُوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر » . والثاني أن يعوّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلاً قليلاً حتى يدرك لذّة الظفر بها فيستجري عليها و تقوى منته في مصارعتها ، فإنّ الاعتياد و الممارسة للأعمال الشاقة يؤكّد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوة الحمّالين والفلاحين والمقاتلين و بالجملة الممارسين للأعمال الشاقة على قوة الخيّاطين و العطارين و الفقهاء و الصالحين ، وذلك لأنّ قواهم لم تتأكّد بالممارسة ، فالعلاج الأوّل يضاهي أطماع المصارع في الخلعة عند الغلبة و وعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إتيّاهم بموسى حيث قال : « وإنكم إذا لمن المقرّ بين » و الثاني يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة و المقاتلة مباشرة أسباب ذلك منذ الصبي حتى يأنس به ويستجري عليه و يقوى فيه منته ، فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدّين ولا يقوى على الشهوة و إن ضعفت ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد ، فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاءه وإنّما أشدّها كفّ الباطن عن حديث النفس ، و إنّما يشتدّ ذلك على من تفرّغ له بأنّ قمع الشهوات الظاهرة و أثر العزلة و جلس للمراقبة والدّكر والفكر ، فإنّ الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب وهذا لاعلاج له البتّة إلّا قطع العلائق كلّها ظاهراً و باطناً بالفرار عن الأهل و الولد و المال و الجاه و الرّفقاء والأصدقاء ، ثمّ الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قندير من القوت و بعد القناعة به ثمّ كلّ ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم همّاً واحداً وهو الله تعالى ثمّ إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن فيه مجال في الفكر و سير بالباطن في ملكوت السماوات و الأرض و عجائب صنع الله و سائر أبواب معرفة الله حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك محادثة الشيطان و وسواسه ، و إن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيهِ إلّا الأوراد المتواصلة المترتبة في كلّ لحظة من القراءة و الأذكار و الصلوات و يحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإنّ التفكّر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، ثمّ إذا فعل كلّ ذلك لم يسلم له من الأوقات إلّا بعضها إذ لا يخلو

في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد ، فتشغله عن الفكر والذكر من مرض و خوف وإيذاء من إنسان و طغيان من مخالط إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الأنواع الشاغلة ، وأما النوع الثاني فهو ضروري أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش فإن تهيئة ذلك أيضاً تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه ، ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملامة أو واقعة وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر الفكر وينكشف فيه من أسرار الله في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق ، والانتهاى إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتنساب والجهد ، فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقد يقل الجهد و يجل الصيد و قد يطول الجهد و يقل الحظبة والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فإنها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد نعم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فإن المجذوب إلى أسفل السافلين لا يجذب إلى أعلى عليين وكل منهوم بالدنيا فهو منجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷻ : « إن لربكم في أيام دهركم تفحات ألا فتعروضوا لها » (١) وذلك لأن تلك التفحات والجذبات لها أسباب السماوية إذ قال تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » (٢) وهذا أعلى أنواع الرزق ، والأموال السماوية غائبة عنا فلا ندري متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض و ينقيها من الحشيش ويبث البند فيها ، وكل ذلك لا يتنعه إلا بمطر ، ولا

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط والكبير من حديث محمد بن مسلمة و أنس كما

في مجمع الروايد ج ١٠ ص ٢٣١ . وقد تقدم .

(٢) الذاريات : ٢٢ .

ييدي متى يقدّر الله أسباب المطر إلا أنه يشق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلو سنة عن مطر ، فكذلك قلما تخلو سنة و شهر و يوم عن جذبة من الجذبات و نعمة من النعمات ، فينبغي أن يكون العبد قد طهر أرض القلب من حشيش الشهوات و بند فيه بند الإرادة والإخلاص ، و عرضه لمهابّ رياح الرّحمة و كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الرّبيع و عند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النعمات في الأوقات الشريفة و عند اجتماع الهمم و تساعد القلوب كما في يوم عرفة و يوم الجمعة و أيام رمضان فإنّ الهمم و الأنفاس أسباب بحكم تقرير الله تعالى لاستدرا رحمته حتى يستدرّ بها الأمطار في أوقات الاستسقاء و هي لاستدرا أمطار المكاشفات و لطائف المعارف من خزائن الملكوت أشدّ مناسبة منها لاستدرا قطرات الماء و استجرا الغيوم من أقطار الجبال و البحار ، بل الأحوال و المكاشفات حاضرة معك في قلبك و إنّما أنت مشغول عنها بعلائقك و شهواتك فصار ذلك حجاباً بينك و بينها فلا تحتاج إلا أن تنكسر الشهوة و ترفع الحجاب فيشرق أنوار المعارف من باطن القلب ، و إظهار ماء الأرض يحفر القنى أسهل و أقرب من استرسال الماء إليها من مكن بعيد منخفض عنها و لكونه حاضراً في القلب و منسياً بالشغل عنه سمى الله جميع معارف الإيمان تذكراً فقال : « ليتذكّر أولو الألباب » (١) و قال : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » (٢) فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس و الشواغل و هو آخر درجات الصبر و إنّما الصبر عن العلائق كلّها مقدّم على الصبر عن الخواطر ، و أشدّ العلائق على النفس علاقة الخلق و حبّ الجاه ، فإنّ لذّة الرّئاسة و الغلبة و الاستعلاء و الاستتباع أغلب اللذات في الدّنيا على نفوس العقلاء و كيف لا تكون أعلى اللذات و مطلوبها صفة من صفات الله تعالى والرّبوّية المطلوبة و محبوبة بالطبع للقلب بما فيه من المناسبة لأموال الرّبوّية و عنه العبارة بقوله تعالى : « قل الرّوح من أمر ربي » (٣) وليس القلب منعموماً على حبه ذلك و إنّما

(١) ص : ٢٩ .

(٢) القدر : ١٧ .

(٣) الاسراء : ٨٥ .

هو مذمومٌ على غلط وقع له بسبب تعزير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر فأضلّه وأغواه ، وكيف يكون مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ليس يطلب إلا بقاء لافناء فيه وعزاً لا ذلّ فيه ، وأمناً لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمالاً لا نقصان فيه ، وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموماً على طلب ذلك بل حق كلّ عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له ، وطالب الملك طالب للعلو والعزّ والكمال لا محالة ولكن الملك ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا ، وملك مخلّد دائم لا يشوبه كد ولا ألم ، ولا يقطعه قاطع ولكنه عاجل وقد خلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة ، فجاء الشيطان وتوسّل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسّل إليه بواسطة الحمق فوعده بالفرور في باب الآخرة ومنّاه مع ملك الدنيا ملك الآخرة ، وكما قال عليه السلام : « والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » ^(١) فأتخدع المخذول بغروره و اشتغل بطلب عزّ الدنيا وملكها على قدر إمكانه ، ولم يتدلّ الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فعبّر عن المخذولين فقال سبحانه : « كلا بل تحبّون العاجلة ته وتذرون الآخرة » ^(٢) وقال تعالى : « إن هؤلاء يحبّون العاجلة وينذرون وراءهم يوماً ثقيلاً » ^(٣) وقال تعالى : « فأعرض عنّ تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ته ذلك مبلغهم من العلم » ^(٤) ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرّسل فأوحوا إليهم ما مرّ على الخلق من إهلاك العدو وإغوائه ، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقيّ عن الملك المجازي الذي لا أصل له إن سلم ولا دوام له أصلاً ، فنادوا فيهم « يا أيّها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم ائثروا في سبيل الله أثأقنتم إلى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل » ^(٥) فالتّورية و

(١) قد تقدم . (٢) القيامة : ٢٠ و ٢١ . (٣) الانسان : ٢٧ .

(٤) النجم : ٢٩ و ٣٠ . (٥) التوبة : ٣٨ .

الإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد ، والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة ، أما ملك الدنيا فالزهد فيها والقناعة باليسير منها ، وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى بدرك بقاء لا فناء فيه وعز لا ذل فيه ، وقرّة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس ، والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعلهم بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضربتان ، ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً ولو كانت تسلم لكان يحسده أيضاً ، ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدّرات وطول الهموم في التدبيرات وكذلك سائر أسباب الحياة ، ثم كما يسلم ويتم الأسباب ينقضي العمر « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالأمس » فضرب الله تعالى لها مثلاً وقال : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح » (١) والزهد في الدنيا لما كان ملكاً حاضراً حسده الشيطان عليه فصد عنه ، ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته و غضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان ، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حراً وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لبطنه وفرجه وسائر أعضائه فيكون مسخراً مثل البهيمة مملوكاً يستجره زمام الشهوة آخذاً بمخنتقه (٢) إلى حيث يريد ويهوى فما أعظم اغترام الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكاً وينال الربوبية بأن يصير عبداً ، ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : سل مني حاجة ، قال : كيف أطلب منك حاجة وملكك أعظم من ملكك ، فقال : كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو عبدي لي ، فقال : كيف ذلك ؟ أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكت أنا هؤلاء كلهم فهم عبيد لي ، فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة فالمنخدعون بغرور الشيطان خسروا

الدُّنيا والآخرة جميعاً ، فالَّذِينَ وفقوا للاستعداد ^(١) على الصراط المستقيم فازوا بالدُّنيا والآخرة جميعاً ، فإذا عرفت الآن معنى الملك والرُّبُوبِيَّة ومعنى التسخير والعبوديَّة ومدخل الغلط في ذلك وكيف تعيمة الشيطان وتلبيسه فيسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والأعراض عنه والصبر عند فواته إذ تصير بتركه ملكاً في الحال وترجو به ملكاً في الآخرة ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن أُلِف الجاه وأنس به ورسخ فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكتفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لابد وأن يضيف إليه العمل وعمله في ثلاثة أمور : أحدها أن يهرب من موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب ، كما يهرب من غلبته الشهوة عن مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله تعالى في سعة الأرض إذ قال تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » ^(٢) . الثاني أن يكلف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع ، وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغي أن يبدلها بتقاضها حتى يترسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده ، فلا معنى للمعالجة إلا المضادة . الثالث أن يراعى في ذلك التلطّف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج فيترك البعض ويسلي نفسه ببعض ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتداء بترك البعض إلى أن يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيه ، وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله ﷺ : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله تعالى فإن المنبت لأرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ^(٣) وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده

(١) استند - بالسین البهمله - : استقام . (٢) النساء : ٩٧ .

(٣) أخرجه البراز من حديث جابر كما في الجامع الصغير وقد تقدم . وفي الكافي

ج ٢ ص ٨٧ مثله . والمنبت من انقطع به في سفره .

يغلبه ، ^(١) فإن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة و عن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات ، و اتخذته دستوراك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل ، فإن تفصيل الآحاد يطول و من راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حالة يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتعكس أموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً ، وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه ، وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق ، وله نظير في العادات فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهراً فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم و الصبر على اللعب .

و إلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيته أشد ، فقال الصبر في الله ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال : لا ، قال : الصبر مع الله ، قال : لا ، قال : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف .

و قد قيل في معنى قوله تعالى : « اصبر وصابروا ورابطوا » ^(٢) : اصبروا في الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله . وقيل : الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . و قد قيل في معناه :
و الصبر عنك فمنموم عواقبه ❖ و الصبر في سائر الأشياء محمود
وقيل أيضاً :

الصبر يجمل في المواطن كلها ❖ إلا عليك فإنه لا يجمل
هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره .

❖ الشطر الثاني من الكتاب في الشكر ❖

وله ثلاثة أركان الركن الأول في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه .

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ج ٣ ص ١٩ باختلاف في اللفظ وفي صحيح البخاري مثله .
(٢) آل عمران : ٢٠٠ .

الرُّكن الثاني في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصّة والعامة . الرُّكن الثالث في بيان الأفضل من الصبر والشكر .
الرُّكن الأول في نفس الشكر :

﴿ بيان فضيلة الشكر ﴾

إعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال : « ولذكر الله أكبر » ^(١) فقال تعالى : « فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » ^(٢) . وقال تعالى : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » ^(٣) . وقال : « وسنجزي الشاكرين » ^(٤) . وقال تعالى إخباراً عن إبليس اللعين : « لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم » ^(٥) . وقيل : هو طريق الشكر ، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » ^(٦) . وقال تعالى : « وقليل من عبادي الشكور » ^(٧) . وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ^(٨) . واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى : « فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » ^(٩) . وقال : « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » ^(١٠) . وقال : « يرزق من يشاء » ^(١١) . وقال : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ^(١٢) . وقال : « ويتوب الله على من يشاء » ^(١٣) . وهو خلق من أخلاق الرُّبوبيّة إذ قال تعالى : « والله شكورٌ حلِيمٌ » ^(١٤) وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنّة فقال : « وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده » ^(١٥) .

(١) العنكبوت : ٤٥ . (٢) البقرة : ١٥٢ .

(٣) النساء : ١٤٧ . (٤) آل عمران : ١٤٥ .

(٥) الاعراف : ١٦ . (٦) الاعراف : ١٧ .

(٧) سبأ : ١٣ . (٨) ابراهيم : ٧ .

(٩) التوبة : ٢٨ . (١٠) الانعام : ٤١ .

(١١) الشورى : ١٩ . (١٢) النساء : ٤٨ .

(١٣) التوبة : ١٥ . (١٤) التغابن : ١٧ .

(١٥) الزمر : ٧٤ .

وقال : « و آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » (١).

وأما الاخبار : فقد قال رسول الله ﷺ : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » (٢).

و روي عن عطاء أنه قال : دخلت على عائشة فقلت : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : وأي شأنه لم يكن عجباً إنه أتى ليلة فدخل معي في فراشي - أو قالت : في لحافي - حتى مس جلده جلدي ثم قال : يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي قالت : قلت : إنني أحب قربك ولكنني أؤثر هواك ، فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكي حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكي ثم سجد فبكي ثم رفع رأسه فبكي فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة ، فقلت : يا رسول الله ما يبكيك ؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : أفلاً كون عبداً شكوراً ولم لأفعل ذلك ؟ وقد أنزل الله عليّ « إن في خلق السموات والأرض (٣) - الآية - » (٤) . وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً ، وإلى هذا السرّ يشير ما روي أنه سرّ بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب فأنطقه الله فقال : منذ سمعت قوله تعالى : « وقودها الناس والحجارة » فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجيره من النار فأجاره ثم رآه بعد مدة مثل ذلك فقال : لم تبكي الآن ؟ فقال : ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر و السرور ، وقاب العبد كالحجارة أو أشدّ قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال

(١) بونس : ١٠ .

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه تحت رقم ١٧٦٤ .

(٣) البقرة : ١٦٤ .

(٤) حديث عطاء أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء وفيه أبو حناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ، ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قوله : « وأي شأنه لم يكن عجباً » وهو عند مسلم من رواية هروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث . (المغنى)

الخوف والشكر جميعاً .

و روي عنه عليه السلام أنه قال : « ينادي مناد يوم القيامة ليقيم الحمادون فيقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل : ومن الحمادون؟ فقال : الذين يشكرون الله تعالى على كل حال » وفي لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » (١) .
و قال عليه السلام : « الحمد رداء الرحمن » (٢) .

و أوحى الله تعالى إلى أيوب أنني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي - في كلام طويل - و أوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين : دارهم دار السلام إذ دخلوها ألهمتهم الشكر و هو خير الكلام ، و عند الشكر استزيدهم و بالنظر إليّ أزيدهم .
ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر : فأبي المال نتخذ ؟ فقال عليه السلام : « ليتخذ أحدكم لساناً ذاكر و قلباً شاكراً » (٣) فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن المال .
و قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : « الشكر نصف الإيمان » .

أقول : و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب ، والمعافي الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر . والمعطي الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع » (٤) .

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : ما فتح الله على عبد باب شكر فحزن عنه باب الزيادة » (٥) .

و عنه عليه السلام قال : « من أعطى الشكر أعطى الزيادة قال الله تعالى : « لئن

(١) ما عثرت على لفظه نعم روى الطبراني في الكبير و العاظم في المستدرک ج ١ ص ٥٠٢ و البیهقي في الشعب « أول من يدمى إلى الجنة العبادون يحمدون على السراء والضراء » بسند حسن عن ابن عباس كما في الجامع الصغير .

(٢) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت ١٨٥٦ . و قد تقدم في النكاح .

(٤) و (٥) المصدر ج ٢ ص ٩٤ تحت رقم ١ و ٢ .

شكرتم لأزيد منكم»^(١).

وعنه عليه السلام قال : « ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرّفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتمّ كلامه حتّى يؤمر له بالمزيد »^(٢).

وعن الباقر عليه السلام قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها فقالت : يا رسول الله لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ فقال : يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أصابع رجله فأنزل الله سبحانه : « طه » ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى »^(٣).

❖ (بيان حد الشكر و حقيقته) ❖

إعلم أنّ الشكر من جملة مقامات السالكين و هو أيضاً ينظم من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل فيورث الحال ، والحال يورث العمل ، أمّا العلم فهو معرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل با نعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم و محبوبه و يتعلّق ذلك العمل بالقلب و بالجوارح و باللسان و لا بدّ من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإنّ كلّ ما قيل في حدّ الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه ، فالأصل الأوّل العلم و هو علم بثلاثة أمور يعين النعمة و وجه كونها نعمة في حقّه ، و بذات المنعم و وجود صفاته التي بها يتمّ الإينعام و يصدر الإينعام منه عليه فإنّه لا بدّ من نعمة و منعم و منعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد و إرادة فهذه الأمور لا بدّ من معرفتها هذا في حقّ غير الله تعالى ، فأما في حقّ الله فلا يتمّ إلا بأن يعرف أنّ النعم كلّها من الله وأنّه هو المنعم ، والوسائط مستخرون من جهته و هذه المعرفة وراء التقديس و التّوحيد إذ دخل التّوحيد و التقديس فيها ، بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس ثمّ إذا عرف ذاتاً مقدّسة فيعرف أنّه لا مقدّس إلا واحد و ما عداه غير مقدّس ، وهو التّوحيد ،

(١) الكافي ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ٨، والاية في سورة ابراهيم : ٧ .

(٢) الكافي ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ٩ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ٦ والاية في سورة طه : ١ و ٢ .

ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة إذ ينطوي فيها مع التقديس و التوحيد كمال القدرة و الانفراد بالفعل و عن هذا عبّر رسول الله ﷺ حيث قال : « من قال : «سبحان الله» فله عشر حسنات ، و من قال : « لا إله إلا الله » فله عشرون حسنة ، و من قال : « الحمد لله » فله ثلاثون حسنة » (١).

و قال ﷺ : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، و أفضل الدعاء الحمد لله » (٢) .
و قال ﷺ : « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله » (٣) .
و لا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ، و لا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد ، و الحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين ، و اعلم أن تمام هذه المعرفة ينقي الشرك في الأفعال فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لو زيره أو لو كي له دخلاً في تيسير ذلك و إيصاله إليه فهو إشارك به في النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه و من غيره بوجه فيتوّدع فرحه عليهما فلا يكون موحداً في حق الملك ، نعم لا ينقص من توحيده في حق الملك و كمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه و بالكافذ الذي كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكافذ ولا يشكرهما لأنه لا يثبت لهما دخلاً من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك و قد نعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضاً مضطر أن من جهة الملك في الإيصال وأنه لورد الأمر

(١) أخرجه الحاكم بأدنى اختلاف في المستدرک ج ١ ص ٥١٢ من حديث أبي هريرة

و صححه .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٨٠٠ والترمذی والنسائی وابن حبان والحاكم في

المستدرک عن جابر بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

(٣) قال العراقي : لم أجده مرفوعاً و إنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر

عن ابراهيم التيمي يقال : ان أكثر الكلام تضعيفاً .

إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئاً فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغذ فلا يورث ذلك شر كافي توحيد من إضافة النعمة إلى الملك ، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلاً في يد الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها فإن الله تعالى هو المسيطر للدواعي عليها لتفعل شامت أم أبت ، كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلاً إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده فكل من وصل إليك نعمة من الله على يده فهو مضطر إذ سيطر الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي وألقى في قلبه أن خير به في الدنيا والآخرة في أن يعطيك ما أعطاك وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله فيه هذا الاعتقاد فلا يجد سبيلاً إلى تركه فهو إذاً إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك ، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما تنعمك فهو إذن إنما يطلب تنفع نفسه بتنعمك فليس منعاً عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى هو يرجوها وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطراً إلى الإيصال إليك ، فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحداً وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكراً ، ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته : إلهي خلقت آدم بيدك وأسكنته جنتك وزوجته حواء أمتك فكيف شكرتك ؟ فقال الله تعالى : أعلم أن ذلك مني فكانت معرفته شكراً . فإذا لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه فإن خالجت ريب في هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل به وبغيره فينقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبتقصان فرحك ينقص عملك . فهذا بيان هذا الأصل .

الأصل الثاني الحال المستثمرة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضاً في نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا

بالنعمة ولا بالإِ نعام ، و لعلّ هذا بما يتعذّر عليك فهمه فنضربك مثلاً فنقول :
 الملك الذي يريد الخروج إلى سفر فأُ نعم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح بالمنعم
 عليه بالفرس من ثلاثة أوجه : أحدها أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس وأنه
 مال ينتفع به و م ركوبٌ يوافق غرضه وأنه جواد نفيس و هذا فرح لا حظّ له
 في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجدّه في صحراء فأخذّه لكان فرحه مثل ذلك .
 الوجه الثاني أن يفرح به لا من حيث أنه فرس بل من حيث يستدلّ به على
 عناية الملك به و شفقتّه عليه و اهتمامه بجانبه حتّى لو وجد هذا الفرس في صحراء
 أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلاً لاستغنائّه عن الفرس أصلاً أو لاستحقاقه
 له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحلّ في قلب الملك .

الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك و يتحمّل مشقة
 السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه و ربّما يرتقي إلى درجة الوزارة من حيث أنه ليس
 يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرساً ويعتني به هذا القدر من العناية
 بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلّا بواسطته ، ثمّ إنّّه ليس
 يريد من الوزارة الوزارة أيضاً بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتّى لو خيّر بين
 القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات :
 فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً لأنّ نظر صاحبها مقصور على الفرس
 ففرحه بالفرس لا بالمعطي و هذا حال كلّ من فرح بنعمة من حيث أنّها لذينة و
 موافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر .

والثانية داخلّة في معنى الشكر من حيث أنّه فرح بالمنعم و لكن لا من حيث
 ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحقّه على الإِ نعام في المستقبل و هذا حال
 الصّالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه وإِنّما الشكر
 التّام في الفرع الثالث :

و هو أنّ يكون فرح العبد بنعم الله من حيث أنّه يقدر بها على التوصل
 إلى القرب منه والنزول في جواره و النظر إلى وجهه على الدّوام فهذا هو الرّتبة

الغليا و أمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزودة الآخرة و يعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله و تصدّه عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذينة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهلج بل من حيث أنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له و قربه منه : ولذلك قال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، و قال الخوَّاص : شكر العائمة على المطعم والملبس والمشرب و شكر الخاصة على واردات القلوب . وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن و الفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات و خلا عن لذة القلب فإن القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله و معرفته و لقاءه وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين و كما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة و يستحلى الأشياء المرّة حتى قيل :

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّا به الماء الزّلالا

فأذن هذا شرط الفرح بنعمة الله فإن لم تكن إبل فمعزى ، وإن لم يكن هذا فالدرّجة الثانية أمّا الأولى فخارجة عن كل حساب ، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس و بين من يريد الفرس للملك ، و كم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه و بين من يريد نعمة الله ليصل بها إليه .

الاصل الثالث العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم و هذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح ، أمّا بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق ، و أمّا باللسان فأظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه ، و أمّا بالجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته و التوقّي من الاستعانة بها على معصيته حتى أن شكر العينين أن تستر كل عيب يراه بمسلم و شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه لمسلم فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء و الشكر باللسان لأظهار الرضا عن الله تعالى و هو مأمور به .

فقد قال **والله** : « لرجل كيف أصبحت ؟ فقال : بخير فأعاد السؤال ، فأعاد

حتى قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال : هذا الذي أردت منك ، ^(١) وكان السلف يتساءلون بينهم و نيّتهم استخراج الشكر لله ليكون الشاكر مطيعاً والمستنطق له به مطيعاً وما كان قصدهم الرّياء بإظهار الشوق وكلّ عبد يسأل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ، فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدّين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك ومن بيده كلّ شيء إلى عبد مملوك لا يتقدّر على شيء ، فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو المبلي وهو القادر على إزالة البلاء ، ودلّ العبد لمولاه عزّ والشكوى إلى غيره ذلّ ، وإظهار الذّل للعبيد مع كونهم أذلاً قبيح ، قال تعالى : « إنّ الذين تعبّدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرّزق واعبدوه واشكروا له » ^(٢).

وقال تعالى : « إنّ الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » ^(٣) فالشكر باللسان من جملة الشكر .

أقول : روى في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : « شكر كلّ نعمة وإن عظمت أن تحمد الله » ^(٤).

وعنه عليه السلام « أنّه خرج من المسجد وقد ضاعت دابّته فقال : لئن ردّها الله عليّ لأشكرنّ الله حقّ شكره قال الرّواي : فما لبث أن أتى بها فقال : الحمد لله ، فقال : قائل له : جعلت فداك أليس قلت : لأشكرنّ الله حقّ شكره ؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام : ألم تسمعني قلت : الحمد لله » ^(٥).

وعنه عليه السلام قال : « شكر النعم اجتناب المحارم وتمام الشكر قول الرّجل الحمد لله ربّ العالمين » ^(٦).

(١) روى نحوه مالك في الموطأ ج ٢ ص ٢٣٩ والسائل عمر لا النبي صلى الله عليه وآله .

(٢) السنكبوت : ١٧ . (٣) الاحراف : ١٩٤ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ١١ .

(٥) المصدر ج ٢ ص ٩٧ تحت رقم ١٨ .

(٦) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ١٠ .

وعنه عليه السلام أنه سئل «هل للشكر حد؟» إذا فعله العبد كان شاكرًا؟ قال : نعم قلت : ما هو قال : يحمد الله على كلِّ نعمة عليه في أهل و مال و إن كان فيما أنعم عليه في ماله حقٌّ أداه ، ومنه قوله سبحانه : «سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنَّا له مقرنين ، ومنه قوله : « ربُّ أنزلني منزلاً مباركاً و أنت خير المنزلين » و قوله : « ربُّ أدخلني مدخل صدق و أخرجني مخرج صدق و اجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » (١).

وعنه عليه السلام : « إذ ذكر أحدكم نعمة الله فليضع خدَّه على التراب شكراً لله فإن كان راكباً فلينزل و ليضع خدَّه على التراب و إن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خدَّه على قربوسه و إن لم يقدر فليضع خدَّه على كفه ثم ليحمد الله على ما أنعم الله عليه » (٢).

قال أبو حامد : فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته ، فأما قول من قال : «إنَّ الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع» فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب ، و قول من قال : «إنَّ الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه» نظر إلى مجرد عمل اللسان ، و قول القائل : «إنَّ الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدانة حفظ الحرمة» جامع لأكثر معاني الشكر لا يشدُّ منه إلَّا عمل اللسان ، و قول الجنيد : «الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة» إشارة إلى حالة من أحوال القلب على الخصوص ، وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم و لذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ، ثم قد يختلف جواب كلِّ واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلَّا عن حالتهم الغالبة عليهم اشتغالا بما يهيمهم ممَّا لا يهيمهم ، أو يتكلمون بما يرونه لايقاً بحال السائل اقتصاراً على ذكر القدر الذي يحتاج إليه و إعراضاً ممَّا لا يحتاج إليه فلا ينبغي أن تظنَّ أن ما ذكرناه طعن عليهم و أنه لو عرض عليهم

(١) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ١٢ والايات في سورة الزخرف : ١٣ . وفي

سورة المؤمنون : ٢٩ . وفي سورة الاسراء : ٨٠ .

(٢) الكافي ج ٢ ص ٩٨ تحت رقم ٢٥ .

مجامع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها ، بل لا يظن ذلك بعقل أصلاً إلا أن يفرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني أم يقتل بعضها مقصوداً و بقية المعاني تكون من توابعه و لوازمه و لسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء .

❖ بيان كشف الغطاء عن الشكر في حق الله سبحانه ❖

لعله يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر فإننا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب و يظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم و جاههم ، أو بالخدمة التي هي إغاثة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثل بين أيديهم في صورة الخدم و ذلك تكثير لسوادهم و سبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين: أحدهما أن الله منزّه عن الحظوظ و الأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة و الإغاثة وعن نشر الجاه و الحشمة بالثناء و الاطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالمثل بين يديه رغبةً سجداً فشكرنا إياه بملاحظته له فيه يضاهاى شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع إذ لا حظ للملك فيه وهو غائب لا علم له . ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها . الوجه الثاني أن جميع ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى علينا من نعم الله إذ جوارحنا و قدرتنا و إرادتنا و داعيتنا و سائر الأمور التي هي أسباب حركتنا و نفس حركتنا من خلق الله تعالى و نعمته فكيف نشكر نعمته بنعمته ، و لو أعطانا الملك مراكباً فأخذنا مراكباً آخر له و ركبناه أو أعطانا مراكباً آخر لم يكن الثاني شكراً للأول منا ، بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالاً في حق الله تعالى من هذين الوجهين و لسنا نشك في الأمرين جميعاً والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع ، فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام و كذلك لموسى عليه السلام فقال : يا رب كيف أشكرك و أنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثالثة من نعمك ؟ و في لفظ آخر : و شكري لك نعمة أخرى منك توجب علي

الشكر لك ؟ فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني . وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعم مني رضى منك بذلك شكراً .

أقول : وهذا مروى في الكافي عن الصادق عليه السلام أيضاً ^(١) . وفيه عنه عليه السلام قال : « من أنعم الله عليه بنعمة فعرها - بقلبه فقد أدى شكرها » ^(٢) .

وعن الكاظم عليه السلام « من حمد الله على النعمة فقد شكره ، والحمد أفضل من تلك النعمة » ^(٣) .

قال أبو حامد : فإن قلت : فقد فهمت السؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم وإني أعلم استحالة الشكر لله فأما كون العلم باستحالة الشكر شكراً فلا أفهمه فإن هذا العلم أيضاً نعمة منه فكيف صار شكراً وكان الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وإن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم أن هذا قرع باب من أبواب المعارف وهي أعلى من علوم المعاملة ولكنا نشير منها إلى ملامح ونقول : وهنا نظران نظر بعين التوحيد الماحض وهذا النظر يعرفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من قد عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أولاً وأبداً لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير الذي يتصور فلا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره ، فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قد رعدم غيره بقي موجوداً فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد ولا يتصور

(١) المصدر ج ٢ ص ٩٨ تحت رقم ٢٢ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٩٦ تحت رقم ١٥ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٩٦ تحت رقم ١٣ .

أن يكون غير ذلك فإذا ليس في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد فإذا نظرت من هذا المقام علمت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب .

ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ قوله تعالى : «إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب» (١) فقال : واعجبا أعطى وأثنى . أشار إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثني وهو المثني عليه . ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرء بين يديه « يحبهم » ويحبونه ، فقال : لعمرى يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه . أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب ، وهذه رتبة عالية لا تقمها إلا بمثال على حد عقلك ولا يخفى عليك أن المصنّف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنعه فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث أنه ولده فقد أحب نفسه ، وكل ما في الوجود سوى الله فهو تصنيف الله وصنعه فان أحبه فما أحب إلا نفسه وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب ، وهذا كله نظر بعين التوحيد ، وتعبّر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله ولم ير إلا الله فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول : كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ؟ ولعله يأكل في كل يوم أرطالاً من الخبز فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم ، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الإشارة بقوله تعالى : « إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » وإذا مرؤوا بهم يتغامزون » وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين » وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون » وما أرسلوا عليهم حافظين ، (٢) ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غداً أعظم إذ قال : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » على الآرائك ينظرون ، (٣) وكذلك أمة نوح كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة فقال : « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون »

(١) م : ٤٤ .

(٢) المطففين : ٣٠ إلى ٣٤ . (٣) المطففين : ٣٥ و ٣٦ .

فهذا أحد النظريين .

النظر الثاني نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم ربٌ يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعمارهم في كلتي العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقاً وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلوم أنهم من حيث هم هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا ، و فرق بين الموجود وبين الموجد ، وليس في الوجود إلا موجود واحد و موجد ، فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو ، والموجود قائم و قيوم ، والموجد هالك وفان ، فإذا كان كل من عليها فان فلا يبقى إلا وجه ربك ذوالجلال والإكرام .

الفريق الثاني ليس بهم عمى ولكن بهم عور لأنهم يبصرون بأحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقاً كما كان الذي قبله جاحداً تحقيقاً فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين فأثبت عبداً و رباً فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد ، ثم إن كحل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له من نقصان ما أثبتته سوى الله فإن بقي في سلوكه كذلك ، فلا يزال يفتني به النقصان إلى المحو فينمحي عن رؤية ما سوى الله فلا يرى إلا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد و حيث أدرك نقصاً في وجود ما سوى الله دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فهذه تفاوت درجات الموحدين ، وكتب الله تعالى المنزلة على السنة رسله هي الكحل الذي يحصل به أنوار الأبصار ، و الأنبياء هم الكحالون وقد جاؤوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلا الله ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق ، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون والجاحدون والمشركون أيضاً هم قليلون وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد إذ

عبدة الأوثان قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً والمتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ، ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز .

لكل إلى شأوا العلى حركات ۞ ولكن عزيز في الرّجال ثبات
ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بطلب القرب فقيل له : « واسجدوا اقرب » ^(١) قال في سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ^(٢) فقوله : « أعوذ بعفوك من عقابك » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكانته لم ير إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ، ثم اقترب فغنى عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال : « أعوذ برضاك من سخطك » ^(٣) وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترّب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال : أعوذ بك منك وهذا فراد منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيزاً ومثنيّاً فغنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقترّب فقال : « أنت كما أثنيت على نفسك لا أحصي ثناءً عليك » فقوله : لا أحصي خبر عن فناء نفسه وخروجه عن مشاهدته وقوله : « أنت كما أثنيت على نفسك » بيان أنه المثني والمثني عليه وأن الكل منه بداو إليه يعود ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله وأفعاله ، فيستعيز بفعل من فعله فانظر إلى ما ذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان عليه السلام لا يرقى من رتبة إلى أخرى

(١) العلق : ١٩ . (٢) رواء مالك في الموطأ ج ١ ص ١٦٧ من حديث عائشة . وفيه « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك » وكذا رواء مسلم وغيره وقد تقدم . (٣) عرفت أن هذه الجملة في الحديث مقدم على الجملة الأولى . فلا يستقيم ما قاله أبو حامد إلا على رواية النسائي في السنن ج ٨ ص ٢٨٤ لأنه روى الاستمادات فقط كما في المتن دون قوله : « لا أحصي ثناء - الخ - » .

إلا ويرى الأولي بعداً بالاضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأولي ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ «إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم واللييلة سبعين مرة» (١) فكان ذلك لترقيته إلى سبعين مقاماً بعضها بعد البعض وأوائلها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالاضافة إلى أواخرها فكان استغفاره لذلك ، ولما قالت عائشة : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود ؟ وما هذا الجهد الشديد ؟ قال : «أفلا أكون عبداً شكوراً» (٢) معناه أفلا أكون طالباً للمزيد في المقامات فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى : «لئن شكرتم لأزيدنكم» (٣) وإذ تغلغلنا في بحار المكاشفة فالتقبض العنان و ل نرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول : الأنبياء بعثوا الدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة ، وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بالاضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ولا يعرف ذلك إلا بمثال ، فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مراكوباً وملبوساً وتقداً لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان إحداها أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته ، والثانية أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنه لا يقوي على القيام بخدمة تغني فيه غناء وغيبته لا تنقص من ملكه فيكون قصده من الإيعان عليه بالمراكوب والزاد أن يحظي العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه فممنزل العبد من الله تعالى في

(١) تقدم غير مرة .

(٢) تقدم من طريق الخاصة والعامة آنفاً .

(٣) إبراهيم : ٧ .

المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى فإن الأولى محالٌ على الله تعالى و الثانية غير محال .

ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكراً في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ما لم يتم بخدمته التي أرادها الملك منه ، وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً ومع ذلك يتصور أن يكون شاكراً وكافراً ويكون شكره بأن يستعمل ما أتقذ إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه ، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه ، فمنها لبس العبد الثوب وركب المركوب ولم يتق الزاد إلا في الطريق فقد شكر مولاه إذا استعمل نعمته في محبته أي فيما أحبه لعبده لنفسه ، وإن ركب واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لنفسه ، وإن جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته إذ أهملها وعطّلها ، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه ، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وإنما سعادتهم في القرب منها فأعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب ، وعن بعدهم و قريهم عبر الله تعالى إذ قال : « ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ثم رددناه أسفل سافلين « إلا الذين آمنوا - الآية - » (١) فاذن نعم الله آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله غني عنه قرب أو بعد والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فيكون قد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له ، فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطّلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى ، فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب

التي استعملها في الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعمل في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله ، فالمعصية والطاعة يشملهما المشيئة ولكن لا يشملهما المحبة والكراهة ، بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه ، و وراء بيان هذه الدقيقه سر القدر الذي منع من إفشائه ، وقد انحل بهذا الاشكال الأول وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر ؟ وبهذا أيضاً ينحل الاشكال الثاني ، فإننا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله ، فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله تعالى فقد حصل المراد ، وفعلك عطاء من الله ومن حيث أنت محل فقد أثني عليك وثناؤه نعمة أخرى منه إليك ، فهو الذي أعطى وهو الذي أثني. و صار أحد فعليه سبباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته ، فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه ، لا بمعنى أنك موجد له ، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق العلم وموجده ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدره الأزلية فيك فوصفك بأنك شاكر إثبات شئيه لك وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئاً ، وإنما أنت لا شيء إذ كنت أنت ظاناً لنفسك شيئاً من ذاتك فإما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئاً فأنت شيء إذ جعلك شيئاً فإن قطع النظر عن جعله كنت لا شيء تحقيقاً ، وإلى هذا أشار عليه السلام حيث قال : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ^(١) لما قيل له : فقيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ عنها من قبل فبين أن الخلق مجاري قدرة الله ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض وقوله : «اعملوا» وإن كان جارياً على لسان الرسول ﷺ فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق بأن العمل نافع وعملهم فعل من أفعال الله والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة وانبعاث الداعية أيضاً من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضاً من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله

(١) متفق عليه من حديث علي عليه السلام وعمران بن حصين ورواه الطبراني من حديث عمران

وابن عباس بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

سبب للبعض أي الأول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سبباً لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله ، وخلق الحياة شرطاً لخلق العلم وخلق العلم شرطاً لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى و بعضها سبب للبعض أي هي شرط ، ومعنى كونه شرطاً أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم ، فيكون بعض أفعاله سبباً للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره بل ممتد شرط الحصول لغيره وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي ذكرناه .

فإن قلت : فلم قال الله تعالى : «اعملوا» و إلا فأنتم معاقبون و مذمومون على العصيان و ما إلينا شيء فكيف نذم و إنما الكل إلى الله ؟ فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الفرور و ذلك سبب للوصول إلى جوار الله والله تعالى مسبب الأسباب و هو مرتبها فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ويعبر عن مثله بأن كلاً ميسر لما خلق له ، و من لم تسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله و كلام رسوله و كلام العلماء ، وإذا لم يسمع لم يعلم ، وإذا لم يعلم لم يخف ، وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا ، فإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان وإن جهنم لم وعدهم أجمعين ، فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل فما من موفق إلا و هو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب و هو تسليط العلم والخوف عليه ، و ما من مخذول إلا و هو مقود إلى النار بالسلاسل و هو تسليط الغفلة والأمن و الفرور عليه فالمتقون يساقون إلى الجنة قهراً و المجرمون يقادون إلى النار قهراً ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ولا قادر إلا الملك الجبار ، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ، ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص ، ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم فهو بناء على عمى

يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك .

﴿بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه﴾

إعلم أن فعل الشكر وترك الكفران لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله إذ معنى الشكر استعمال نعمة في محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعماله في معارضة ولتمييز ما يحبه الله عما يكرهه مدر كان أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار والثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز فلذلك أرسل الله الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تبثني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد فمن لا يطلع على حكم الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً، وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة إلى جليلة وخفية أما الجليلة فكالعلم بأن من الحكيم في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشاً والليل لباساً، فتيسر الحركة عند الأبصار والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكيم فيها، بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة . وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكيم الجليلة التي تحملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى : «إنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً» الآية (١) وإما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة السماء ليستلذ العين بالنظر إليها وأشار إليه قوله تعالى : «إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب» (٢) فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه وبحاره

(١) عبس : ٢٥ الى ٢٩ .

(٢) الصافات : ٦ .

و رياحه وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكيم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف وكذلك أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما نعرف حكمتها كالعلم بأن العين لا يبصر لا للبطش ، واليد للبطش لا للمشي ، والرجل للمشي لا للشم .

وأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكلى والكبد وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف وجه الحكمة فيها كافة الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدر أيسيراً بالإضافة إلى ما في علم الله وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ، فإذن كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر نعمة الله فيه ، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله في اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا يهلك بها غيره ، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس إذاً بصر يتم بهما وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما أريدتا به ، وهذا لأن المراد من خلق الأرض والسماء وخلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ، ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا ببقاء البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهراً وباطناً ، فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس ، والرجع إلى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، ولذلك قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ^(١) فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية ، ولذا ذكر

مثلاً وأحداً للحِكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها و تعلم طريقة الشكر و الكفران على النعم .

فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدُّرَاهم و الدَّنَاقير و بهما يتم قوام الدنيا و هما حِجران لا منفعة في أعيانها ولكن يضطرُّ الخلق إليهما من حيث أن كلَّ إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه و ملبسه و سائر حاجاته و قد يعجز عما يحتاج إليه و يملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلاً و هو محتاج إلى جل يركبه و من يملك الجمل ربّما يستغنى عنه و يحتاج إلى الزعفران فلا بدّ بينهما من معاوضة و لا بدّ في مقدار العوض من تقدير إذ لا يبذل صاحب الجمل جملة بكلِّ مقدار من الزعفران و لا مناسبة بين الزعفران و الجمل حتى يقال يعطي منه مثله في الوزن أو الصورة ، و كذا من يشتري داراً بشباب أو عبداً بخفٍّ أو دقيقاً بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها فلا يدري أن الجمل كم يسوي بالزعفران فتتعدّر المعاملات جداً فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينهما يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كلِّ واحد رتبته و منزلته حتى إذا تقدّرت المنازل و ترتبت الرُّتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي ، فخلق الله تعالى الدُّرَاهم و الدَّنَاقير حاكمين و متوسطين بين سائر الأموال حتى تقدّر الأموال بهما ، فيقال : هذا الجمل يساوي مائة دينار ، وهذا القدر من الزعفران يساوي مائة ، فهما من حيث أنهما مساويان لشيء واحد إذن يتساويان وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانها و لو كان في أعيانها غرض ربّما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حقِّ صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حقِّ من لا غرض له فلا ينتظم الأمر فإذا خلقهما الله تعالى ليتداولهما الأيدي و يكونا حاكمين بين الأموال بالعدل و لحكمة أخرى وهي التوسّل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عاززان في أنفسهما ولا غرض في أعيانها و نسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كلَّ شيء لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربّما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأنَّ غرضه في دابة فاحتيج إلى شيء

هو في صورته كأنه ليس بشيء. وهو في معناه كأنه كل الأشياء، والشئ. إنما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم يكن له صورة خاصة تقيدها بخصوصها كالمرة لآلة لالون لها وتحكي كل لون، فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض، وكالحرف لا معنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره، فهذه هي الحكمة الثانية، وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرهما فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما، فأذن من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمنع عليه الحكم بسببه لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الداراهم والدنانير لزيد خاصة ولا العمر وخاصة، إذ لا غرض للآحاد في أعيانها فأنتهما حجران وإنما خلقا لتداولهما الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت، الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسول الله ﷺ حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذي عجزوا عن إدراكه فقال: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم»^(١)، وكل من اتخذ من الداراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة، وكان أسوأ حالاً ممن كنز لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والكس والأعمال التي يقوم بها أخسأ الناس، والحبس أهون منه، وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المايعات عن أن تتبدد، وإنما تراد الأواني لحفظ المايعات ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية، وقيل له: «من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما يُجر جِر في بطنه نار

جهنم^(١) ، و كل من عامل معاملة الرب باعلى الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما إذ لا غرض في عينهما فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاماً ودابة ، وإذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فأنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانهما ، وموعدهما من الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون : إن الحرف هو الذي جاء لمعنى في غيره . و كموقع المرأة من الألوان ، فأما من معه نقد فلو جازله أن يبيع بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيّداً عنده و ينزل منزلة المكنوز ، و تقييد الحاكم و البريد الموصل إلى الغير ظلم كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخذ النقد مقصوداً للادخار وهو ظلم .

فإن قلت : فلم جاز يبيع أحد التقدين بالآخر ولم جاز يبيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد التقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تنفرق في الحاجات قليلاً قليلاً ، ففي المنع منه ما يشوش المقصود الخاص به و هو تيسر التوصل به إلى غيره ، وأما يبيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث أن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساوى ولا يشتغل به تاجر ، فإنه عبث يجري مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذ به عينه ونحن لا نخاف

(١) أخرجه مسلم ج ٦ ص ١٣٤ من حديث أم سلمة . و في النهاية « يجر جر في بطنه » أي يعدر فيها نار جهنم فجعل الشرب و الجرع جرجرة و هي صوت وقوع الماء في الجوف قال الرمخشى : يروى برفع النار و الأكثر النصب . وهذا القول مجاز لأن نار جهنم على الحقيقة لا تجر جر في جوفه و الجرجرة صوت البعير عند الضجر ولكنه جعل صوت جرع الانسان للماء في هذه الاواني المخصوصة لوقوع النهي عنها و استغفار العقاب على استعمالها كجرجرة نار جهنم في بطنه من طريق المجاز ، هذا وجه رفع النار ويكون قد ذكر يجر جر بالياء للفصل بينه وبين النار فاما على النصب فالشارب هو الفاعل والنار مفعوله يقال : جر جر فلان الماء اذا جرعه جرعا متواتراً له صوت ، فالمعنى كأننا يجرع نار جهنم انتهى .

على العقلاء بأن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذ بعينه ، فلا يمنع مما لا تنشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود وذلك أيضاً لا يتصور جريانه إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردي فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة في الردي فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ، ونحكم بأن جيدها ورديها سواء لأن الجودة والرداء ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه ، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته ، وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداء حتى صارت مقصودة في أعيانها وحقها أن لا تقصد ، وأما إذا باع درهماً بدرهم مثله نسيئة فإنه لم يجز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا لمسامح قاصد للإحسان ففي القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر ، والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر ، فهو أيضاً ظلم لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها في معرض المعاوضة .

وكذلك الأطعمة خلقت ليقتدى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له فما خلق الله الطعام إلا لأكل ، والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغني عنها ، إذ من معه طعام فلم يأكله إن كان محتاجاً ولم يجعله بضاعة تجارة وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجاً إليه ، فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضاً مستغني عنه ، ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ، نعم بائع البر بالتمر معذور إذا أحدهما لا يسد مسد الآخر في الغرض وبائع صاع من البر بصاع مثله غير معذور ولكن عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الردي لا يرضى بها صاحب الجيد ، وأما جيد برديين فقد يقصد ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الردي في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام فهذه

حكمة الشرع في تحريم الربا .

فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم التقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها ، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين ، بل لا يتذكر إلا أولى الأبواب ، ولذلك قال عليه السلام : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » (١).

وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفران لا يتصور أن تنفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي ينطق به عوام الخلق بالكراهة وبعضه بالخطر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالخطر ، فأقول : مثلاً لو استنجيت باليمين فقد كفرت نعمة النبيين إذ خلق الله تعالى لك اليدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل إذ تفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر إلا بالعدل ، ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى إعمال بعضها شريف كأخذ المصحف وبعضها خسيس كإزالة النجاسة فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس ففضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل ، وكذلك إذا بزقت مثلاً في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات ليكون متسعك في حرركاتك ، وقسم الجهات إلى مالم يشرّفها وإلى ما شرّفها بأن وضع فيها بيتاً إضافة إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبت ربك ، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البزاق ، فإذا رميت بزاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى

(١) تقدم غير مرة في الصوم وغيره.

عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك ، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لأن الخف وقاية الرجل فللرجل فيه حظٌ و البداية في الحفظ ينبغي أن يكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ، و نقيضه ظلم وكفران لنعمة الرجل والخف وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروهاً حتى أن بعضهم كان قد جمع أكراراً من الحنطة وكان يتصدق بها فسأل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين بلي باصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام فهم منغمسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها فقبيح أن يقال : الذي شرب الخمر وأخذ القدرح بيساره فقد تعدى من وجهين أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ومن باع حرّاً في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال : خالف من وجهين أحدهما بيع الحرّ والآخر البيع في وقت النداء ، ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث أنه لم يجعل القبلة عن يمينه ، فالمعاصي كلها ظلمات وبعضها فوق بعض فيمنحوق بعضها في جنب البعض ، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكّينه بغير إذنه ولكن لو قتل بتلك السكّين أعزّ أولاده لم يبق لاستعمال السكّين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه ، فكل ما راعاه الأنبياء ﷺ والأوصياء من الآداب وتسامحنا به في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة وإلا فكل هذه المكروه عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلّغة للعبد إلى درجات القرب ، نعم بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكليّة عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقرّ الشياطين . وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله في خلق الأشجار وخلق اليد ، وأمّا اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة ، وأمّا الشجر فإنما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء

ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده . فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل ، فإن كان له غرضٌ صحيحٌ فله ذلك إذ الشجر و الحيوان جعل فداءً لأغراض الإنسان فأنهما جميعاً فانيان هالكان ، فإفناء الأحسن في بقاء الأشرف مدّةٌ ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه » ^(١) نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضاً ، وإن كان محتاجاً لأن كل شجرة بعينها لاتفي بحاجات عباد الله كلهم ، بل تفي بحاجة واحد ولو خصّص واحدبها من غير رجحان واختصاص كان ظلماً وصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر و وضعه في الأرض و ساق إليه الماء و قام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك فإن نبت ذلك في موات لايسعي آدمي اختص بمغرسه فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه فللسابق خاصية السبق فالعدل أن يكون هوأولى به ، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك وهو مجاز محض إذ لا ملك إلا لملك المملوك الذي له ما في السماوات والأرض ، فكيف يكون العبد مالكاً و هو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله و الأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براحه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه ، لا لأن اللقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد فإن اليد وصاحب اليد أيضاً مملوك ، ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لاتفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص يتفرّد به العبد فمنع من لايدلّ بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله فيعباده ، ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالمٌ و هو من الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال

الدُّنيا إذ بها تندفع ضروراتهم و ترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حدِّ فتاوي الفقه لأنَّ مقادير الحاجات خفيّة و النفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة و أواخر الأعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصّبيان الوقار و التّؤدة و السكوت عن كلّ كلام غير مهمّ و هم بحكم نقصانهم لا يطبقونه فتركتنا الاعتراض عليهم في اللّعب و اللّهو و إباحتنا إيّاهم ذلك لا يدلُّ على أنَّ اللّهو و اللّعب حقٌّ ، و كذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال و الاقتصار في الإنفاق على قدر الزكوات لضرورة ما جيلوا عليه من البخل لا يدلُّ على أنّه غاية الحقِّ ، و قد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى : « إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا » (١) بل الحقُّ الَّذي لا كدورة فيه و العدل الَّذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحدٌ من عبادة الله من مال الله إلّا بقدر زاد الرُّكاب ، و كلّ عبادة الله ركابٌ لمطايأ الأبدان إلى حضرة الملك الدّيّان فمن أخذ زيادة عليه ثمّ منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدول و خارج عن مقصود الحكمة و كافر بنعمة الله عليه بالقرآن و الرُّسول و العقل و سائر الأسباب الّتي بها عرف أنَّ ما سوى زاد الرّاكب و بال عليه في الدُّنيا و الآخرة ، فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدّ على القيام بوظيفة الشكر و استقصاء ذلك يحتاج إلى مجلّدات ، ثمّ لا تنفي إلّا بالقليل و إنّما أوردنا هذا القدر ليعلم علّة الصّدق في قوله تعالى : « و قليل من عبّادي الشكور » (٢) و فرح إبليس لعنه الله بقوله : « و لا تجد أكثرهم شاكرين » (٣) فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف هذا كلّهُ و أموراً أُخر وراء هذا ينقضي الأعمار دون استقصاء مبادئها ، فأما تفسير الآية و معنى لفظها فيعرف كلّ من يعرف اللّغة و بهذا يتبين لك الفرق بين المعنى و التفسير .

فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أنَّ الله حكمة في كلّ شيء ، و أنّه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام تلك الحكمة و بلوغها غاية المراد منها و جعل

(١) سورة محمد صلى الله عليه وآله : ٣٧ .

(٢) الاعراف : ١٦ .

(٣) سبأ : ١٣ .

بعض أفعالهم مانعاً من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انسأقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر ، وكل ما خالف و منع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ، ولكن الأشكال باق و هو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتم الحكمة و إلى ما يرفعها هو أيضاً من فعل الله تعالى فأين العبد في البين حتى يكون شاكرًا مرة و كافرًا أخرى ؟ .

فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمبادئها ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها و غايتها يفهمها من عرف منطق الطير و يجدها من عجز عن الايضاع في السير^(١) فضلاً عن أن يجول في جو الملكوت جولان الطير ، فتقول : إن الله سبحانه في جلاله و كبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع و تلك الصفة أعلى و أجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها و خصوص حقيقتها فلم يكن في العالم لها عبارة لعلو شأنها و انحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرفهم إلى مبادي إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً ، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا : لله صفة هي القدرة ، عنها يصدر الخلق و الاختراع ، ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام و خصوص صفات ، و مصدر انقسام هذه الأقسام و اختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة فهي توهم منها أمر مجمل عند المناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها و قصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ، ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمته و إلى ما يقف

(١) أوضح في سيره : أسرع .

دون الغاية ، و كان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها يتم القسمة والاختلافات ، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة ، وقيل : إنهما جميعاً داخلان في وصف المشيئة ولكن لكل واحد منهما خاصية أخرى في النسبة يوم لفظ المحبة والكراهة منهما أمر مجمل عند طالب الفهم من الألفاظ واللغات ، ثم انقسم عباده الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له في المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم ، وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور ، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، وظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمنمة زيادة في النكال وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلمة الثناء والاطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال ، فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى النكال ثم قبح وأردى ، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يكسيه من محاسن ثيابه ، فإذا تمم زينته قال : يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك ، فيكون بالحقيقة هو المجميل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الأمور في أزل الآزال ، وهكذا تسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ولم يكن ذلك عن اتفاق وبخت بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل : إنه كلمح بالبصر ، ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير ، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر ، فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي و لفظ القدر بإزاء

التفصيل المتماذي إلى غير نهاية ، و قيل : إن شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء و القدر ، فخطر لبعض العباد أن القسمة لما ذا اقتضت هذا التفصيل و كيف انتظم العدل مع هذا التفاوت و التفضيل ، و كان بعضهم لقصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر و الاحتواء على مجامعه فالجموعاً لم يطبقوا خوض غمرته بلجام المنع و قيل لهم : اسكنوا فما لهذا خلقتكم لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، و امتلأت مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السماوات و الأرض و كان زينهم أو لا صافياً يكاد يضيء ، ولو لم تمسه نار فمستته نار فاشتعل نور على نور فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمر كما هي عليه فقليل لهم : تأدبوا بآداب الله و اسكنوا و إذا ذكر القدر فأمسكوا^(١) فإن للحيطان آذاناً و حواليكم ضعفاء الأبصار فسيروا بسير أضعفكم و لا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى و أنزلوا إلى السماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء و يقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس و الكواكب في جنح الليل فيحيى حياة يحتملها شخصه و حاله و إن كان لا يحيى به حياة المتردد في كمال نور الشمس و كونه كمن قيل فيهم :

شربنا شراباً طيباً عند طيب ✽ كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضله ✽ وللأرض من كأس الكرام نصيب

فكذا كان أول هذا الأمر و آخره و لا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له ، و إذا كنت أهلاً له فتحت العين و أبصرت ، فلا تحتاج إلى قائد يقودك و الأعمى يمكن أن يقاد . ولكن إلى حد ما ، فإذا ضاق الطريق و صار أحد من السيف و أدق من الشعر قد رد الطائر على أن يطير عليه و لم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى و إذا دق المجال و لطف لطف الماء مثلاً و لم يكن العبور إلا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود و ابن عدى عنه و عن ثوبان

و هو بسند حسن كما في الجامع الصغير

يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر، فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض، والسباحة يمكن أن تتعلم أما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعلم بل ينال بقوة اليقين ولذلك قيل للنبي ﷺ: «إن عيسى يقال إنه مشى على الماء، فقال: «لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء»^(١) فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه وكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم، ثم أحبر أن له عبيدين يجب أحدهما واسمه جبرئيل وروح القدس والأمين وهو عنده محبوب مطاع مكنى، ويبغض الآخر وهو إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين، ثم أحال الإرشاد إلى جبرئيل فقال: «قل نزله روح القدس من ربك بالحق»^(٢) وقال: «يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده»^(٣) وأحال الإغواء على إبليس فقال: «ليضلهم عن سبيله»^(٤) والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة، فانظر كيف نسبته إلى العبد الذي غضب عليه، والإرشاد ساقية لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبته إلى العبد الذي أحبه، وعندك في العادة له مثال فالملك إذا كان يحتاج إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحججه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما، ولا يفوض حمل الشراب الطيب إليه إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه، ولا ينبغي أن تقول: هذا فعلي ولم يكون فعله على دون فعلي^(٥)، فإنك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الذي صرف

(١) قال العراقي: هذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال: فقد العواربون نبيهم فقبل لهم: توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يشي على الماء - فذكر حديثاً فيه - أن عيسى قال: «لو أن لابن آدم من اليقين شجرة مشى على الماء».

(٢) النحل: ١٠٤.

(٣) المؤمن: ١٥.

(٤) الزمر: ٨: هكذا «ليضل عن سبيله». (٥) في بعض النسخ الإحياء [ذوق فعلي].

داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه و الفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماماً للعدل ، فإن عدله تارة يتم بأُمور لا مدخل لك فيها ، و تارة يتم بك فإتاك أيضاً من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك و سائر أسباب حر كاتك في التعبير هو فعله الذي رتبته بالعدل ترتيباً تصدق منه الأفعال المعتدلة إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلى نفسك ، وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلاً إلى لعب المشعبد الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وترقص وترقص وتقوم وتقع وتعلم مؤلفة من خرق لا تحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعريّة دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورؤوسها في يد المشعبد ، وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقع ، وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ولكنهم ربما لا يعرفون تفصيله ، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبد الذي الأمر إليه والجاذبة بيده ، فكذلك صبيان أهل الدنيا - والخلق كلهم صبيان إلا العلماء - ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون الحركة عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدّة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتيّة بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبّهة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحرّكين للسموات وشاهدوا أبصار ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل إليهم من الأمر من حضرة الربوبيّة كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المكاشفات في القرآن فقيل : « وفي السماء رزقكم وما توعدون »^(١) وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من الأمر والقدر فقيل : « خلق سبع سموات ومن

الأرض مثلهم^١ يتنزّل الأمر بينهم^٢ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير * وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً *^(١) وهذه الأمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم وعبر ابن عباس - رضي الله عنه - عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا يحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى : « يتنزّل الأمر بينهم » فقال : لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجتموني - وفي لفظ آخر - لقلتم : إنه كافر . ولنقص على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المأملة ما ليس منه .

(الركن الثاني من أركان الشكر ما عليه الشكر وهو النعمة)

ولنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص^٣ ويعم^٤ فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها »^(٢) فتقدم أموراً كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشغل بذكر الأحاد .

(بيان حقيقة النعمة وأقسامها)

إعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة ولكن النعمة الحقيقية هي السعادة الأخروية وتسمية ما عداها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتسمية السعادة الدنياوية التي لا تعين على الآخرة نعمة ، فإن ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائل فإن تسمية نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات :

القسم الأولي : إعلم أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً كالعلم وحسن الخلق ، وإلى ما هو ضار فيهما جميعاً كالجهل وسوء الخلق ، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المال كالتلذذ باتباع الشهوات ، وإلى

ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقاً كالعلم وحسن الخلق، والضرار فيهما هو البلاء تحقيقاً وهو ضدّهما ، والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي الأبصار وتظنّه الجهال نعمة ، ومثاله الجائع إذا وجد عسلاً فيه سمٌ فإنّه يعدّه نعمة إن كان جاهلاً ، وإذا علمه علم أنّ ذلك بلاء سيق إليه والضرار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الأبصار بلاء عند الجهال ومثاله الدّواء البشع في الحال مذاقه إلا أنّه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة فالصبيّ الجاهل إذا كلّف شربه ظنّه بلاء والعاقل يعدّه نعمة ويتقلّد المنّة بمن يهديه إليه ويهيئ له أسبابه فلذلك تمنع الأمّ ولدها من الحجامة والأب يدعو إليها فإنّ الأب لكمال عقله يلحظ العاقبة والأمّ لقصورها وفرط حبّها تلحظ الحال والصبيّ لجهله يتقلّد منّة من أمّه دون أبيه ويأنس إليها وإلى شقيقتها ويقدر الأب عدوّه ، ولو عقل لعلم أنّ الأمّ عدوّه باطناً في صورة صديق لأنّ منعها إيّاه من الحجامة يسوقه إلى آلام وأراض أشدّ عليه من الحجامة ، ولكن الصديق الجاهل شرٌّ من العدوّ العاقل وكلّ إنسان فإنّه صديق نفسه ولكنّه صديق جاهل فلذلك يعمل به ما لا يعمل به العدوّ .

القسمّة الثانية : إعلم أنّ الأسباب الدنيويّة مختلطة وقد امتزج خيرها بشرّها فقلّما يصفو خيرها كالجمال والأهل والولد والأقارب والجماء وسائر الأسباب ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضرّه كقصد الكفاية من المال والجماء وسائر الأسباب ، وإلى ما ضرّه أكثر من نفعه في حقّ أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجماء الواسع وإلى ما يكافئ ضرّه نفعه ، وهذه أمور تختلف الأشخاص ، فربّ إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينتفعه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة في حقّه ، وربّ إنسان يستضرّ بالقليل أيضاً إذ لا يزال مستصغراً له شاكياً من ربّه طالباً للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقّه .

القسمّة الثالثة : إعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثّر لذاته لا لغيره وإلى مؤثّر لغيره وإلى مؤثّر لذاته ولغيره ، فالأول ما يؤثّر لذاته لا لغيره كالدّة النظر إلى

وجه الله تعالى وسعادة لقاءه ، وبالجملّة سعادة الآخرة التي لا انتضاء لها فإنّها لا تطلب ليتوصّل بها إلى غاية أخرى مقصودة ورامها بل تطلب لذاتها . الثاني ما يقصد لغيره ولا غرض أصلاً في ذاته كالدّرهم والدّنانير فإنّ الحاجات لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصى بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الايصال إليها صارت عند الجهال محبوبّة في نفسها حتّى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالرّبا ويظنون أنّها مقصودة ، ومثال هؤلاء مثال من يحبّ شخصاً فيحبّ بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ، ثمّ ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ، ولا يزال مشغولاً بتعهّد الرسول ومراعاته وتفقّده وهو غاية الجهل والضلال ، والثالث ما يقصد لذاته ولغيره كالصحّة والسلامة فإنّها تقصد ليقدر بسببها على الفكر والذكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى أو ليتوصّل بها إلى استيفاء لذات الدنيا وتقصد أيضاً لذاتها فإنّ الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرّجل لأجله فتريد أيضاً سلامة الرّجل من حيث أنّها سلامة فإنّ المؤثّر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقّقاً وما يؤثّر لذاته ولغيره أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأوّل . فأمّا ما لا يؤثّر إلّا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيثهما جوهران بأنّهما نعمة بل من حيثهما وسيلتان فيكونان نعمة في حقّ من يقصد أمراً ليس يمكنه أن يتوصّل إليه إلّا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده الذهب والممدد ، وكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربّما يشغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقّه ولا يكونان نعمة .

القسمّة الرابعة أعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع وجميل ولذيذ فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الذي يفيد في المآل ، والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال ، والشّرور أيضاً تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم ، وكل واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيّد فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة إمّا في الخير فكالعلم والحكمة فإنّها نافعة وجيلة ولذيذة عند أهل العلم

و الحكمة و إنما في الشرّ فكالجهل فإنّه ضارّ و قبيح و مؤلم و إنما يحسّ الجاهل بألم جهله إذا عرف أنّه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالماً و يرى نفسه جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم للذّته ثمّ قد يمنعه الحسد و الكبر و الشهوات اللّذيذة عن التعلّم فيتجاذبه متضادّان فيعظم ألمه ، فإنّه إن ترك التعلّم تألّم بالجهل و درك النقصان ، و إن اشتغل بالتعلّم تألّم بترك الشهوات أو بترك الكبر و ذلّ التعلّم . و مثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة ، والضرب الثاني مقيد و هو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فربّ نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكله و السلعة الخارجة من البدن و ربّ نافع قبيح كالحمق فإنّه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع و قد قيل : استراح من لا عقل له فإنّه لا يهتمّ بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه و ربّ نافع من وجه ضارّ من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الفرق فإنّه ضارّ للمال و نافع للنفس في نجاتها ، و النافع قسمان ضروريّ كالإيمان و حسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة و أعني بهما العلم و العمل إذ لا يقوم مقامهما البتّة غيرهما و إلى ما لا يكون ضروريّاً كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفراء ، فإنّه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه .

الفصل الخامسة إعلم أنّ النعمة يعبر بها عن كلّ لذّيذ و اللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع عقلية و بدنية مشتركة مع بعض الحيوانات و بدنية مشتركة مع جميع الحيوانات ، إنّما العقلية فكذلك العلم و الحكمة إذ ليس يستلذهما السمع و البصر و الشمّ و البطن و لا الفرج ، و إنّما يستلذهما القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل و هذه أقلّ اللذات وجوداً و هي أشرفها ، أمّا قلّتها فلأنّ العلم لا يستلذه إلا عالم و الحكمة لا يستلذهما إلا حكيم و ما أقلّ أهل العلم و الحكمة و ما أكثر المتسمّين باسمهم و المترسّمين برسومهم ، و أمّا شرفها فلا أنّها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنّيا و لا في الآخرة و دائمة لا تمّلّ ، فالطعام يشبع منه فيملّ و شهوة الوقاع يفرغ عنها فتستثقل و العلم و الحكمة قطّ لا يتصور أن يملّ و يستثقل ، و من قدر على الشريف الباقي

أبد الآباد إذا رضي بالخسيس الغاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره ، و أقلُّ أمر فيه أن العلم و العقل لا يحتاج إلى أعوان و حفظة بخلاف المال إذ العلم يحرسك و أنت تحرس المال ، و العلم يزيد بالانفاق و المال ينقص بالانفاق ، و المال يسرق والولاية يعزل عنها والعلم لا يمتد إليه أيدي السرقة بال أخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً وصاحب المال و الجاه في كرب الخوف أبداً ، ثم العلم نافع و لذيد و جميل في كل حال أبداً ، و المال تارة يجذب إلى الهلاك و تارة يجذب إلى النجاة و لذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع و إن سمّا خيراً في مواضع ، و أما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذّة العلم فإما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف . ولم يشق إذ الشوق تبع الذوق ، و إما لفساد أمرجتهم و مرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل و يراه مرّاً . و إما لقصور فطنتهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذّة العسل و الطيور السمان ولا يستلذ إلا باللبن و ذلك لا يدل على أنها ليست لذينة و لا استطابته للبن تدل على أنه لذّة الأشياء ، فالقاصرون عن درك لذّة العلم و الحكمة ثلاثة إما من لم يحيي بعد باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات ، و إما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى : « في قلوبهم مرض » ^(١) إشارة إلى مرض القلوب لفقدان المقول و قوله : « لينذر من كان حياً » ^(٢) إشارة إلى من لم يمّت حياته الباطنة و كل حي بالبدن ميّت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء ، و لذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون و إن كانوا موتى بالأبدان ، الثانية لذّة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كالأرثاس والغلبة والاستيلاء و ذلك موجود في الأسد و النمر وبعض الحيوانات ، والثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كالأرثاس و البطن و الفرج و هذه أكثرها وجوداً و هي أخسها ، ولذلك اشترك فيها كل ما دب و درج حتى الديدان و الحشرات ومن جاوز هذه

(١) البقرة : ١٠ .

(٢) يس : ٢٠ .

الرَّتبة تشبَّثت به لذَّة الغلبة وهي أشدُّها التصاقاً بالمتغافلين فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذَّة العلم والحكمة لا سيَّما لذَّة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله ، وهذه رتبة الصديقين ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حبِّ الرِّئاسة من القلب ، و آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حبُّ الرِّئاسة ، وأما شره البطن والفرج فكسره ممَّا يقوى عليه الصالحون وشهوة الرِّئاسة لا يقوى على قهرها إلا الصديقون ، فأما قمعها بالكلية حتَّى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجاً عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذَّة معرفة الله في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذَّة الرِّئاسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشريَّة فتكون موجودة ، لكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل ، وعندهذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام : قلب لا يحب إلا الله ولا يستريح إلا إليه وإلى زيادة المعرفة به والفكر فيه ، و قلب لا يدري ما لذَّة المعرفة وما معنى الانس بالله ، وإنما لذته بالجاه والرِّئاسة والمال وسائر الشهوات البدنيَّة ، و قلب أغلب أحواله الانس بالله سبحانه والتلذُّذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشريَّة ، و قلب أغلب أحواله التلذُّذ بالصفات البشريَّة ويعتريه في بعض الأحوال تلذُّذ بالعلم والمعرفة ، و أمَّا الأوَّل فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد ، وأمَّا الثاني فالدُّنيا طافحة به ، وأمَّا الثالث والرابع فموجودان ولكن على غاية الندور ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادراً شاذاً وهو مع الندور يتفاوت في القلَّة والكثرة ، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء ﷺ فلا يزال يزداد العهد طويلاً ويزداد مثل هذه القلوب قلَّة إلى أن تقرب الساعة ويقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وإنما وجب أن يكون هذا نادراً لأنَّه مبادي ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرُونَ فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الآخرة فإنَّ الدُّنيا مرآة الآخرة فإنَّها عبارة عن عالم الشهادة والآخرة عبارة عن عالم الغيب

وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك ، فإنك لا ترى نفسك وترى صورتك في المرآة أولاً فنعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة والقلب المتأخر متقدماً ، وهذا النوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم ، وكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت ، فمن الناس من يستر له نظراً للاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الخلق به فقال : « فاعتبروا يا أولي الأبصار » ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس ممثلي ناراً من شأنها أن تطلع على الأفتدة إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجاباً ، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا : الجنة والنار مخلوقتان . ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين ، وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين وفر حظهم من نور اليقين ، فلذلك قال الله تعالى : « كلاً لو تعلمون علم اليقين لثرون الجحيم » أي في الدنيا « ثم لثرونها عين اليقين » (١) أي في الآخرة ، فاذن قد ظهر أن القلب الصالح ملك الآخرة لا يكون إلا عزيزاً كالشخص الصالح ملك الدنيا .

القسم السادسة وهي الحاوية لمجامع النعم ، أعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية ، أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور بقاء ، لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله ﷺ :

« لا عيش إلا عيش الآخرة »^(١) قال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في شدة الضر ، ومرة في السرور منعاً للنفس من الركون إلى سرور الدنيا وذلك عند أحداق الناس به في حجة الوداع وقال رجل : اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال النبي ﷺ : « وهل تعلم ما تمام النعمة ؟ قال : لا ، قال : تمام النعمة دخول الجنة »^(٢) .

وأما الوسائل فتقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني ، وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيعة بالبدن من المال والأهل والعشيرة ، وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهي إذن أربعة أنواع : النوع الأول وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته و ملائكته و رسله ، وإلى علوم المعاملة وحسن الخلق وينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوة والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والاقدام حتى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله ﷺ إذ قال تعالى : « ألا تطغوا في الميزان » و أقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »^(٣) فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القعدة و الأمن من الآفات أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان ، ومن انهك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان وإتما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان ، فإذن الفضائل الخاصة بالنفس المقررة إلى الله تعالى أربعة :

- (١) أخرجه مسلم ج ٥ ص ١٨٨ من حديث سهل بن سعد في قصة حفر الخندق قال صلى الله عليه وآله : « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والانصار » .
 (٢) أخرجه الترمذي ج ١٣ ص ٥١ من حديث معاذ بن جبل .
 (٣) الرحمن : ٨ و ٩ .

علم مكاشفة ، وعلم معاملة ، وعفة ، وعدالة ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية وهي أربعة : الصحة والقوة والجمال وطول العمر ، ولا تنهياً هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة المطيعة بالبدن وهي أربعة : المال والجاه والأهل وكرم العشيرة ، ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة : هداية الله ورشده وتسيده وتأييده فمجموع هذه النعم ستة عشرة إذ قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة أما الحاجة الضرورية كحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل للوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما فليس للإنسان إلا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورية ، وأما الحاجة النافعة على الجملة كحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل فإن ذلك لو عدم ربما تطرّق الخلل إلى بعض النعم الداخلة .

فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشيرة ، فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود ، أما المال فالتفكير في طلب العلم والكمال وليس معه كفايته كساع إلى البيعاء بغير سلاح وكبازي يروم الصيد بلا جناح ولذلك قال ﷺ « نعم المال الصالح للرجل الصالح »^(١) وقال : « نعم العون على تقوى الله المال »^(٢) وكيف

(١) أخرجه أحمد و أبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد كما

في المغنى .

(٢) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر

عن جابر . ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلًا ، ومن طريقه القضاي في مسند الشهاب هكذا مرسلًا كما في مفتاح الكنوز للمناوي والمغنى للرامزي .

لا ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب القوت وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من التأذي تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال ، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات ، وقال بعض العلماء : وقد قيل له : ما النعيم فقال : الغنى فإني رأيت الفقير لا يعيش له ، قيل : زدنا قال : الأمن فإني رأيت الخائف لا يعيش له ، قيل : زدنا ، قال : العافية فإني رأيت المريض لا يعيش له ، قيل : زدنا ، قال : الشباب فإني رأيت الهرم لا يعيش له . وكان ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكنه من حيث أنه معين على الآخرة فهو نعمة ولذلك قال عليه السلام : « من أصبح منكم معافى في بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » ^(١) وأما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما إذ قال عليه السلام : « نعم العون على الدين المرأة الصالحة » ^(٢) وقال في الولد : « إذا مات العبد المؤمن انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له - الحديث » ^(٣) وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح ، وأما الأقارب فهم أكثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل العين والأيدي فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنياوية المهمة في دينه مالمو انفراد به لطال شغله بها وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين على الدين فهو إذن نعمة ، وأما العز والجاه فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضم ولا يستغنى عنه مسلم ، فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه عمله وفراغه ، ويشغل قلبه رأس ماله وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه ولذلك قيل : الدين والسلطان توأمان . وقال الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ^(٤) ولا معنى

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤١ والترمذي في السنن والبغاري في الادب .

(٢) قال المراقى : لم أجده له أصلاً أقول : روى الكليني في الكافي ج ٥ ص

٣٢٧ « من سادة البراء الزوجة الصالحة » .

(٣) أخرجه مسلم وقد تقدم في كتاب العلم وكتاب النكاح .

(٤) البقرة : ٢٥١ .

للجاء إلاملك القلوب كما لا معنى للغنى إلاملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر ، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضاً إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاء وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنها والاستئثار والاستكثار في الدنيا بما تبعتها ، ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن له في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حين كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة .

فإن قلت : كرم العشيرة و شرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول : نعم قال رسول الله ﷺ : « الأئمة من قريش » ^(١) ولذلك كان ﷺ من أكرمهم أرومة في نسب آدم ، ولذلك قال ﷺ : « تخيروا لنطفكم الأكفاء » ^(٢) وقال ﷺ : « إياكم وخضراء الدمن ، وما خضراء الدمن ؟ فقال : المرأة الحسناء في المنبت السوء » ^(٣) فهذا أيضاً من النعم و لست أعني به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله ﷺ وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتزينين بالعلم والعمل ،

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول : لاخفاء لشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال ﷺ :

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي في السنن من حديث علي بن فضال بسند حسن كما في

الجامع الصغير .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٩٦٨ و قد تقدم في النكاح .

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٥ ص ٣٣٢ وفي النهاية الاثرية بعد نقل الحديث

قال : اللمن جمع دمنة وهي ما تدمنه الابل والغنم بابوالها وابارها أي تلبدنه في مرابتها
ربما نبت فيها النبات الحسن النضير .

« أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله »^(١) وإنما يستحق من جلته أمر الجمال فيقال :
يكفي أن يكون البدن سليماً من الأمراض الشاغلة عن تحرّي الخيرات و لعمرى
الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضاً أما في الدنيا ، فلا يخفى نفعه فيها ، وأما
في الآخرة فمن وجهين أحدهما أن القبيح منموم و الطباع عنه نافرة و حاجات
الجميل إلى الإجابة أقرب و جاءه في الصدور أوسع ، فكأنه من هذا الوجه جناح
مبلغ كالمال والجاه إذ هو نوع قددة إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر
عليها القبيح و كل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها ،
و الثاني أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس لأن نور النفس إذا تم
إشراقه تأدّى إلى البدن فالمنظر و المخبر كثيراً ما يتلازمان ، ولذلك عوّّل أصحاب
الفراسة في معرفة مكلام النفس على هيآت البدن ، وقالوا : الوجه والعين مرآة الباطن
ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم و قال رسول الله ﷺ : « اطلبوا الخير
عند حسان الوجوه »^(٢) وقال بعض الصحابة : إذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه
حسن الاسم ، وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجهاً أولاهم بالإمامة ،
و قال تعالى : ممتناً بذلك « وزاده بسطة في العلم و الجسم »^(٣) ولسنا نغني بالجمال
ما يحرك الشهوة فإن ذلك أوثق ، وإنما نعني به إرتفاع القامة على الاستقامة مع
الاعتدال في اللحم و تناسب الأعضاء و تناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن
النظر إليه .

فإن قلت : فقد أدخلت المال و الجاه و النسب والأهل و الولد في حيز النعم

(١) قال العراقي : غريب بهذا اللفظ و للترمذي من حديث أبي بكرة أن رجلا قال :

« يا رسول الله أي الناس خير قال : من طال عمره و حسن عمله » .

(٢) أخرجه أبو يعلى من رواية اسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن

سباع عن أمها عائشة ولا يعرف حالهما ، ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء واليهيقي
في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضيف كما في المغني .

(٣) البقرة : ٢٤٧ .

و قد ذمَّ الله تعالى المال والجاه وكذا رسوله ﷺ وكذا العلماء قال تعالى : «إن من أزواجكم و أولادكم عدوا لكم» (١) و قال تعالى : «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» (٢) وقال علي عليه السلام في ذمَّ النسب «الناس أبناء ما يحسنون ، و قيمة كل امرء ما يحسنه» (٣) ، وقيل : المرء بنفسه لا بأبيه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعاً ؟ فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المأولة و العمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله إلى إدراك الأمور على ما هي عليه ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرّةً و بالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل إلى جحدها إلا أن فيها فتناً و مخاوف ، فمثل المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع و سمٌ نافع فإن أصابها المعزّم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمّها و طريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة ، و إن أصابها السوادي الغرّ فبهي عليه بلاء و هلاك ، وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر والآلي ، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالماً بالسباحة و طريق الغوص و طريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، و إن خاضه جاهلاً بذلك فقد هلك ، فلذلك مدح الله تعالى المال و سمّاه خيراً ، و مدحه رسول الله ﷺ وقال : «نعم العون على تقوى الله المال» و كذلك مدح الجاه و العزّ إذ من الله على رسوله ﷺ بأن أظهره على الدّين كلّّه و حبّبه في قلوب الخلق و هو المعني بالجاه ولكن المنقول في مدحهما قليل و المنقول في ذمّ المال والجاه كثير ، وحيث ذمّ الرّياء فهو ذمّ الجاه إذ الرّياء مقصوده اجتلاب القلوب ، و معنى الجاه ملك القلوب ، و إنّما كثر هذا و قلّ ذاك لأنّ الناس أكثرهم جهال بطريق الرّقية لحيّة المال ، و طريق الغوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسمّ المال قبل الوصول إلى ترياقه و يهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة

(٢) التغابن : ١٥ .

(١) التغابن : ١٤ .

(٣) الاختصاص ٢ في النهج أبواب الحكم تحت رقم ٨١ « قيمة كل امرء ما

يحسن » فقط و كذا في تحف العقول ص ٢٠١ .

إلى كلٍّ أحد لما تصوّر أن ينضاف إلى النبوة الملك كما كان لرسولنا ﷺ ولا أن ينضاف إليهما الغنى كما كان لسليمان ﷺ ، فالناس كلهم صبيان والأموال حيّات والأنبياء ﷺ والعارفون معزّمون ، وقد يضرّ الصبيّ ما لا يضرّ المعزّم ، نعم المعزّم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حياة وعلم أنّه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحياة إذا رآها ليلعب بها فيهلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد ، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضرّ به ضرراً كثيراً ولو أخذها لأخذها الصبيّ ويعظم ضرره بهلاكه ، فواجب عليه أن يهرب عن الحياة إذا رآها ، ويشير على الصبيّ بالهرب ويقبّح صورتها في عينه ويعرفه أنّ فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منه أحد ولا يحدثه أصلاً بما فيها من نفع الترياق ، فإنّ ذلك ربما يغرّمه فيقدم عليه من غير تمام المعرفة ، وكذلك الغوّاص إذا علم أنّه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتبّعه وهلك فواجب عليه أن يحذّر الصبيّ ساحل البحر والنهر ، فإن كان لا ينجز الصبيّ بمجرّد الزجر مهما رأى أباه يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبيّ فلا يقرب منه بين يديه ، فكذلك الائمة في حجر الأنبياء ﷺ كالصبيان الأغبياء ، ولذلك قال ﷺ : « إنّما أنا لكم مثل الوالد لولده » (١) وقال ﷺ : « إنّكم تنهافتون في النار تنهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم » (٢) وحظّهم الأوفى في حفظ الأولادهم عن المهالك فإنّهم لم يبعثوا إلّا لذلك وليس لهم في المال حظّ إلّا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه فإنّ الاتفاق فيه الترياق وفي الإمساك السمّ ، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لما لوالوا إلى سمّ الإمساك ورغبوا عن ترياق

(١) أخرجه مسلم وقد تقدم .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس وقال مسلم « و مثل امتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت النواب والفراش يقمن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتنعون فيه » .

الاتفاق ، فلذلك قبّحت الأموال والمعنيّ به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها ، والتوسّع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذاتها ، فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفائض إلى الخيرات فليس بمنعوم وحقّ كلّ مسافر أن لا يحمل إلّا بقدر زاده في السفر إذا صمّم العزم على أن يختصّ بما يحمله فأما إذا سمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار ، وقوله عليه السلام : « ليكنّ بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » ^(١) معناه لا نفسكم خاصّة وإلا فقد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرّقها في موضعه ولا يمسك منها حبّة ، فإنّ النعم الدنياويّة مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ، ومرجوها بمخوفها ، ونفعها بضرّها ، فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيّاً داءها ومستخرجاً دواها ، ومن لا يقدر على ذلك فالبعد البعد ، والفرار الفرار عن مظانّ الأخطار فلا تعدل بالسلامة شيئاً في حقّ هؤلاء وهم الخلق كلّهم إلّا من عصمه الله تعالى وهدهد لطريقه .

فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقيّة الرّاجعة إلى الهداية والرّشد والتأييد والتسديد ؟ فاعلم أنّ التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، وهذا يشمل الخير والشرّ وما هو سعادة وما هو شقاوة ، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله وقدره كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل فخصّص بمن يميل إلى الباطل عن الحقّ وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتي فأكثر ما يجنى عليه اجتهد
فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلّا بها لأنّ داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتّى يظنّ الفساد صلاحاً فمن أين ينفعه مجرّد الإرادة فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلّا بعد الهداية ، ولذلك قال تعالى : « ربّنا الذي أعطى كلّ شيء خلقه

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم ج ٤ ص ٣١٧ مرّ حديث سلمان .

ثم هدى^(١) وقال تعالى : « ولولا فضل الله عليكم و رحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء »^(٢).

وقال ﷺ : « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى أي بهدايته فقيل : ولا أنت يا رسول الله . قال : ولا أنا »^(٣).

و للهداية ثلاث منازل :

الأولى : معرفة طريق الخير و الشرّ المشار إليه بقوله تعالى : « و هديناه النجدين »^(٤) و قد أنعم الله تعالى به على كافة عبادہ بعضه بالعقل و بعضه على لسان الرّسل و لذلك قال تعالى : « و أمّا ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى »^(٥) و أسباب الهدى هي الكتب و الرّسل و بصائر العقول و هي مبذولة و لا يمنع منها إلا الحسد و الكبر و حبّ الدّنيا و الأسباب التي تعمى القلوب و إن كانت لا تعمى الأبصار ، و من جملة المعصيات الالف و العادة و حبّ استصحابها و عنه العبارة بقوله تعالى : « إنّنا وجدنا آباءنا على أمة »^(٦) و عن الكبر و الحسد العبارة بقوله تعالى : « و قالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »^(٧) و قوله تعالى : « أبشراً منّا واحداً نتبعه »^(٨) ، فهذه المعصيات هي التي منعت الاهتداء ، و الهداية الثانية و راء هذه الهداية العامة و هي التي يمدّ الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال و هي ثمرة المجاهدة حيث قال : « و الذين جاهدوا فإنا لنهدينهم سبلنا »^(٩) و هو المراد بقوله تعالى : « و الذين اهتدوا زادهم هدى »^(١٠) ، و الهداية الثالثة و راء الثانية و هي النور الذي يشرق في عالم النبوة و الولاية بعد كمال المجاهدة فيهندي بها إلى ما لا يهندي إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف و إمكان تعلّم العلوم به و هو الهدى المطلق و ما عداه حجاب له و مقدّمات و هو الذي شرّفه الله

(١) طه : ٥٠ .

(٢) النور : ٢١ .

(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٣٨ .

(٤) البلد : ١٠ .

(٥) فصلت : ١٧ .

(٦) الزخرف : ٢١ .

(٧) الزخرف : ٣١ .

(٨) القمر : ٢٤ .

(٩) العنكبوت : ٦٩ .

(١٠) محمد : ١٧ .

تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته فقال تعالى : « قل إن هدى الله هو الهدى » ^(١) وهو المسمى حياة في قوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس » ^(٢) وبقوله : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » ^(٣) .

وأما الرشد فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتقره عما فيه فساد ، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » ^(٤) فالرشد عبارة عن هداية باعته إلى جهة السعادة محرّكة إليها ، فالصبي إذا بلغ خبيراً يحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك مبذّر ولا يريد الاستنماء لا يسمي رشيداً ، لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته ، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أُعطي الهداية وميّر بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد ، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة .

وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليستند في صوب الصواب في أسرع وقت ، فإن الهداية بمجرد ما لا تكفي ، بل لابد من هداية محرّكة للدّاعية وهي الرشد والرشد لا يكفي بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الدّاعية إليه ، فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الدّاعية لتستيقظ وتحرك والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد ، وأما التأييد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وبقوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله تعالى : « إذ أيدتك بروح القدس » ^(٥) وتقرب منه العصمة وهي عبارة عن

(١) البقرة : ١٢٠ .

(٢) الانعام : ١٢٢ .

(٣) الزمر : ٢٢ .

(٤) الانبياء : ٥١ .

(٥) البقرة : ١١٠ .

وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحرّي الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس وإيّا عنى بقوله تعالى : « ولقد هممت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » (١) فهذه هي مجامع النعم ولن تثبت إلا بما يخولّه الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع المراعي والمعلم الناصح ، والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته ، القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته ، والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء ويستدعي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسباباً وتستدعي تلك الأسباب أسباباً إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك ربُّ الأرباب ومسبّب الأسباب ، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاها فلنذكر منها أنموذجاً ليعلم به معنى قوله تعالى : « وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » (٢) .

❖ (بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله) ❖
❖ (وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء) ❖

إعلم أننا جمعنا النعم في ستة عشر ضرباً وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخّرة ، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل ، ولا يخفى أن الأكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة فلا بد لها من جسم متحرك هو آلتها ولا بد لها من قعدة على الحركة ، ولا بد لها من إرادة للحركة ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ولا بد للأكل من مأكول ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ولا بد له من صانع يصلحه ، فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادة ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء .

الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك إعلم أن الله تعالى :

(١) يوسف : ٢٤ .

(٢) إبراهيم : ٣٤ .

خلق النبات وهو أكمل وجوداً من الحجر والمدد والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمي ولا تغذي فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض وهي له آلات بها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ثم تغلظ أصولها ، ثم تشعب ولا تزال تستدق وتشعب إلى عروق شعيرة تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالتنقل إليه ، والنبات عاجز عن ذلك ، فمن نعمة الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى ترتيب حكمة الله في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مسستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه ، وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا يتصور حيوان إلا وأن يكون له هذا الحس لأنه إن لم يحس أصلاً فليس بحيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ويماسه فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لاحالة ، وهذا الحس موجود لكل حيوان حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب كالنبات فإن النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصاً كالدودة ولا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يماس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية فتحتاج أن تطوف كثيراً من الجوانب ، فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدواً لا حجاب بينك وبينه وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره

وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ولأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحسّ السمع فاشتدت إليه حاجتك فأحدث فيك ذلك وميّزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يقينك لو لم يكن لك حسّ الذوق إذ يصل الغذاء إليك ، فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب في أصلها كل ما يع ولا ذوق لها فتجذبه ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم كل ذلك ما كان يكفيك لو لم يخلق في مقدّم دماغك إدراك آخر يسمى حساً مشتركاً يتأدّى إليه هذه المحسوسات الخمس ويجتمع فيه ولولاه لطلال الأمر عليك فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مرّ مضرّ ما لم تذوقه ثانياً لولا الحسّ المشترك ، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، فكيف تمتنع عنه ، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً حتى إذا أدركت الصفرة حكم بأنّه مرّ فيمتنع عن تناوله ثانياً وهذا كلّ ما يشارك فيه الحيوانات إذ للشاة هذه الحواسّ كلّها ، فلولم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصاً فإنّ البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف يتخلص إذا قيّدت وقد تلقي نفسها في البئر ولا تدري أنّ ذلك يهلكها ، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرّها في ثاني الحال فتمرض وتموت إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر ، فأما إدراك العواقب فلا ، فميّزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من الكلّ وهو العقل فبه تدرك مضرّة الأطعمة ومنفعتّها وما يضرّ في الحال والمآل ، وبه تدرك كميّة طبع الأطعمة وتألّفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحّتك وهو أحسن فوائده العقل وأقلّ الحكم فيه ، بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عالمه وعند ذلك تنقلب فائدة الحواسّ الخمس في حقّك فتكون الحواسّ الخمس كالجواسيس وأصحاب

الأخبار الموكّلين بنواحي المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تخصّه فواحدة منها بأخبار الألوان والأخرى بأخبار الأصوات والأخرى بأخبار الروائح والأخرى بأخبار الطعوم والأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحسّ المشترك ، والحسّ المشترك قاعد في مقدّمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي محتومة فيسلمها إذ ليس له إلّا أخذها وجمعها وحفظها فأما معرفة حقائق ما فيها فليس إليه ولكن إذا صادق القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم الأنّهات إليه محتومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود وهي الأعضاء مرّة في الطلب ومرّة في الهرب ومرّة في إتمام التدبيرات التي تعنّ له فهذه سياقة نعمة الله تعالى عليك في الإدراكات ولا تظنّ أنّنا استوفيناها ، فإنّ الحواسّ الظاهرة هي بعض الإدراكات والبصر واحد من جملة الحواسّ ، والعين آلة واحدة له وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الأغشية كأنّها نسج العنكبوت ، وبعضها كالمشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنّها بياض البيض وبعضها كأنّه الحمد ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلّت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات تلك الطبقة لاختلّ البصر وعجز الأطباء والكحّالون عنه فهذا في حسّ واحد فقس به حاسة السمع وسائر الحواسّ بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمته في جسم البصر وطبقاته في مجلّدات كثيرة مع أنّ جللته لا تزيد على قدر جوزة صغيرة ، فما ظنّك بجميع حواسّ البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الإدراكات : اعلم أنّه لو خلق لك البصر

حتى تدرك به الغذاء من بعد و لم يخلق لك ميل في الطبع و شوق إليه و شهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلاً فكم من مريض يرى الطعام و هو أنفع الأشياء له و قد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر و الإدراك معطلاً في حقه فاضطرت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك تسمى شهوة و نغرة مما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة و تهرب بالكراهة فخلق الله فيك شهوة الطعام و سلطها عليك و وكلها بك كالمتناقضي الذي يضطرك إلى التناول حتى تتناول و تغتذي فتبقى بالغذاء و هذا مما يشاركك فيه الحيوان دون النبات ، ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت و أهلكك تنسك فخلق الله تعالى لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، لا كالزّرع فإنه لا يزال يجتنب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فتحتاج إلى آدمي يقدّر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرةً و يقطع عنه الماء أخرى ، و كما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الوقاع حتى تجامع فيبقى به نسلك و لو قصصنا عليك عجائب صنع الله في خلق الرّحم و خلق دم الحيض و تأليف الجنين من النطفة و دم الحيض و كيفية خلق الانثيين و العروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة و كيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق و كيفية انقسام مقعر الرّحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور و تقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث و كيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظماً و لحماً و دماً و كيفية قسمة أجزائها إلى رأس و رجل و بطن و ظهر و يد و سائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله عليك في مبدأ خلقك كلّ العجب فضلاً مما تراه الآن ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل و حده كيلا يطول الكلام . فإن شهوة الطعام أحد ضروريات الإبدات وذلك لا يكفيك فإنه تأنيك المهلكات من الجوانب ، فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يصادك و لا يوافقك لبقيت عرضة للآفات و لا أخذ منك كل ما حصّله من الغذاء ، فإن كل أحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه و مقاتلته و هي داعية الغضب ، ثم لا يكفيك هذا إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا

إلى ما يضره وينفع في الحال أما في المآل فلا تكفي فيه هذه الإرادة فخلق لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعرف للعواقب كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلاً تضرّك لا تغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة وهذه الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد سمينا هذه الإرادة باعناً دينياً وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا .

الطرف الثالث : في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة : إعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب أو الهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد منه مدرك له لكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفالج أو خدد فيهما ، فلا بد من آلات للحركة و قدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حررتها بمقتضى الشهوة طلباً وبمقتضى الكراهة هرباً فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للإنسان والجنح للطير والقوائم للدواب ، ومنها ما هو للدفع كاليد للإنسان والقرن للحيوان ، وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافاً كثيراً فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه ، فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ، ومنها ما خلق له أربع قوائم ، ومنها ماله رجلان ، ومنها ما يدب و ذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها ، فنقول رؤيتك الطعام من بُعد وحررتك إليه لا تكفي ما لم تأخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأنعم الله عليك بخلق اليدين وهما طويلتان فتمدّان إلى الأشياء و مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتدّ و تنثنى إليها فلا تكون كخشبة منصوبة ، ثم جعل رأس اليد عريضاً بخلق الكف ، ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صفتين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة

أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرطك فوضعها وضعاً إن بسطتها كانت لك مجرفة وأن ضممتها وثبتتها كانت لك مغرفة وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإذا نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ، ثم خلق لها أظفاراً وأسند إليها رؤوس الأصابع حتى لا تنفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارك ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكمة الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتححتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللّجين من عظمين وركب فيها الأسنان وطبق الأضراس من العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحناً ، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ، ثم يحتاج إلى الطحن بعد ذلك ، فقسّم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس ، وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ، ثم جعل مفصل اللّجين متخلخلاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرّحى ولولاه لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلاً وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللّحي الأسفل متحرّكاً حرّكة دورية واللّحي الأعلى ثابتاً لا يتحرّك ، فانظر إلى عجب صنع الله فإن كلّ رحى تكون صنعة الخلق فيثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذه الرّحى التي صنعها الله إذ يدور منها الأسفل على الأعلى ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ، ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرّك الطعام إلى ما تحت الأسنان أو كيف تستجرّه الأسنان إلى نفسها ، وكيف يتصرّف اليد في داخل الفم فانظر كيف أنعم الله تعالى عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرّحى هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق التي لساننا نطلب بذكورها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته

وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة ، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يمنع به الطعام ، وانظر كيف سخرها لهذا الأمر فإنك ترى الطعام من بعيد فيثور الحنك للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم يحتاج هذا الطعام المطحون المنعجن إلى من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا في المعدة يد حتى تمتد فتجذب الطعام ، فانظر كيف هيأ الله تعالى المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ، ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوى إلى المعدة في دهليز المريء ، فإذا ورد الطعام على المعدة فهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير عظماً ولحماً ودماً على هذه الهيئة بل لابد أن يطبخ طبخاً تاماً يتشابه أجزاءه ، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قيدر فيقع فيها الطعام فتحثوي عليه وتغلق عليه الأبواب فلا يزال لابتناً فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبيها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ومن قدام الثرب ^(١) ، ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للتغذؤ في تجاويف العروق ، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته وهو بعد لا يصلح للتغذية ، فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة ^(٢) حتى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد والكبد معجون من طينة الدّم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعريّة منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولي عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدّم فيستقر فيها ريشما يحصل له نضج آخر ^(٣) ويحصل له هيئة الدّم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء ، إلا أن حرارة

(١) الثرب - بالثاء المثناة - : الشحم الرقيق الذي يمشى الكرش والامعاء . وفي

بعض نسخ الاحياء مكان الثرب [الترامب] .

(٢) الفوهة من الوادى والطريق وجبل النار : فيها ، جمعها فوهات .

(٣) الريث - بالفتح الراء - : المهلة من الزمان وريشما يحصل أى مقدار ما يحصل .

الكبد هي التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فصلتان كما يتولد من جميع ما يطبخ إحداهما شبيهة بالدردي والعكر^(١) ، وهي الخلط السوداوي والاخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء ، ولو لم يفضل عليها هاتان الفضلتان فسد مزاج الأعضاء ، فخلق الله المرارة و الطحال وجعل لكل واحد منهما عنقاً ممدوداً في الكبد داخلاً في تجويفه فتجنب المرارة الفضلة الصفراوية و يجنب الطحال العكر السوداوي ، فيبقى الدم صافياً ليس فيه إلا زيادة رقة و رطوبة لما فيه من المائية و لو لاهما لما انتشرت في تلك العروق الشعرية ، و لا خرجت منها متصاعدة إلى الأعضاء فخلق الله تعالى الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقاً ممدوداً طويلاً إلى الكبد ، ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلاً في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدة الكبد حتى يجنب مائيتها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد إذ لو اجتنب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق ، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافياً من الفضلات الثلاث نقياً من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقاً ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساماً و قسم كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من القرن إلى القدم ظاهراً وباطناً فيجري الدم الصافي فيها و يصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المتقسمة شعرية كعروق الأوراق في الأشجار بحيث لا تدرك بالابصار فيصل منها الغذاء بالشع إلى سائر الأجزاء ، ولو حلت بالمرارة آفة فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان و البثور والحمرة^(٢) ، إن حل بالطحال آفة فلم يجنب الخلط السوداوي حدثت الأمراض السوداوية كالبهق و الجذام والماليخوليا وغيرها ، وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ، ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم حيث رتب منافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة أمّا المرارة فإنها تجذب بأحد

(١) العكر دردي التريت .

(٢) البثور بتقديم الموحدة على المثلية : خراج صفار ، والحمرة داء يعبر موضعه

وهي الورم الصفراوى المحض فارسيته « سرخ باد » .

عنقها وتقذف بالعنق الأخرى إلى الأمعاء ليحصل له في ثقل الطعام رطوبة مزلفة ويحدث في الأمعاء لدغ يحركها للدفع فتضغط حتى يندفع الثقل وينزلق وتكون صفرته لذلك ، وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها في كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبئها ويشيرها ويخرج الباقي مع الثقل ، وأما الكلية فإنها تغتذي بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ، ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعمة الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل ، ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من الأعضاء الرئيسة إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواري في القلب إلى سائر البدن والتي بواسطتها يصل الروح وكيفية انشعاب الأعصاب من الدماغ إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركيب الأعضاء ، وعدد عظامها وعضلاتها وعروقه وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام ، وكل ذلك يحتاج إليه للأكل ولأشياء أخرى سواء بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ ، وكثرة الانقسام وقوته ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشرة وزيادة ، وكل ذلك نعمة من الله عليك ، لو سكن من جعلتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يامسكين ، فانظر إلى نعمة الله أولاً لتقوى بها على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله إلا الأكل وهي أحسنها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل والحمد أيضاً يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجائع ويستريح فيقمص ويرمح^(١) ، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعم الله عليك وهذا القدر الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله تعالى فقط ، فقس على الإجمال ما

(١) قمى الفرس وغيره : رفع يديه معاً وطرحهما معاً ، وهجن برجليه ، والبير :

وثب و نفر . رمحه الفرس والعمار والبغل اذا ضرب به برجليه .

أهملائه من جملة ما عرفناه حذراً من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله أقلّ من قطرة من بحار إلّأنّ من علم شيئاً من هذا أدرك شمة عن معاني قوله تعالى : « وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » (١) ثمّ انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء و قوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلط الأربعة ومستقره القلب ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الصوارب فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلّا ويحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حسّ وإدراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلّا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت وهو من خلق الله تعالى واختراعه ولكنّه جعل السراج سبباً له بحكمته وهذا البخار اللطيف هو الذي تسمّيه الأطباء الرّوح ومحلّه القلب ، ومثاله جرم نار السراج ، والقلب له كالمسرجة ، والدّم الأسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة ، والغذاء له كالزّيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالنّور للسراج في جملة البيت ، وكما أنّ السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الرّوح أيضاً ينطفئ. مهما انقطع غذاؤه وكما أنّ الفتيلة قد تحترق وتصبح رماداً بحيث لا يقبل الزّيت فينطفئ السراج مع كثرة الزيت وكذلك الدّم الذي تشبّث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفراط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء فإنّه لا يقبل الغذاء الذي يبقى الرّوح به كما لا يقبل الرّماد الزّيت قبولاً تشبّث النّارية ، وكما أنّ السراج تارة تنطفئ بسبب من داخل كما ذكرنا وتارة بسبب من خارج كهبوب ريح أو إطفاء إنسان فكذلك انطفاء الرّوح تارة يكون بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أنّ انطفاء السراج بفناء الزّيت أو فساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلّا بأسباب مقدّرة في علم الله مرتّبة ، ويكون كلّ ذلك بقدر فكذلك انطفاء الرّوح وكما أنّ انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أمّ الكتاب فكذلك انطفاء الرّوح وكما أنّ السراج

إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله و فارقه أنواره التي كان يستفيد بها من الروح وهي أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة ، فهذا أيضاً رمزٌ وجيزٌ إلى عالم آخر من عوالم نعمة الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته فتعسأ لمن كفر بالله تعساً وسحقاً لمن كفر نعمته سحقاً^(١) فإن قلت : فقد وصفت الروح ومثلته و رسول الله ﷺ سئل عن الروح فلم يزد على أن قال : « الروح من أمر ربي » فلم لم يصفه على هذا الوجه ؟ فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لانطوّل بذكرها ونحن إنما وصفنا من جملتها جسماً لطيفاً تسميه الأطباء روحاً وقد عرفوا صفته وجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدّة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدّة فيها ويعالجونها بما يفتح السدّة فإن هذا الجسم بلطفه يتقدّ في شبك العصب وبواسطته يتأدّى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقي إليه معرفة الأطباء فأمره نازل سهل ، وأمّا الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد بها سائر الجسد ، فذلك سرٌّ من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصه في وصفه إلا أن يقال : هو أمر رباني كما قال تعالى : « قل الروح من أمر ربي »^(٢) والامور الربانية لم يحتمل العقول وصفها بل تتحيّر فيها عقول أكثر الخلق ، وأمّا الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتزلزل في ذكر مبادي وصفها معاقدة العقول المقيّدة بالجواهر والعرض المحبوسة في مضيقها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية ونسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً ، فكما يدرك الصبي المحسوسات

(١) التمس : الهلاك . والسحق - بالضم و بضمتين - : البعد .

(٢) الاسراء : ٨٥ .

على الأراضى في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجاً فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي ، و نعم الله تعالى في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن احصاؤها وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان فانظر كيف سخّر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخرة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه إحدى حكيم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه و يصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ، وكذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر والكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة ، حتى أن الشجرة الصغيرة إذا أظلمت شجرة كبيرة تفسد وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له في الليل فتقلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفواكه أيضاً ، ولا تطول فيما لا مطمع في استقصائه بل نقول : كل كوكب في السماء فقد سخّر لنوع فائدة كما سخّرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب ، فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تنفي قوة البشر بإحصائها ولو لم تكن كذلك لكان خلقها عبثاً وباطلاً ولم يصحّ قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعين » ^(١) وقوله تعالى : ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ^(٢) وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة ، والعالم كلّهُ كشخص واحد وآحاد أجسامه كالأعضاء له ، وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك ، وشرح ذلك يطول . ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخّرات بأمر الله تعالى في الأمور جعلت أسباباً لها بحكم الحكمة مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم

بل المنهي عنه في النجوم أمران أحدهما أن يصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر ، والثاني تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك في دركها كافة الخلق لأنهم يقولون ذلك عن جهل ، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق منه إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ ، فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات والحيوان ليس بقادح في الدين بل هو الحق ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين ، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك : أخرج الثوب أبسطه فإن الشمس قد طلعت وحمى الهواء ، لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال : قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه ، وقس بهذا سائر الآثار إلا أن آثار بعضها معلومة وآثار بعضها مجهول فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر فإن الكواكب ما خلقت عبثاً بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولقد نظر رسول الله ﷺ إلى السماء وقرأ قوله تعالى : « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » ثم قال : ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ،^(١) ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السماوات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك بما يعرفه البهائم أيضاً فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته فلله في ملكوت السماوات والأرض والآفاق والأنفس والحيوانات والنباتات عجائب يطلب معرفتها المحبتون لله فإن من أحب عالماً لم

(١) قال العراقي : أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس بلفظ « ولم يتفكر فيها » وفيه

أبو جناب يحيى بن أبي حبة ضعيف .

يزل مشعوقاً بطلب تصانيفه^(١) فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له فكذلك الأمر في عجائب صنع الله فإن العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنّفين من تصنيفه الذي صنّفه بواسطة قلوب العباد ، فإن تعجّبت من تصنيف فلا تتعجّب من المصنّف بل من الذي سخر المصنّف لتأليفه بما أنعم عليه من هدايته و تسديده وتعريفه ، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حرّكات موزونة متناسبة فلا تتعجّب من اللّعب فإنّها خرق محرّكة لا متحرّكة ولكن تتعجّب من حنق المشعوذ المحرّك لها بروابط دقيقة خفيّة عن الأبصار فإن المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركزها فيها ، ولا يتم الأفلاك إلا بحركاتها ، ولا يتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيهاً بما ذكرناه على ما أهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

الطرف الخامس : في نعمة الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك : إعلم أن هذه الأطعمة كلّها لا توجد في كلّ مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة وتحول بينهم وبينها البحار والبراري ، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشراء الرّبح مع أنهم لا يغيثهم شيء في غالب الأمر ، بل يجمعون فأما أن تغرق بهم السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتون في بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشدّ أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتّى يقاسوا الشدائد في طلب الرّبح ويركبوا الأخطار ويفرّوا بالأرواح في ركوب البحار فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك ، وانظر كيف علّمهم الله صناعة السفن وكيفية الرّكوب فيها ، وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والرّكوب في البراري

(١) شغف حبه - بالغين المحبة - : وشغفه حبه - بالعين المهملة - كلاماً بمعنى ، أى شغى الحب شغاف قلبه .

وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الخيل كيف أُيِّدت بسرعة الحركة ، وإلى الحماد كيف جعل صبوراً على التعب ، وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوي المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش ، وانظر كيف سيرهم الله بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما يحتاج إليه السفن وقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدِّ الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز .

الطرف السادس في إصلاح الأطعمة : إعلم أن الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم^(١) ويؤكل وهو كذلك بل لابد في كل واحد من إصلاح بطبخ وتركيب وتنظيف بالقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور آخر لا تحصي واستقصاء ذلك في كل طعام طويل فلنعيّن رغيفاً واحداً ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البند في الأرض فأول ما يحتاج إليه الحراثات ليزرع ويصلح الأرض ، ثم الثور الذي تثير به الأرض والقدان^(٢) وجميع أسبابه ، ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدّة ثم تنقية الأرض من الحشيش ، ثم الحصاد ، ثم الفكّ والتنقية ، ثم الطحن ، ثم العجن ، ثم الخبز ، فتأمل عدده هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره و عدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصنّاع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجّار وحدّاد وغيرهما ، وانظر إلى حاجة الحدّاد إلى الحديد والرصاص والنحاس ، وانظر كيف خلق الله الجبال والأحجار والمعادن وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ، فإن فتشت علمت أن رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك - يا مسكين - ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدئ من الملك الذي يزجي السحاب

(١) قضم - كسح - : أكل بأطراف أسنانه ، أو أكل يابساً

(٢) الفدان - بتخفيف الدال و تشديدها - : الثوران يقرن بينهما للحرث .

لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى ينتهي النوبة إلى عمل الإنسان فاذا استدار فقد عمل عليه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع صناعته أصل من أصول الصنائع التي بها يتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات حتى أن الإبرة التي هي آلة صغيرة و فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لاتكتمل صورتها من حديد تصلح للإبرة حتى تمر على يدي الإبري خمساً وعشرين مرة يتعاطى في كل مرة منها عملاً ، فلولم يجمع الله البلاد ولم يستخر العباد و افتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلاً بعد نباته لنقد محرك وعجزت عنه ، أفلا ترى كيف هدى الله عبد الذي خلقه من نقطة قدزة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة ، فانظر إلى المقراض مثلاً وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة ولو لم يكشف الله طريق اتخاذه بفضل وكرمه لمن قبلنا و افتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر و إلى تحصيل الآلات التي يعمل بها المقراض و عمر الواحد منها عمر نوح و أوتي أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة و حذرها فضلاً عن غيرها ، فسبحان من ألحق ذوي الأبصار بالعميان و سبحان من منع التبين مع هذا البيان فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحآن مثلاً أو عن الحداد أو عن الحجّام الذي عمله أخس الأعمال أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصنّاع ما ذا يصيبك من الأذى و كيف يضطرب عليك أمورك كلها فسبحان من سخّر بعض العباد لبعض حتى تغتني به مشيئته و تمت به كلمته و ثبتت به حكمته و لنوجز القول في هذه الطبقة أيضاً فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

الطرف السابع في إصلاح المصلحين : إعلم أن هؤلاء الصنّاع المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم و تنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش لتبددوا و تباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد ، فانظر كيف ألّف الله بين قلوبهم و سلط الأُنس و المحبة عليهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّف بين قلوبهم ولكن الله ألّف بين قلوبهم ، فلاجل الألفة و تعارف الأرواح

اجتمعوا واثتلفوا و بنوا المدن والبلاد و رتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ، و رتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول احصاؤه ، ثم هذه المحبة نزول بأغراض يتزاحمون عليها و يتنافسون فيها ففي جبلّة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة و ذلك مما يؤدّي إلى التقاتل والتنافر ، فانظر كيف سلط الله عزّ وجلّ السلاطين و أمدهم بالقوّة والعدّة و الأسباب ، و ألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً و كرهاً ، و كيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح العباد حتى رتبوا أحزاء البلد كأنّها أجزاء شخص واحد يتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها ببعض ، فرتّبوا الرؤساء والقضاة والشحن و زعماء الأسواق واضطروا الخلق إلى قانون العدل و ألزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحدّاد ينتفع بالقصاب و الخبّاز و سائر أهل البلد و كلّهم ينتفعون بالحدّاد ، و صار الحجّام ينتفع بالحرّاث و الحرّاث بالحجّام و ينتفع كلّ واحد بكلّ واحد بسبب ترتبهم و اجتماعهم و انضباطهم تحت ترتيب السلطان و جمعه كما يتعاون أعضاء البدن و ينتفع بعضها ببعض ، و انظر كيف بعث الأنبياء حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق و قوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة و أحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلاً عمّا أرشدوهم إليه من إصلاح الدّين و انظر كيف أصلح الله الأنبياء بالملائكة ، و كيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن تنتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه و بين الله ، فالخبّاز يخبز العجين ، و الطحّان يطحن الحبّ ، و الحرّاث يصلحه بالحصاد ، و الحدّاد يصلح آلات الحراثة ، و النجار يصلح آلات الحدّاد ، و كذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة والسلاطين يصلحون الصنّاع ، والعلماء يصلحون السلاطين ، و الأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم ، و الملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الرّبوبيّة التي هي ينبوع كلّ نظام و مطلع كلّ حسن و جمال و منشأ كلّ ترتيب و تأليف و كلّ ذلك نعم من ربّ الأرباب و مسبّب الأسباب ولولا فضله و كرمه إذ قال تعالى : « والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

سبلنا» ^(١) لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ، ولولا عزله إيتانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنهه نعمه لتشوقنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ولكنه عزلنا بحكم القهر والقدر فقال : « وإن تغدوا نعمة الله لا تحصوها » ^(٢) فإن تكلمنا فبأذنه انبسطنا وإن سكتنا فبقهره انقبضنا إذ لا معطي لما منع ، ولا مانع لما أعطى ، لأننا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار « لمن الملك اليوم الله الواحد القهار » فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة : ليس بخفي عليك ما سبق من نعمة الله في الملائكة باصلاح الأنبياء و هدايتهم وتبليغ الوحي إليهم ولا تظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر ، بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات ، الملائكة الأرضية ، والسمائية ، وحلة العرش ، فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما ، واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يغتذي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هم أقل الأعداد إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك ، وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء قد تلف وذلك الغذاء يصير دماً في آخر الأمر ثم يصير لحماً وعظماً وإذا صار عظماً تم اغتذاؤك ، و الدم واللحم أجسام ليس لها قدرة و معرفة و اختيار ، فهي لا تنحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ثم عجينة ثم خبزاً مستديراً مطبوخاً إلا بصناع ، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً و عرقاً وعصباً إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله عليكم نعمه ظاهرة و باطنة ، فلا ينبغي أن يغفل عن نعمه الباطنة .

فأقول : لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم فإن الغذاء

لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ، ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق ، ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل من حاجة الغذاء ، ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلاً ، ولا بد من سابع يرعى المقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته ، فإنه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته ، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجنان مع رقبتها ، وإلى الحديقة مع صفائها ، وإلى الأفخاذ مع غلظها ، وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة ، وربما بعض المواضع وضعف البعض ، بل لولم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيم فساق إلى رأس الصبي سائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا أنه لم يسق إلى إحدى الرجلين مثلاً لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصاً في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة ، فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفعولة إلى ملك من الملائكة ، ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإن محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولاخبر لك منهم ، وكذلك في كل جزء من أجزاءك التي لا تتجزئ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز والملائكة الأرضية مدداهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جميعهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيم القدوس المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت ، الحي الذي لا يموت جبار السماوات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، والأخبار الواردة في الملائكة

الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى على كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد بها .

فإن قلت : فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد و لم افتقر إلى سبعة أملاك والحظنة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولاً ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثاً ، ثم إلى من يعجن رابعاً ، ثم إلى من يقطعها كرات مدورة خامساً ، ثم إلى من يرقها رغفاناً عريضة سادساً ، ثم إلى من يلصقها بالتنوير سابعاً ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به مرة بعد أخرى فهلا كانت أعمال الملائكة باطناً كأعمال الإنس ظاهراً فاعلم أن خلقه الملائكة تخالف خلقه الإنس وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وما منا إلا له مقام معلوم » ^(١) فلذلك ليس بينهم تنافس و تقاتل ، بل مثالهم في تعيين مرتبة كل واحد وقعله عليه مثال الحواس الخمس فإن البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ، ولا الشم يزاحمهما ولاهما يزاحمان الشم وليس كاليد والرجل ، فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشاً ضعيفاً فتزاحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالأإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز فإن هذا نوع من الإعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ولذلك ترى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته ، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ، والراكع منهم راکع أبداً والساجد منهم ساجد أبداً والقائم قائم أبداً لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور و لكل واحد مقام معلوم لا يتعداه

وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجنان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلاً بإشارتك فهذا يشبه به من وجه ولكن يخالفه من وجه إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركات فتناً وانطباقاً، والملائكة أحياء عالمون بما يفعلون ، فإن هذه هي نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسمائية وحاجتك إليهما في عرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها فإنها لم تطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف أحادها يدخل تحت مجامع الطبقات ؟ فإن قد أسبغ الله عليك نعمه ظاهرة وباطنة ثم قال : « وذكروا ظاهر الإثم وباطنه » ^(١) فترك باطن الإثم بما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدة وإضرار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة ، بل أقول : كل من عصى الله ولو في طرفه واحدة بأن فتح جفنه مثلاً حيث يجب غض الصر فقد كفر نعمة الله تعالى عليه في السماوات والأرض وما بينهما ، فإن كل ما خلقه الله حتى الملائكة والسماوات والأرض والحيوان والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وإن انتفع به غيره أيضاً فإن الله تعالى في كل طريقة بالجفن نعمتين في نفس الجفن إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعرات سود ونعمة الله في سوادها أنها تجمع ضوء العين إذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله في ترتيبها صفواً واحداً أن يكون مانعاً للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومتشبيهاً للأقذاء التي تتناثر في الهواء وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين تقويم نصبها وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل ، وهو أن غبار الهواء قد يمنع من

فتح العين فلو أطبق لم يبصر بها فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب فينظر من وراء شباك فيكون شباك الشعر مانعاً من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الأجفان حادة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرأة فيطبقها موة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجفان ، والذبات لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدان فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار ، وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب فلعلنا نستأنف له كتاباً مقصوداً فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى .

فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر بغير ذات محرم قد كفر بفتح العين بمعصيته نعمة الله تعالى في الأجفان ولا يقوم الأجفان إلا بعين ، ولا العين إلا برأس ولا الرأس إلا بجميع البدن ولا البدن إلا بالغذاء ، ولا الغذاء إلا بالماء ، والأرض والهواء والمطر والغييم والشمس والقمر ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ولا السموات إلا بالملائكة ، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض ، فإن قد كفر كل نعمة الله في الوجود من منتهى الثرى إلى منتهى الثرى ، فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد إلا ولا يلغنه ولذلك ورد في الأخبار « أن البقعة التي يجتمع فيها الناس ، إما أن تلغنها إذا تفرقوا أو تستغفر لهم » ^(١) وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر ، ^(٢) و « أن الملائكة يلعنون العصاة » ^(٣) في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع ما في

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

(٢) تقدم في المجلد الأول كتاب العلم .

(٣) روى مسلم من حديث أبي هريرة « الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بعددته وإن كان أخاه لاييه و أمه » .

المملك والمملوكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيبدل
 اللعن بالاستغفار فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه . وأوحى الله إلى أيوب عليه السلام :
 ما عبد لي من الأدميين إلا ومعه ملكان فإذا شكرني على نعمائي قال الملكان : اللهم
 زده نعماً على نعم فإنك أهل الحمد والشكر فكان من الشاكرين قريباً ، فكفى
 بالشاكرين علو رتبة عندي إنني أشكر شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع
 تحبهم والآثار تبكي عليهم . وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم
 أن في كل نفس ينسبط ويتقبض نعمتين إذ بانيساطه يخرج الدخان المحترق من
 القلب ولولم يخرج لهلك ، وبانتقاضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سد متنفسه
 لانتقطع قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك ، بل اليوم واللييلة أربع
 وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات
 فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك بل في كل جزء
 من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام
 حقيقة قوله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » قال : إلهي كيف أشكره ولك
 في كل شعرة من جسدي نعمتان أن ليئت أصلها وأن طميت رأسها^(١) ، ولذلك ورد في
 الأثر : من لم يعرف نعمة الله عز وجل إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر
 عذابه . وجميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ماسوا من النعم به
 فإن البصير لا يقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق
 أن الله تعالى فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع في غير مطعم .

❦ (بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر) ❦

إعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة فإنهم صرفوا
 بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ثم إنهم إن
 عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقولوا بلسانهم الحمد لله الشكر لله ولم يعرفوا

(١) طمى التبت : طال و ارتفع .

أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله تعالى فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان ، أما الغفلة عن النعم فلها أسباب ، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق و يسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبدولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً به فلا يعدّه نعمة فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بشر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غمماً ، فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجاه منه ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليه وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر من النعمة في بعضها ، فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلى أن تعمى عينه فعند ذلك لو أعيد عليه أحس به وشكره و عدّه نعمة ، ولما كانت رحمة الله واسعة وعمم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعدّه الجاهلون نعمة ، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائماً حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلّد ذلك منّة ، فإن ترك ضربه على الدوام غلب عليه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة و القلّة ، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم .

كما حكى أن بعضهم شكّا فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له : أيسرّك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال : أيسرّك أنك أخرس ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، فقال : أيسرّك أن تكون أقطع اليدين والرّجلين ولك عشرون ألفاً ؟ قال : لا ، قال : أيسرّك أن تكون مجنوناً ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، فقال : أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً . و حكى أن بعض القرّاء اشتدّ به الفقر حتى ضاق به ذرعاً فرأى في المنام كأنّ قائلاً يقول له : تودّ أنّا أنسيناك سورة الأنعام وأنّ لك ألف دينار ؟ قال :

لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، فعدّ عليه سوراً ، ثم قال : فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سُري عنه .
 ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وفي يده كوز ماء يشربه فقال له : عظمي ، فقال : لولم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه ؟ قال : نعم ، فقال : ولولم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه ؟ قال : نعم ، قال : فلا تفرح بملك لا يسوي شربة ماء ، فبهذا تبين أن نعمة الله على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، وإذ كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة .

ف نقول : ما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصّه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحدٌ و ذلك يعترف به كلُّ عبد في ثلاثة أمور : في العقل والخلق والعلم ، أمّا العقل فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل : ما يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتّصف به فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقّه فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنه في حقّه كالباقين ، وأمّا الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرها وأخلاقاً ينمّنها ، وإنما ينمّنها من حيث أنه يرى نفسه بريئاً عنها وإلا لم يشتغل بنمّ الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله إذا حسن خلقه وابتلي غيره بالخلق السيئ ، وأمّا العلم فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو متفرد به ولو كشف الغطاء حتّى اطلع عليه أحدٌ من الخلق لا فتضح فكيف لو اطلع الناس كافة فإذا لكلّ عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحدٌ من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي

أرسله على وجه مساويه ، فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الخلق وخصّص علمه به حتى لا يطلع عليها أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إماماً مطلقاً وإماماً في بعض الأمور ، فلتنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلاً ، فنقول : ما من عبد إلا وقد رزقه الله في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزّه أو جاهه أو في سائر محابه الأمور لو سلب ذلك منه و أعطى ما خصّص به غيره لكان لا يرضى به و ذلك مثل أن جعل مؤمناً لا كافراً ، و حياً لا جماداً ، و إنساناً لا بهيمة ، و ذكراً لا أنثى ، و صحيحاً لا مريضاً ، و سليماً لا معيباً ، فإن هذه كلها خصائص و إن كان فيها عموم أيضاً فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض به ، بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضاً و ذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به إلا أكثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإن حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلاً عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص فإن الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقلّ بالإضافة إلى غيرهم فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير ممن هو فوقه فما باله ينظر إلى من هو فوقه ليزدري نعم الله على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله تعالى عليه وما باله لا يسوي دنياه بدينه أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارنها يعتد إليها بأن في الفساق كثرة فينظر أبدأ في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك فاذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيراً منه و حاله في الدنيا خيراً من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر .

ولهذا قال عليه السلام : « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه و نظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابراً شاكراً ، و من نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً » ^(١) فإن كل من اعتبر حال نفسه

(١) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٣١٧ بسند حسن غريب من حديث عبد الله بن عمرو .

وفتش عما خص به وجد الله تعالى على نفسه نعماً كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ، ولذلك قال عليه السلام : « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » ^(١) وهذا إشارة إلى نعمة العلم ، وقال عليه السلام : « إن القرآن هو الغنى الذي لا غنى بعده ولا فقر معه » ^(٢) وقال عليه السلام : « من آتاه الله القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله » ^(٣) . وقال عليه السلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ^(٤) وقال : « كفى باليقين غنى » ^(٥) .

وقال بعض السلف : يقول الله تعالى : إن عبداً أعنيته من ثلاثة لقد أنعمت عليه نعمتي : عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما في يد أخيه ، وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن ✽ وأصبحت أخاحزن فلا فارقك الحزن
بل أرقش العبارات وأصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر
والله أعلم عن هذا المعنى فقال : « من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها » ^(٦) ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلى النعيم

(١) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ ، أقول : وفي السنن البيهقي ج ٢ ص ٥٤ و ج ١٠ ص ١٢٩ و سنن الدارمي ج ٢ ص ٤٧١ هكذا « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال ابن عينة « يستغني » .

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده ومحمد بن نصر عن أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير (٣) أخرجه البغاري من حديث وجاء الفئوي بلفظ « من آتاه الله القرآن حفظ كتابه و ظن أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد صغر أعظم النعم » و قد تقدم في فضل القرآن . (٤) تقدم آنفاً عن البيهقي والدارمي .

(٥) أخرجه الطبراني من حديث عقبة بن عامر و رواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفاً (المعنى)

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤١ و قد تقدم .

المقيم و الملك العظيم ، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة و اليقين و الايمان ، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب من أموال و أتباع و أنصار و قيل له : خذ هذا عوضاً عن علمك بل عن عشر عشر علمك لم يأخذه و ذلك لرجائه أن نعمة العلم تعضي به إلى قرب الله سبحانه و تعالى في الآخرة بل لو قيل له : لك في الآخرة ما ترجوه بكماله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلاً عن التذاك بالعلم في الدنيا و فرحك به لكن لا يأخذه لعلمه بأن لذّة العلم دائمة لا تنقطع ، وثابتة لا تسرق و لا تنصب و لا تنافس فيها و أنها صافية لا كدورة فيها ، و لذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بمخوفها و لا لذتها بألمها و لا فرحها بغمها هكذا رأيي إلى الآن ، وهكذا تكون في ما بقي من الزمان إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة و تخدع حتى إذا انخدعت و تقيدت بها أبت عليها و استعصت كالمرأة الجميلة تظاهرها تتزين للشباب الشبق الغني حتى إذا تقيدت بها قلبه استعصت عليه و احتجبت عنه فلا يزال معها في عناه دائم و تعب قائم ، و كل ذلك لا غتراره بلذّة النظر إليها في لحظة و او عقل و غض البصر و استهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقوع أرباب الدنيا في شباك الدنيا و حبائلها فلا ينبغي أن نقول : إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فإن المقبل أيضاً عليها متألم بالصبر عليها و حفظها و تحصيلها و دفع اللصوص عنها و تألم المعرض يفضي إلى لذّة في الآخرة و تألم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة فليقره المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون و ترجون من الله ما لا يرجون »^(١) فإن إنما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة و الباطنة و الخاصة و العامة .

فإن قلت : فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله فحسبها تشكر ؟ فأقول : أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة و أما القلوب البليدة التي لا تعدّ النعمة نعمة إلا إذا خصته أو أشعر بالبلاء معها

فسبيله أن ينظر أبداً إلى من دونه و يفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته و سلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض و يشكر الله تعالى ، يشاهد الجنة الذين يقتلون و تقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات و يشكر الله على نعمة الأمن ، ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً أما من عصى الله فليتدارك و أما من أطاع فليزد في طاعته فإن يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غنبي إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات ، وأما العاصي فغيبه ظاهر فإذا شاهد المقابر و علم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله في بقية العمر بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس ، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله و هو التزود من الدنيا للآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة الغليظة لتشعر بنعم الله فحسبها تشكر ، و لقد كان ربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيذاً للمعرفة فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غلاً على عنقه و ينام في لحدته ثم يقول : رب ارجعون لعلمي أعمل صالحاً ثم يقوم ويقول : يا ربيع قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد ، و مما ينبغي أن تعالجه القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل يقول : عليكم بمداومة الشكر على النعم فقل ذمة زالت عن قوم فعادت إليهم . و قال بعض السلف : النعم وحشية فقيّدوها بالشكر . وفي الخبر « ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال » (١) وقال الله سبحانه : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما

(١) أخرجه ابن عسّى في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ ←

بأنفسهم « (١) فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث : من كتاب الصبر و الشكر فيما يشترك فيه الصبر و الشكر ويرتبط أحدهما بالآخر .

﴿ بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد ﴾

لعلك تقول : ما ذكرته من النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً فما معنى الصبر إذن و إن كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء ؟ وقد ادعى مدعون أننا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء ؟ وكيف يشكر على ما نصبر عليه و الصبر على البلاء يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً وهما متضادان ؟ وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده ؟ فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان ففقد البلاء نعمة و فقد النعمة بلاء و قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه إما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى وإما في الدنيا فكالايمان وحسن الخلق وما يعين عليهما ، و إلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد ، أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبداً وإما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تقضي إلى البلاء المطلق ، وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا يكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة ، وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية ، بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي ، نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون

« الا عظمت مؤونة الناس عليه فمن لا يحتمل تلك المؤونة - العبد - » وهكذا أخرجه البيهقي في الشعب من عائشة عن معاذ كما في الجامع الصغير والمغنى .

(١) الرعد : ١١ .

كمن به علة و هو لا يتألم بها بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه و العاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية بل كلُّ بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم و إنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته ، فإذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلهذا يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر و الشكر فإن الغني مثلاً يجوز أن يصير سبباً لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل و تقتل أولاده ، والصحة أيضاً كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنياوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه ، وكذلك ما من بلاء إلا و يجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فرب عبد يكون الخيرة له في الفقر و المرض ، ولو صحَّ بدنه و كثر ماله لبطر و طغى و بغى ، قال الله تعالى : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » ^(١) و قال تعالى : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » ^(٢) و قال ﷺ : « إن الله ليحبي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما يحبي أحدكم مريضه » ^(٣) و كذلك الزوجة و الولد و القريب و كل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان و حسن الخلق فإنها يتصور أن يكون بلاء في حق بعض الناس فيكون أضدادها إذن نعماً في حقهم إذ قد سبق أن المعرفة كمال و نعمة فإنها صفة من صفات الله تعالى ، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء و يكون فقدتها نعمة ، مثاله جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنقص عليه العيش و طال بذلك غمه ، و كذلك جهله بما يضره الناس عليه من معارفه و أقاربه نعمة عليه إذ لو رفع السر و اطلع عليه لطال ألمه و حقه و حسده و اشتغاله بالانتقام ، و كذلك جهله بالصفات المنعومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه و آذاه و كان ذلك وبلاً عليه في الدنيا و الآخرة ، بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه ، فإنه ربما يكون ولياً لله و هو

(١) الشورى : ٢٧ . (٢) العلق : ٦ و ٧ .

(٣) أخرجه الترمذي و حسنه و الحاكم ج ٤ ص ٣٠٩ نحوه و صححه و قد تقدم .

يضطرُّ إلى إيذائه وإهانته ولو عرف ذلك وأذى كان إثمُه أعظم لاحتالة فليس من آذى نبياً أو ولياً وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف ، ومنها إبهام الله أمر القيامة وإبهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وإبهامه بعض الكبائر فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوقر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا : إن الله في كل موجود نعمة فهو حق ، وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضاً قد تكون نعمة في حق غير المتألم بها وإن لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به ، وألم الكفار في النار فهي أيضاً نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم لأن مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المنتعمون قدر نعمه ولا أكثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار ، أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث أنها عامة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها ، فاذن قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة ، إما على جميع عباده أو على بعضهم ، فاذن في خلق الله البلاء أيضاً نعمة إما على المبتلى وإما على غير المبتلى ، فاذن كل حالة لا يوصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيقتان الصبر والشكر جميعاً ، فإن قلت : فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح ؟ فاعلم أن الشيء الواحد قد يفتن به من وجه ويفرح به من وجه آخر ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح ، وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها : أحدها أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهي فلو ضعفتها الله وزادها ما ذا كان يردّه ويحجزه فليشكر إذ لم

يكن أعظم منها في الدنيا . الثاني أنه كان يمكن أن يكون مصيبته في دينه ، قال رجلٌ
 لسهل : دخل اللص بيتي وأخذ متاعى فقال : أشكر الله لودخل الشيطان قلبك وأفسد
 التوحيد ما ذا كنت تصنع ؟ . ولذلك استعاذ عيسى على نبينا وعليه السلام في دعائه
 إذ قال : « اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني » وقال بعض الصحابة : ما ابتليت ببلاء إلا
 كان الله تعالى عليّ فيه أربع نعم إذ لم يكن في ديني و إذ لم يكن أعظم منه و إذ
 لم أحرم الرضا به و إذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه
 السلطان فأرسل إليه فقال له : اشكر الله ، فضربه فقال : اشكر الله فجيء بمحبوس
 مجوسي مبطون و قيّد وجعل حلقة من قيده على رجله وحلقة على رجل المجوسي
 فأرسل إليه فقال : اشكر الله ، فكان يحتاج المجوسي أن يقوم مرّات وهو يحتاج إلى أن
 يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضي حاجته فكتب إليه بذلك فقال : اشكر الله
 تعالى ، فقال : إلى متى هذا وأيّ بلاء أعظم من هذا ؟ فقال : لو جعل الزّ نار الذي
 في وسطه على وسطك ما ذا كنت تصنع ؟ فاذن ما من إنسان قد أصيب ببلاء إلا و لو
 تأمل حق التأمل في سويدائه ^(١) ظاهراً وباطناً في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق
 أكثر ممّا أصيب به عاجلاً وآجلاً ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقنصر
 على عشرة فهو مستحق للشكر ومن استحق أن يقطع يديك فترك إحديهما فهو مستحق
 للشكر ، و لذلك مرّ بعض الشيوخ في شارع فصبّ على رأسه طست من رماد فسجد
 لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له : ما هذه السجدة ؟ فقال : كنت أنتظر أن يصبّ
 عليّ النار فلاقتصار على الرّ مادّ نعمة . و قيل لبعضهم : ألا تخرج للاستسقاء فقد
 احتبست الأمطار فقال : أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطي الحجر .

فإن قلت : كيف أفرح و أرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي و لم
 يصابوا بما أصبت به حتى الكفار ؟ فاعلم أن الكافر قد خبي له ما هو أكثر و إنما
 أمهل حتى يستكثر من الإثم و يطول عليه العقاب كما قال تعالى : « إنّما نملي لهم
 ليزدادوا إثماً » ^(٢) وأمّا العاصي فمن أين يعلم أن في العالم من هو أعصى منك ،

(١) في الاحياء « سوء ادبه » . (٢) آل عمران : ١٧٨ .

و ربّ خاطر بسوء أدب في حقّ الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزّناء وسائر المعاصي بالجوارح ، ولذلك قال تعالى في مثله « تحسبونه هيئاً وهو عند الله عظيم » ^(١) فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثمّ لعلّه قد أخبرت عقوبته إلى الآخرة وعجلت عقوبتك في الدّنيا فلم لا تشكر الله على ذلك ؟ وهذا هو الوجه الثالث في الشكر وهو أنّه ما من عقوبة إلّا و كان يتصور أن تؤخّر إلى الآخرة ومصائب الدّنيا يتسلّى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخفّ وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلّي إذ أسباب التسلّي مقطوعة بالكلّيّة في الآخرة عن اللعذّبين ومن عجلت عقوبته في الدّنيا فلا يعاقب ثانياً إذ قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابته شدة أو بلاء في الدّنيا فالله أكرم من أن يعذّب به ثانياً » ^(٢).

أقول : وهذا المعنى مرويّ من طريق الخاصّة أيضاً بغير واحد من الاسناد ^(٣). قال : الرابع أن هذه المصيبة والبليّة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بدّ من وصولها إليه وقد وصلت و وقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة . الخامس أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدّنيا طرق إلى الآخرة من وجهين . أحدهما الوجه الذي به يكون الدّواء الكريه نعمة في حقّ المريض ويكون المنع من أسباب اللّعب نعمة في حقّ الصبيّ فإنّه لو خلّي واللّعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب فكان يحزن جميع عمره ، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتّى العين التي هي أعزّ الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان في بعض الأحوال بل العقل الذي هو أعزّ الأمور قد يكون سبباً لهلاكه فالملاحدة غداً يتمنون لو كانوا مجانين و صبياناً و لم يتصرّفوا بعقولهم في دين الله ، فإما من

(١) النور : ١٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٦٠٤ من حديث عليّ رضي الله عنه هكذا « من أصاب في الدنيا ذنباً فموجب به فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده ، و من أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه » .

(٣) راجع الكافي ج ٢ ص ٤٤٤ باب تمجيد عقوبة الذنب .

شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه ، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغداً يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثواب الله على البلاء كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب ، والبلاء تأديب من الله تعالى وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد فقد روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : أوصني فقال : « لا تشتم الله في شيء قضاء عليك » ^(١) ونظر ﷺ إلى السماء فضحك فسل فقال : « عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسراء رضي وكان خيراً له وإن قضى له بالضراء رضي وكان خيراً له » ^(٢) .

والوجه الثاني رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجاني بالقلب عن دار الغرور ، ومؤاتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها حتى تصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت الدنيا سجنًا عليه وكان نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » ^(٣) والكافر كل من أعرض عن الله ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضي بها وطمأن إليها والمؤمن كل منقلع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين إلى الخروج منها ، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي ، وبقدر حب الدنيا في القلب سرى فيه الشرك الخفي بل الموحد المطلق هو الذي لا يجب إلا الواحد الحق ، فإذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به ، وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى

- (١) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٣١٩ من حديث عبادة بن صامت بزيادة في أوله وفي إسناده عبدالله ابن لهيعة وهو صدوق إلا أنه خلط بعد احتراق كتبه .
- (٢) أخرجه البغوي ج ٢ ص ١٧٩ من حديث صهيب بسند صحيح .
- (٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١١٣ وغيره في كتاب الزهد .

الحجامة بمن يتولى حجامتك مجاناً أو يسقيك دواءً نافعاً بشعاً وهو مجاناً فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكلُّ بلاءٍ في الأمور الدنيوية مثاله مثال الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل ، بل من دخل دار ملك للنظارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأى وجهاً حسناً لا يقدر على أن يخرج معه من الدار كان ذلك بلاءً عليه لأنه يورثه الأُنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ، ولو كان عليه في المقام خطرٌ من أن يطلع عليه الملك فيعذِّبه فأصابه ما يكره حتى تفره عن المقام كان ذلك نعمةً عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرُّحم وهم خارجون عنها إلى باب اللُّحد ، فكلُّ ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاءٌ وكلُّ ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلاء ، ومن لم يعرف هذه النعمة في البلاء لم يتصوّر منه الشكر لأنَّ الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ، ومن لا يؤمن بأنَّ ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصوّر منه الشكر على المصيبة .

وحكي أن أعرابياً عزى ابن عباس على أبيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين فإنما ☆ صبر الرعية بعد صبر الرأس
خيرٌ من العباس أجرك بعده ☆ و الله خيرٌ منك للعباس

فقال ابن عباس : ما عزاني أحدٌ أحسن من تعزيتي والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يصبر منه » ^(١) وقال ﷺ : « قال الله تعالى : إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً » ^(٢) وقال ﷺ : « ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله : « إنا لله وإنا إليه راجعون » اللهم أجرني في مصيبتى وأعقبني خيراً منها

(١) أخرجه البخاري ج ٧ ص ١٤٩ كتاب الطب ح ٥ .

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير باب

إلا فعل الله ذلك به ،^(١)

و قال ﷺ : « من سلبته كريمتيه فجزاؤه الخلود في داري و النظر إلى وجهي »^(٢) وروي أن رجلاً قال : يا رسول الله ذهب مالي و سقم جسمي فقال النبي ﷺ : « لا خير في عبد لا ينهب ماله و لا يسقم جسده إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه و إذا ابتلاه صبره »^(٣) و قال ﷺ : « إن الرجل ليجعل له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك »^(٤) وعن خباب الأرت قال : أتينا رسول الله ﷺ : و هو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا : يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا فجلس محمراً لونه ، ثم قال : « إن في من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض خفيرة و يجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه »^(٥) و عن علي ﷺ قال : « أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فهو شهيد و إن ضربه فمات فهو شهيد » و قال ﷺ : « من إجلال الله و معرفة حقه أن لا تشكو و جعك و لا تذكر مصيبتك » .

و قال أبو الدرداء : تولدون للموت و تعمرون للخراب ، و تحرصون على ما يفنى ، و تندرون ما يبقى ، ألا حببنا المكروهات الثلاث الفقر و المرض و الموت .
و عن : رسول الله ﷺ^(٦) « إذا أراد الله بعبده خيراً و أراد أن يصابه صب عليه البلاء صباً و شجّه عليه شجاً ، فإذا دعاه قالت الملائكة : صوت معروف و إن

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٢٨ من حديث أم سلمة .

(٢) روى نحوه البخاري و أحمد من حديث أنس و قد تقدم و أيضاً أبو نعيم في الحلية والطبراني في الكبير عن عرياض كلهم بسند صحيح كما في الجامع الصغير .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري باسناد فيه لين كما في الفنى .

(٤) أخرجه أبوداود ج ٢ ص ١٦٢ بأدنى اختلاف في اللفظ .

(٥) أخرجه أحمد و البخاري و أبوداود والنسائي و قد تقدم .

(٦) قال المراقى : رواه الاصفهاني في الترفيب و الترهيب عن بكر بن خنيس عن ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشي عن أنس و بكر و ضرار و يزيد كلهم ضعيف .

دعاه ثانياً فقال : يا ربّ قال الله تعالى : لبّيك عبدي وسعديك لا تسألني شيئاً إلا أعطيتك أو رفعت عنك ما هو خير وأدّخرت لك عندي ما هو أفضل منه فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوفقوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتي بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصبّ عليهم الأجر صبّاً ، كما كان يصبّ عليهم البلاء صبّاً فيودّ أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما ينهب به أهل البلاء من الثواب فذلك قوله تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ^(١) وعن ابن عباس قال : شكّا نبيّ من الأنبياء إلى ربّه فقال : يا ربّ العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترى على معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه أن العباد لي والبلاء لي وكلّ يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب كأمثال الجبال فأزوي عنه الدنيا وأعرضه للبلاء فيكون كفارة لذنوبه حتّى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتّى يلقاني فأجزيه بسيئاته .

وروي أنّه لما نزل قوله تعالى : « من يعمل سوءً يجزيه » ^(٢) قيل : كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله ﷺ للقائل : « ألسنت تمرض ؟ أليس يصيبك الأذى ؟ أليس تحزن ؟ فهذا ما تجزون به » ^(٣) يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنّه قال : « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحبّ وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ، ثم قرأ قوله تعالى : « فلمّا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء » ^(٤) يعني لما تركوا ما أمروا

(١) الزمر : ١٠ . (٢) النساء : ١٢٣ .

(٣) راجع الدر المنثور ج ٢ ص ٢٢٦ رواه عن جماعة .

(٤) أخرجه أحمد ج ٤ ص ١٤٥ والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب . والاية

في سورة الانعام : ٤٤

به فتحنا عليهم أبواب الخيرات حتى إذا فرحوا بما أوتوا أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة . وقيل : إن رجلاً من الصحابة رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال ﷺ : « إذا أراد الله بعبده خيراً أعجل له عقوبة ذنبه في الدنيا » (١) وقال علي ﷺ : « ألا أخبركم بأرحى آية في كتاب الله قالوا : بلى فقرأ عليهم « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعدّ به ثانياً وإن عفى عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعدّ به يوم القيامة » .

وعن النبي ﷺ : أنه قال : « ما تجرّع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردّها بحلم ، و جرعة مصيبة يصبر الرجل لها ، ولا قطرت قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم اهريقته في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة فريضة و خطوة إلى صلة الرحم » (٢) .

و عن أبي الدرداء أنه قال : توفي ابن لسليمان بن داود عليه السلام فوجد عليه وجداً شديداً ، فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زيّ الخصوم فقال أحدهما : بذت بذناً فلماً استحصد مرّ به هذا فأفسده ، فقال للآخر : ما تقول ؟ فقال : أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يميناً وشمالاً فإذا الطريق عليه فقال سليمان عليه السلام :

(١) أخرجه الترمذى والحاكم من حديث أنس والطبرانى والحاكم أيضاً والبيهقى في الشعب من حديث عبداً بن مفضل كما في الجامع الصغير والفتى .

(٢) قال العراقى : أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الاخلاق من حديث علي عليه السلام دون ذكر الجرعتين ، وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكى منكر الحديث و روى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد « ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاه وجه الله » . و روى الديلمى في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة « ما قطرت في الارض قطرة أحب الى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل » الحديث وفيه أيضاً محمد بن صدقة وهو الفدكى منكر الحديث كما مر .

و لم يندرت على الطريق أما علمت أن لا بد للناس من الطريق قال : فلم تحزن على ولدك أما علمت أن الموت سبيل الآخرة فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولده بعد ذلك ، ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض فقال : يا بني لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك ، فقال : يا أبت لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب .

و عن ابن عباس رضي الله عنه أنه نعت إليه ابنة له فاسترجع و قال : عورة سترها الله ومؤونة كفاها الله و أجر قد ساقه الله ، ثم نزل فصلي ركعتين ، ثم قال : قد صنعنا ما أمر الله تعالى قال الله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة - الآية - » (١) . و عن ابن المبارك أنه مات ابن له فعزاه مجوسي فقال له ، ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام فقال ابن المبارك : اكتبوها عنه . و قال بعض العلماء : إن الله تعالى ليبنتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الأرض و ما له ذنب ، و قال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرُّجل أهله بالخير . و قال حاتم الأصم : إن الله عز وجل يحتج على الخلق يوم القيامة بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بعيسى و على العبيد بيوسف و على المرضى بأيوب صلوات الله عليهم ، و روي أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل و اختفى في الشجرة فعرفوا ذلك فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا فأن أنه فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لئن سعدت منك أنه ثانية لأحونك من ديوان النبوة ، فعرض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع بشرتين .

و قال لقمان لابنه : يا بني إن الذهب يجرب بالنار و العبد الصالح يجرب بالبلاء و إذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا و من سخط فله السخط . و قال أحنف بن قيس : أصبحت يوماً أشتكى ضرسى فقلت لعمي : ما نمت البارحة من وجع الضرس - حتى قلتها ثلاثاً - فقال : لقد أكثرت من شكوى ضرسك

في ليلة واحدة قد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد. وأوحى الله تعالى إلى عزيزي ﷺ إذا نزلت بك بليّة فلا تشكني إلى خلقي واشك إلي كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا سعدت إلي مساويك وفضائحك (*) .

✽ (بيان فضل النعمة على البلاء) ✽

لعلك تقول : إن هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله تعالى البلاء ، فأقول : لا وجه لذلك لما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ^(١) و كان يقول هو والأنبيا ﷺ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ^(٢) ، وكانوا يستعيزون من شماتة الأعداء وغيره ^(٣) .

وقال علي ﷺ : « اللهم إني أسألك الصبر فقال ﷺ : لقد سألت الله البلاء فأسأله العافية » ^(٤) .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « سلوا الله العافية فما أعطى عبداً أفضل من العافية إلا اليقين » ^(٥) وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك

(*) دعوات الراوندي كما في مستدرك النوري ج ١ ص ٨١ .

(١) أخرج ابن حبان والحاكم وأحمد من حديث بسر بن أرطاة « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » كما في الجامع الصغير .
(٢) أخرج مسلم والبخاري من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « اللهم آتنا في الدنيا - الحديث » ولا يبي داود والنسائي من حديث هبة الله بن السائب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ما بين الركنين : « ربنا آتنا » الحديث .

(٣) أخرجه النسائي ج ٨ ص ٢٦٨ بغير واحد من الاسناد .

(٤) قال العراقي : أخرجه الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليه و إنما قال سبع رجلا . وله و للنسائي في اليوم والليلة من حديث علي ﷺ « كنت ساكناً فمر بي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أقول . الحديث » وفيه « فان كان بلاء فصبرني فضره برجليه » ، وقال : اللهم عافه واشفه » قال : حسن جيد .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٨٤٩ بنحوه و أخرجه النسائي و الترمذي أيضاً

راجع الترغيب للمندرج ج ٤ ص ٢٧٢ .

فعافية القلب أعلى من عافية البدن .

و قال مطرف بن عبدالله : لأن أعاني فأشكر أحب إلي من أن أبتلي فأصبر .
و قال عليه السلام في دعائه : « وعافيتك أحب إلي » ^(١) وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكبر منه إما في الدنيا أو في الدين والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن يسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته ، فإنه قادر على أن يعطي على الشكر ما [لا] يعطيه على الصبر ، فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسراً على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون و أكون أنا في النار . و قال سمنون :

و ليس لي في سواك حظ * فكيف ما شئت فاخترني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء ؟ فاعلم أنه حكى أن سمنون ابتلي بعد هذا البيب بعلّة الحصر فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعنكم الكذاب .

و أمّا محبة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكن ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه حباً لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر و من سكر توسع في الكلام و لو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة لها فما تسمعه من هذا الفن فهو كلام العشاق الذين أفرط حبهم و كلام العشاق يستلذّ سماعه ولا يعول عليه كما روي أن فاختة كان يرادها زوجها فتمنعه فقال : ما الذي يمنعك عني و لو أردت أن أقلب لك ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لأجلك فسمعه سليمان فاستدعاه و عاتبه فقال : يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال . و قول الشاعر :

أريد وصاله و يريد هجري * فأترك ما أريد لما يريد

(١) ذكره ابن هشام في السيرة في دعائه عليه السلام حين خروجه صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف .

هو أيضاً محالٌ ومعناه أنني أريد ما لا أريد لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذي لم يردّه بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين أحدهما أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضا الذي يتوصل به إلى مراد الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهماً في درهمين فهو لحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال . الثاني أن يصير رضا عنده مطلوباً من حيث إنه رضي فقط و يكون له لذة في استشعاره رضا محبوه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم في استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا ، فهؤلاء إذا قدروا رضا في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية ، وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت وإن ثبتت مثلاً فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه . وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

❖ بيان الأفضل من الصبر والشكر ❖

إعلم أن الناس اختلفوا في ذلك فقال قائلون : الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون : الشكر أفضل ، وقال آخرون هماسيان ، وقال آخرون : يختلف ذلك باختلاف الأحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى فنقول : في بيان ذلك مقامان :

الأول البيان على سبيل التساهل وهو أن ننظر إلى ظاهر الأمر ولا نطلب بالتفتيش تحقيقه وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمد الوعاظ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم ، والظن المشقة لا ينبغي أن تصلح

الصبي^١ الطفل بالطيور السّمان و ضروب الحلاوات بل باللّبن اللّطيف ، و عليها أن تؤخّر عنه أطائب الأّطعمة إلى أن يصير مجتملاً لها بقوّته و يفارق الضعف الّذي هو عليه في بنيته ، فنقول : هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل و مقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع و ذلك يقتضي تفضيل الصبر فإنّ الشكر و إن وردت أخبار في فضله فإنّ أضيف إلى ما ورد في فضيلة الصبر كان فضائل الصبر أكثر بل فيها ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله عَلَيْهِ السَّلَام : « من أفضل ما أوّ يتيم اليقين و عزيمة الصبر »^(١).

و في الحديث « يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض فيجزّيه الله جزاء الشاكرين و يؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول : نعم ربّ فيقول الله تعالى : كلّاً أنعمت عليه فشكر و ابتليتك فصبرت لأضعف لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين ، و قد قال الله تعالى : « إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »^(٢).

و أمّا قوله : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »^(٣) فهو دليل على الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنّه فهم من الشرع علوّ درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر و هو كقوله عَلَيْهِ السَّلَام « الجمعة حجّ المساكين »^(٤) « و جهاد المرأة حسن التبعّل »^(٥) و « شارب الخمر كعابد الوثن »^(٦) و أبدأ المشبه به ينبغي أن يكون

(١) تقدم غير مرة .

(٢) الزمر : ١٠ ، والخبر قال العراقي : لم أجد له أصلاً

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٧٦٤ والترمذي وحسنه عن أبي هريرة و قد تقدم .

(٤) أخرجه العرث بن أبي اسامة بلفظ المتن كما في كنوز الحقائق للسنّوى .

و أخرجه القضاى فى مسند الشهاب و ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس هكذا « الجمعة حجّ الفقراء » كما فى الجامع الصغير .

(٥) أخرجه الطبرانى كما فى كنوز الحقائق .

(٦) أخرجه العرث بن أبي اسامة من حديث عبدالله بن عمر بسند ضعيف و رواه

الطبرانى فى الاوسط وابن ماجه تحت رقم ٣٣٧٥ بلفظ « مد من الخمر » .

أعلى رتبة وكذلك قوله : « الصبر نصف الإيمان » ^(١) لا يدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام : « الصوم نصف الصبر » ^(٢) فإن كل ما ينقسم بقسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت كما يقال : الإيمان هو العلم والعمل ، فالعمل نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوي العلم ، وفي الخبر « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب صلوات الله عليه » ^(٣) وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الغني .

أقول : وفي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : « مروءة الصبر في حال الحاجة و الفاقة والتعفف و الغنى أكثر من مروءة الإعطاء » ^(٤).

قال أبو حامد : فهذا هو المقام الذي يقنع العوام و يكفيهم في الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

المقام الثاني هو البيان الذي يقصد به تعريف أهل العلم و الاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والإيضاح فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لا يمكن الموازنة بينهما مع الإبهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة و الجملة بل يجب أن تقرر الأحاد بالموازنة حتى يتبين الرُجحان ، والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرُجحان والتقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من ثلاثة أمور : علوم وأحوال وأعمال ، والشكر والصبر سائر المقامات هي كذلك ، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها البعض لاح للناظرين إلى الظواهر أن العلوم

(١) تقدم في الباب .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف كما في الجامع

الصغير بلفظ « الصيام » .

(٣) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٩٣ تحت رقم ٢٢ .

تراد للأحوال والأحوال تراد للأعمال ، فلاعمال هي الأفضل ، وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك فإن الأعمال تراد للأحوال و الأحوال تراد للعلوم ، فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لامحالة أفضل منه ، وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم المكشفة وهي أرفع من علوم المعاملة ، بل علوم المعاملة دون المعاملة فإنها تراد للمعاملة ففائدتها إصلاح العمل ، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر ، فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب و فائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله في ذاته وصفاته وأفعاله ، فأرفع علوم المكشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها فإنها إنما تراد لأجلها ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة وإما بوسائط كثيرة فكل ما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله أقل فهي أفضل ، وأما الأحوال فنعني بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق فإن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصل له علوم المكشفة ، وكما أن تصقيب المرأة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرأة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب ، فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لاحالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه ، وكل عمل فاما

أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه ، واسم الأول المعصية واسم الثاني الطاعة ، والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة ، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أننا بالقول المطلق ربما نقول : الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأن الحج أفضل من الصدقة ، وأن قيام الليل أفضل من غيره ، ولكن التحقيق فيه أن الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فأخرج درهم له أفضل من قيام ليالي وصيام أيام لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء الفكر في علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع ، فأما هذا المريد إذ لم يكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله اللائق به إلى حال غيره وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع فلا ينتفع به بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه ، والشح المطاع من جملة المهلكات ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة ، بل لا يزيله إلا إخراج المال فعليه أن يتصدق بما معه وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربيع المهلكات فليرجع إليه ، فإذن باعتبار هذه الأحوال يختلف تأثير الطاعات والمعاصي فكذلك درجاتها تختلف ، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ إذ لو قال لنا قائل : الخبز أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل والماء للعطشان ، فإن اجتمعا فليُنظر إلى الأغلب فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل فإن تساويا فهما متساويان ، وكذا إذا قيل السكنجين أفضل أم شراب النيلوفر لم يصح الجواب عنه مطلقاً أصلاً ، نعم لو قيل السكنجين أفضل أم عدم الصفراء ؟ فنقول : عدم الصفراء لأن السكنجين مراد له وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة ، فإذا في بذل المال عمل وهو الانفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ، وتهيئاً للقلب

بسبب خروج حب الدنيا من القلب لمعرفة الله وحبّه ، فالأفضل المعرفة ودونها الحال ودونها العمل .

فإن قلت : فقد حثّ الشرع على الأعمال وبالع في ذكر فضلها حتّى طلب الصدقات وقال : «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» ^(١) وقال : «ويأخذ الصدقات» ^(٢) فكيف لا يكون الفعل وهو الاتفاق أفضل ؟ فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدلّ ذلك على أن الدواء مراد لعينه أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلب ممّا لا يشعر به غالباً فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه فإنّه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدّق به فالسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلاً إن كان ماء الورد يزيل البرص حتّى يستحسّه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه ، فإنّه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلاً أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم أو القرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه و علم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظاً لقال : إنّه محفوظٌ معي ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة لأنّه يظنّ أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبداً ، وكان له عبيدٌ فأمر الولد بتعليم العبيد و وعده على ذلك بالجميل لتتوفّر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم ، فربّما يظنّ الصبيّ المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجلّ منهم وأعزّ عند الوالد ، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدد عليه دون تكليفي به وأعلم أنه لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلاً عن عدم علمهم بالقرآن ، فربّما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتماداً على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبراً محروماً من حيث لا يدري ، وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا : إن الله غني عن عبادتنا وعن أن يستقرض

منّا فأني معنى لقوله : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » و لو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » (١) و قالوا أيضاً : « لو شاء الله ما أشركنا و لا آباؤنا » (٢) فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم و كيف هلكوا بصدقهم فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق و إذا شاء أسعد بالجهل يضل به كثيراً و يهدي به كثيراً ، فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أولاً جل الله تعالى ثم قالوا : لاحظنا لنا في المساكين و لا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه و تأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا و الآخرة ، و إنما كان ذلك من الوالد تلطفاً به في استجراره إلى مافيه سعادته ، فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فاذن المسكين الآخذ لما لك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك ، فهو كالجحام يستخرج الدّم منك ليخرج بخروج الدّم العلة المهلكة من باطنك ، فالجحام خادم لك لا أنت خادم للجحام و لا يخرج الجحام عن كونه خادماً بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئاً بالدّم و لما كانت الصدقات مطهرة للبواطن و مركبة لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله ﷺ عن أخذها و انتهى عنها كما نهى عن كسب الجحام و سمّاها أوساخ أموال الناس و شرف أهل بيته بالصيانة عنها و المقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع المهلكات ، والقلب بحسب تأثيره يستعد لقبول الهداية و نور المعرفة فهذا هو القول الكلّي و القانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال و الأحوال و المعارف فلنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الشكر و الصبر فنقول : في كلّ واحد منهما معرفة و حال و عمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في

الآخر بل كل واحد بنظره حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل ، و مهما
 قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربّما رجعا إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة
 الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلاً من الله و معرفة الصابر أن يرى العمى من الله
 وهما معرفتان متلازمتان ومتساويتان هذا إن اعتبرتا في البلاء والمصائب وقد بينّا
 أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الشكر و الصبر لأن
 الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى
 إلى ما هو المقصود منها بالحكمة ، و الصبر يرجع إلى ثبات باعث الدّين في مقابلة
 باعث الهوى فالصبر و الشكر فيه اسمان لمسمّى واحد باعتبارين مختلفين فإثبات
 باعث الدّين في مقاومة باعث الهوى يسمّى صبراً بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمّى
 شكراً بالإضافة إلى باعث الدّين إذ باعث الدّين إنّما خلق لهذه الحكمة و هو
 أن يصرع به باعث الهوى فقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد
 فكيف يفضل الشيء على نفسه فإذن مجاري الصبر ثلاثة : الطاعة والمعصية و البلى
 وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية ، وأمّا البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إمّا أن
 تكون ضرورية كالعينين مثلاً وإمّا أن تقع في محل الحاجة كالزّيادة على قدر الكفاية
 من المال أمّا العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرّضا بقضاء الله
 و لا يترخّص بسبب العمى في بعض المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين
 أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية و الآخر أن يستعملهما ، في الطاعة وكل واحد
 من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لأنّه لا
 يراها ، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكراً للنعمة العينين وإن أتبع النظر
 كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره ، وكذلك إذا استعان بالعينين على الطاعة
 فلا بدّ فيه أيضاً من صبر على الطاعة ، ثمّ قد يشكرهما بالنظر إلى عجائب صنع الله
 ليتوصّل به إلى معرفة الله فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولو لا هذا لكانت رتبة
 شعيب عليه السلام مثلاً وقد كان ضريراً من بين الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره لأنّه
 صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر ولكن الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف

كلها ويترك كلحم على وضم ، و ذلك محالٌ جدًّا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدِّين فيفوت بفواتها ذلك الرُّكن من الدِّين وشكرها استعمالها فيما هي آلة فيه من الدِّين و ذلك لا يكون إلَّا بصبر ، وأمَّا ما يقع في محل الحاجة كالزِّيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلَّا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة و هو جهاد الفقراء و وجود الزِّيادة نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في المعصية ، فإن اُضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنَّه تضمن الصبر أيضاً وفيه فرح بنعمة الله وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التَّعَمُّع المباح وكان الحاصل يرجع إلى أن شَيْئَيْن أفضل من شيء واحد و أن الجملة أعلى رتبة من البعض وهذا فيه خلل إذ لا يصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها ، وأمَّا إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التَّعَمُّع المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر والفقر الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف إِيَّاه إلى المباحات لا من الغني الصارف ما له إلى الخيرات لأنَّ الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرِّضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي قوَّة لا محالة والغني أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنَّه اقتصر على المباح وفي المباح مندوحة عن الحرام ولكن لا بد من قوَّة في الصبر عن الحرام أيضاً إلَّا أن القوَّة التي عنها يصدد صبر الفقير أعلى وأتم من القوَّة التي عنها يصدر الاقتصاد في التَّعَمُّع على المباح والشرف لتلك القوَّة التي يدلُّ العمل عليها فإنَّ الأهمال لا تراد إلَّا لأحوال القلب وتلك القوَّة حالة للقلب تختلف بحسب قوَّة اليقين والإيمان فما دلَّ على زيادة قوَّة في الإيمان فهو أفضل لا محالة و جميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرُّتبة على الخصوص لأنَّ السابق إلى أفهام الناس من النعم والأموال والغنى بها والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لأنَّه يصرفها إلى الطاعة فإذا الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة ، ومهما لاحظت

المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجه في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكراً كما سبق ، ورب غني شاكراً أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن المحتاجين والمساكين وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولالتقليد منه بل أداه لحق الله تعالى في تقدي عبادته فهذا أفضل من الفقير الصابر .

فإن قلت : فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر فإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الاتقاق ، فاعلم أن الذي تراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينقعه وهو بخيل به ، وإنما يقطع عنه نفسه قهراً وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة ، فإيلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ، ولا يحتاج إليه في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذياً فإطلاق القول بأن الصبر أفضل من الشكر صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فأمّا إذا أردت التحقيق فالصواب التفصيل فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهة ، ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ، ووراءه الشكر على البلاء ، وهو وراء الرضا إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به ، وكذلك للشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور دونها فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكف ستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر ، وحسن التواضع بالنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر إذ قال ﷺ :

« من لم يشكر الناس لم يشكر الله »^(١) - وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة - وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكرٌ ، و تلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغیرها شكرٌ ، فما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار .

وقد روي عن بعضهم أنه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن فسألته عن حاله ، فقال : إنني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك تهواني فاتفق أنها زوجت مني فليلة زفافها قلت تعالي حتى نحیی هذه الليلة شكر الله على ما جمعنا ، فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه فلمّا كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلينا طول الليل فمئذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك يا فلانة ؟ فقالت العجوز : هو كما يقول الشيخ . فانظر إليهما لو صبرا على بلا الفرقة إن لم يجمع الله بينهما ما زاد صبر الفرقة على شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فإذن لا وقوف على حقائق المعضلات إلا بتفصيل كما سبق والله أعلم .

هذا آخر كتاب الصبر والشكر من ربع المنجيات من المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوه كتاب الخوف والرجاء إن شاء الله تعالى ، والله الحمد والمنّة والصلاة على خير البرية وآله .



(١) أخرجه أحمد والترمذي والضياء المقدسي من حديث أبي سعيد بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

كتاب الخوف والرجاء

و هو الكتاب الثالث من ربيع المنجيات من المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه ، والمخوف مكره و عقابه ، الذي يمر قلوب أوليائه بروح رجائه ، حتى ساقهم بلطائف آلائه ، إلى النزول بفنائيه ، والعدول عن دار بلائه ، التي هي مستقر أعدائه ، وصرف بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه و كرامته ، و صدّهم عن التعرّض لأُثمته و التهذؤ لسخطه و نقمته قوداً لأصناف الخلق بسلاسل القهر و العنف و أزمة الرفق و اللطف إلى جنّته .

و الصلاة على نبيّ سيّد أنبيائه و خير خليقته و على آله و أصحابه و عترته .
أما بعد فإنّ الرجاء و الخوف جناحان يطير بهما المقرّبون إلى كلّ مقام محمود و مطيّتان بهما يقطع من طرق الآخرة كلّ عقبة كؤود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن و روح الجنان ، مع كونه بعيد الأرجاء ، ثقیل الأعباء ، محفوفاً بمكاه القلوب و مشاقّ الجوارح و الأعضاء ، إلّا أزمة الرّجاء ، و لا يصدّ عن نار الجحيم و العذاب المقيم ، مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات و عجائب اللذات إلّا سياط التخويف ، و السطوات التعنيف . فلا بدّ إذن من بيان حقيقتيهما و فضيلتهما و سبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادّهما و تعاندهما و نحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد مشتمل على شطرين : الشطر الأوّل في الرّجاء و الشطر الثاني في الخوف ، أمّا الشطر الأوّل فيشتمل على بيان حقيقة الرّجاء و بيان فضيله الرّجاء ، و بيان دواء الرّجاء ، و الطريق الذي به يجتلب الرّجاء .

﴿بيان حقيقة الرجاء﴾

إِعلم أن الرَّجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وإِنما يسمَّى الوصف مقاماً إِذا ثبت وأقام ، وإِنما يسمَّى حالاً إِذا كان عارضاً سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم إِلى ثابتة كصفرة الذهب و إِلى سريعة الزوال كصفرة الوجل و إِلى ما هو بينهما كصفرة المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم إِلى هذه الأقسام فالَّذي هو غير ثابت يسمَّى حالاً لآنه يحول على القرب وهذا جار في كلِّ وصف من أوصاف القلب ، وغرضنا الآن حقيقة الرَّجاء فالرَّجاء أيضاً يتمُّ من علم و حال وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرَّجاء اسم للحال من جملة الثلاثة ، بيانه أن كلِّ ما يلاقيك من مكروه و محبوب وينقسم إِلى موجود في الحال و إِلى موجود فيما مضى و إِلى منتظر في الاستقبال فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمِّي ذكراً و تذكراً ، وإن كان ما خطر ببالك موجوداً في الحال سمِّي وجداً و ذوقاً و إدراكاً ، إِنما سمِّي وجداً لآنها حالة تجدها من نفسك ، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمِّي انتظاراً و توقّعاً ، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب يسمَّى خوفاً وإشفاقاً ، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره و تعلق القلب به و اخطار وجوده بالبال لذة في القلب و ارتياح يسمَّى ذلك الارتياح رجاء .

فالرَّجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بدَّ و أن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرَّجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور و الحمق عليه أصدق من اسم الرَّجاء ، و إن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لآنه انتظار من غير سبب ، وعلى كلِّ حال فلا يطلق اسم الرَّجاء و الخوف إلّا على ما يتردّد فيه أمّا ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع و أخاف غروبها وقت الغروب لأنَّ ذلك مقطوع به ، نعم يقال : أرجو نزول المطر و أخاف انقطاعه و قد علم أرباب

القلوب أن الدنيا مزهرة الآخرة و القلب كالأرض ، و الإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض ، وتطهيرها و مجرى حفر الأنهار ، و سياقة الماء إليها ، و القلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ، و يوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحدٌ إلا ما زرع ، ولا ينمو زرعٌ إلا من بذر الإيمان ، و قلما ينفع إيمان مع خبث القلب و سوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ، ثم نقي الأرض عن الشوك و الحشيش و كل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظراً من فضل الله دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع و يبلغ غايته سمي انتظاره رجاء ، و إن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها ماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ، ثم انتظر الحصاد منه سمي انتظاره حمقاً و غروراً لا رجاء ، و إن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار و لا يمنع أيضاً سمي انتظاره تمنياً لا رجاء ، فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع و المفسدات فالعبد إذا بث بذر الإيمان و سقاء بماء الطاعات و طهر القلب من شوك الأخلاق الرديّة و انتظر من فضل الله تثبيته على ذلك إلى الموت و حسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت ، و إن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق ، و انهمك في طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق و غرور ، قال **الشيخ** : « الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة » (١) . وقال تعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » (٢)

وقال : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ، ^(١) و ذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال : « ما أظن أن تبيد هذه أبداً » وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً » ^(٢).

أقول : روى في الكافي بإسناده عن الصادق عليه السلام قيل له : « إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون نرجوا فقال : كذبوا ليسوالنا بموال أولئك قوم ترجحت بهم الأماني من رجا شيئاً عمل له ومن خاف شيئاً هرب منه » ^(٣).
وعنه عليه السلام قال : « لا يكون مؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو » ^(٤).

و عن بعض الحكماء : من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه .
قال أبو حامد : فاذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي تحقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة ، وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوؤه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ومن يشتهي التوبة ويشتاق إليها فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهته للمعصية وحرصه على الطاعة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ، ولذلك قال الله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » ^(٥) ومعناه أولئك يستحقون أن يرجوا وما أريد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجوا ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء ، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله ولا يذم نفسه عليه

(١) الاعراف : ١٦٩ . (٢) الكهف : ٣٥ و ٣٦ .

(٣) المصدر : ج ٢ ص ٦٨ تحت رقم ٦ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٧١ تحت رقم ١١ .

(٥) البقرة : ٢١٨ .

ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حق كرجاء من بث البند في أرض سبخة عزم على أن لا يتعهد به سقي ولا تنقية .

قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندي التماذي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله عز وجل بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط ، فإذا عرفت حقيقة الرجاء ، ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان فإن من حسن بذر وطابت أرضه وعزر ماؤه صدق رجاءه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض و تعهدتها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدتها أصلاً إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاد اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء مغور وأن البند لا ينبت فيترك لأحالة تفقد الأرض والتعب في تعهدتها والرجاء محمود لأنه باعث واليأس منعم وهو ضده لأنه صارف عن العمل والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فإذا نال حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيف ما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله والتنعيم بمناجاته والتلطف في التعلق له . فإن هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك أو شخصاً من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى ، فإن كان ذلك لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل ويدل على أثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله ﷺ : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني شيء منه حزنت عليه وحننت

إليه فقال : هذه علامة الله فيمن يريد فلو أرادك بالأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت ، (٥) فقد ذكر ﷺ علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور .

❖ بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه ❖

إعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم إليه و الحب يغلب الرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما وقت الموت قال : « لا تقنطوا من رحمة الله » (١) فحرم أصل اليأس .

وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك : « إنني أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » لم خفت الذئب و لم ترجني ، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ !

وقال عليه السلام : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » (٢) وقال عليه السلام : يقول الله عز وجل : « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » (٣) . ودخل عليه السلام على رجل و هو في النزاع فقال : « كيف تجدك ؟ قال : أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال عليه السلام : ما اجتماعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف » (٤) .

وقال علي عليه السلام لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : « يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك » (٥) وعبر الله قوماً فقال : « وذلكم ظنكم الذي

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه أنه قال :

« أنت زيد الخير » . (١) الزمر : ٥٣ .

(٢) أخرجه مسلم وابن ماجه و أبو داود و أحمد من حديث جابر بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٢٤٠ من حديث واثلة بن الاسقع بسند حسن .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٦١ .

(٥) ما عثرت عليه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام نعم في خبر حميد بن قعدة المروي

في عيون أخبار الرضا عليه السلام نحوه .

ظننتم بربكم أريدكم» ^(١) وقال تعالى : « ظننتم ظنَّ السوء و كنتم قوماً بوراً » ^(٢) .
وقال ﷺ : « إنَّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : مامنك إذ رأيت المنكر
أن تنكره فإن لقنه الله حجته قال : يا رب رجوتك وخفت الناس ، قال : فيقول
الله تعالى : قد غفرت لك » ^(٣) .

وفي الخبر الصحيح « أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر ،
فلقي الله ولم يعمل خيراً قط فقال الله عز وجل : من أحقُّ بذلك منا فغفي عنه
بحسن ظنه و رجائه أنه يغفي عنه مع إفلاسه عن الطاعات » ^(٤) وقال الله تعالى :
« إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة و أنفقوا مما رزقناهم سراً و علانية
يرجون تجارة لن تبور » ^(٥) ولما قال ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً
ولبكيتم كثيراً و لخرجتم إلى الصدقات تلتمون صدوركم و تجأرون إلى ربكم
فهبط جبرئيل ﷺ فقال : إن ربك عز وجل يقول : لم تقنط عبادي ؟ فخرج
فرحاً و بشرهم » ^(٦) .

وفي الخبر « أن الله تعالى أوحى إلى داود ﷺ أحبني و أحبُّ من يحبني
و حببني إلى خلقي فقال : يا رب كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : اذكرني بالحسن
الجميل و اذكر آلائي وإحساني وذكّرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل .
و في الخبر أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال :
فيقول الله تعالى يوم القيامة : اليوم أو يسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها .
و قال ﷺ : « إن رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي : يا

(١) فصلت : ٢٣ . (٢) الفتح : ١٢ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٠١٧ من حديث أبي سعيد الخدري .

(٤) أخرجه مسلم ج ٥ ص ٣٢ من حديث حذيفة و قد تقدم . (٥) الفاطر : ٢٣ .

(٦) قال العراقي : أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة فأوله متفق

عليه من حديث أنس ورواه بزيادة « و لخرجتم إلى الصدقات » أحمد والحاكم و قد تقدم .

أقول : رواه الحاكم ج ٤ ص ٥٧٩ من حديث أبي ذر والبغوي في المصابيح ج ٢ ص ١٨١ .

حَنَانٍ يَا مَنْانَ فيقول الله تعالى لجبرئيل : اذهب فأنتني بعبدِي قال : فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول الله : كيف وجدت مكانك ؟ فقال : شرٌّ مكان ، قال : فيقول : ردُّوه إلى مكانه ، قال فيمشي ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عزَّ وجلَّ : إلى أي شيء تلتفت ؟ فيقول : لقد رجوت أن لا تعيدني إليها بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى : اذهبوا به إلى الجنة ،^(١) فدلَّ هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته .

أقول : و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى : لا يتكلم العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم - أعمارهم - في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي و النعيم في جناتي و رفيع الدرجات العلى في جوارِي ، ولكن برحمتي فليثقوا و فضلي فليرجوا و إلى حسن الظنِّ بي فليطمئنوا ، فإن رحمتي عند ذلك تندركهم و منِّي يبلغهم رضواني و مغفرتي تلبسهم عفوي فإنِّي أنا الله الرحمن الرحيم و بذلك تسميت ،^(٢)

و عنه عليه السلام قال : « وجدنا في كتاب علي عليه السلام » أن رسول الله ﷺ قال : وهو على منبره ، والذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له و حسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله و تقصيره من رجائه و سوء خلقه و اغتيابه للمؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظنَّ عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظنَّ عبده المؤمن لأن الله كريم بيده الخيرات يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظنَّ ثم يخلف ظنه و رجاءه ، فأحسنوا بالله الظنَّ و ارجعوا إليه ،^(٣)

و عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : « أحسن الظنَّ بالله فإن الله تعالى يقول : أنا عند ظنَّ عبدي المؤمن بي إن خيراً فخيرٌ و إن شراً فشرٌ » ،^(٤)

و عن الصادق عليه السلام « حسن الظنَّ بالله أن لا ترجو إلا الله و لا تخاف إلا الذنْب » ،^(٥)

(١) أخرجه البيهقي في الشعب مقطوعاً عن زيد بن أسلم . (الغنى)

(٢) و (٣) المصدر ج ٢ ص ٧١ تحت رقم ١ و ٢ .

(٤) و (٥) المصدر ج ٢ ص ٧٢ تحت رقم ٣ و ٤ .

﴿بيان دواء الرجاء و السبب الذي يحصل منه حال الرجاء و يغلب﴾

إعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه و أهله و هذان رجلان مايلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط و التفريط فيحتاجان إلى علاج يردّهما إلى الاعتدال فأما العاصي المغرور المتمني على اللهع الاغراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموماً في حقه مهلكة و تنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد و هو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة ، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف و الأسباب المهيبة له ، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها ، فإن المطلوب هو العدل و القصد في الصفات والأخلاق كلها و خير الأمور أوسطها فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يردّه إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط ، و هذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردّهم إلى جادة الحق و سنن الصواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ولكنها لما كانت أخف على القلوب و ألد عند النفوس و لم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيف ما كانوا ما لوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً .

قال علي عليه السلام : « إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله و لا يؤمنهم من مكر الله » (١) و نحن نذكر أسباب الرجاء ليستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى و سنة رسول الله ﷺ فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعاً لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ، ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق

(١) رواء الكليني في الكافي ج ١ ص ٣٦ تحت رقم ٣ و فيه « ولم يؤمنهم من

عذاب الله » .

لا استعمال الأخرق الذي يظنُّ أن كلَّ شيء من الأدوية صالح لكلِّ مريض كيف ما كان ، و حال الرَّجاء يغلب بفنِّين أحدهما الاعتبار و الآخر استقرار الآيات و الأخبار والآثار .

أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعدَّ له في الدنيا كلَّ ما هو ضروريُّ له في دوام الوجود كآلات الغذاء و ما هو محتاج إليه كالأصابع و الأظفار و ما هو زينة له كاستقواس الحاجبين و اختلاف ألوان العينين و حمرة الشفتين و غير ذلك مما كان لا ينلم بقعده غرض مقصود ، و إنما كان يفوت به مزية جمال فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن يفوتهم المزايد والمزايا في الزينة و الحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد ، بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أن أكثر الخلق قد هيئ له أسباب السعادة في الدنيا حتى أنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبداً مثلاً أو لا يحشر أصلاً ، فليست كراحتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة وإنما الذي يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه إلا في حالة نادرة و واقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة ، فسنة الله لا تجد لها تبديلاً فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد و هو غفورٌ رحيمٌ لطيف بعباده متعطفٌ عليهم ، فهذا إذا تأمل حق التأمل قوى به أسباب الرَّجاء .

و من الاعتبار أيضاً النظر في حكمة الشريعة و سننها في مصالح الدنيا و وجه الرُّحمة للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية المدائنة في البقرة من أقوى أسباب الرَّجاء ، فقيل له : وما فيها من الرَّجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليلٌ و رزق الإنسان منها قليلٌ و الدِّين قليلٌ من رزقه ، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه .

الفن الثاني استقراء الآيات و الأخبار فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر
أما الآيات فقد قال الله تعالى : « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من
رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » (١) وفي قراءة رسول الله ﷺ « ولا يبالي
إنه هو الغفور الرحيم » (٢) .

وقال تعالى : « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض » (٣) .
وأخبر تعالى أن النار أعدت لها لأعدائه وإنيما خوف بها أوليائه فقال :
« اتقوا النار التي أعدت للكافرين » (٤) .

وقال تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله
به عباده » (٥) وقال تعالى : « فأندرتكم ناراً تلتظي لا يصلحها إلا الأشتى الذي
كذب وتولى » (٦) وقال : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » (٧) .

و يقال : إن النبي ﷺ لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له : أما ترضى و
قد أنزلت عليك هذه الآية « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » .

وفي تفسير قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » (٨) قال : لا يرضى
محمدٌ و واحد من أمته في النار . وكان أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام يقول : أنتم أهل
العراق تقولون : أرجى آية في كتاب الله عز وجل « يا عبادي الذين أسرفوا على
أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - الآية - » ونحن أهل البيت نقول : أرجى آية في كتاب
الله قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » (٩) .

وأما الأخبار فقد روي عنه عليه السلام أنه قال : « أممي أمة مرحومة لا عذاب

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) أخرجه الترمذي ج ١٢ ص ١١٨ من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

(٣) الشورى : ٥ . (٤) آل عمران : ١٣١ .

(٥) الزمر : ١٦ . (٦) الليل : ١٥ و ١٦ و ١٧ .

(٧) الرعد : ٦ . (٨) الضحى : ٦ .

(٩) لم أجده من كلامه عليه السلام إنما هو من كلام محمد بن علي ابن الحنفية كما في تفسير

المجمع ذيل الآية .

عليها في الآخرة وعجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب فقيل : هذا فداؤك من النار^(١) - وفي لفظ آخر - « يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول : هذا فداي من النار فيلقى فيها »^(٢) .

أقول : في أخبار أهل البيت عليهم السلام : « أن النصاب يجعلون فداء لشيعتهم بظلمهم إليهم ووقيعهم فيهم »^(٣) .

وفي تفسير أبي عبد الله العسكري عن الصادق عليه السلام قال : و سيؤتى بالواحد من مقصري شيعتنا في أعماله بعد أن صان الولاية والتقية وحقوق إخوانه ويوقف بإزائه ما بين مائة و أكثر من ذلك إلى مائة ألف من النصاب فيقال له : هؤلاء فداؤك من النار فيدخل هؤلاء المؤمنون إلى الجنة وأولئك النصاب إلى النار وذلك ما قال الله تعالى : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين »^(٤) في الدنيا متقادين للإمامة ليجعل مخالفوهم من النار فداهم .

قال أبو حامد : و قال عليه السلام : « الحمى من فيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار »^(٥) . و روي في تفسير قوله تعالى : « يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه »^(٦) إن الله أوحى إلى نبيه عليه السلام أني أجعل حساب أمتك إليك فقال : لا يا رب أنت

(١) أخرجه أبو داود والحاكم والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من حديث أبي موسى بسند صحيح كما في الجامع الصغير بدون ذكر « فإذا كان يوم القيامة » .
(٢) أخرجه الطيالسي في الجزء الثامن من مسنده تحت رقم ٤٩٩ بأدنى اختلاف وكذلك مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى .

(٣) راجع بحار الانوار ج ٣ ص ٢٤٦ الى ٢٥٠ باب أحوال التقيين والمجرمين يوم القيامة .

(٤) العنبر : ٢ . وفي تفسير البرهان ج ٢ ص ٣٢٥ زاد بعد قوله : « مسلمين » بفتح السين وتشديد اللام .

(٥) روى الكليني في الكافي ج ٣ ص ١١١ عن الصادق عليه السلام « الحمى راند الموت و هو سجن الله في الارض و هو حظ المؤمن من النار » . (٦) التحريم : ٨ .

أرحم بهم مني ، فقال : إذن لا أخزبك فيهم ،^(١)
و روي أن رسول الله ﷺ سأل ربه في ذنوب أُمته فقال : يا رب اجعل
حسابهم إليّ لئلا يطالع على مساوئهم غيري ، فأوحى الله تعالى إليه هم أمتك وهم
عبادي وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إليّ غيري لئلا تنظر إليّ مساوئهم أنت
ولا غيرك ،^(٢)

قال ﷺ : « حياتي خير لكم و موتي خير لكم أما حياتي فأسن لكم
السنن وأشرع لكم الشرائع ، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض عليّ فما رأيتم منها حسناً
حمدت الله تعالى عليه وما رأيتم منها سيئاً استغفرت الله لكم ،^(٣)
و قال ﷺ يوماً : يا كريم العفو ، فقال جبرئيل : تدري ما تفسير يا كريم
العفو ؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته بدّل لها حسنات يكرمه ،^(٤)

و في الخبر « إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله عز وجل ملائكته : انظروا
إلى عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنوب و يأخذ بالذنوب أشهدكم أنني
قد غفرت له ،^(٥) وفي الخبر « لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها لمن
استغفرني ورجاني ،^(٦) و في الخبر « لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوباً لقينته بقراب

(١) قال العراقي : أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله .

(٢) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

(٣) أخرجه البزار من حديث ابن مسعود و رجاله رجال الصحيح (المغني) وأخرجه
ابن سعد عن بكر بن عبد الله مرسلاً بسند حسن كما في الجامع الصغير .

(٤) قال العراقي : لم أجد عن النبي صلى الله عليه وآله إنما الموجود عن إبراهيم
الخليل عليه السلام رواه أبو الشيخ في كتاب العظيمة من قول عتبة بن الوليد ، و رواه البيهقي
في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال : حدثني بعض الزهاد .

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٧ باختلاف ، و رواه البخاري في الصحيح من حديث
أبي هريرة .

(٦) أخرجه الترمذي ج ١٣ ص ٥٩ بأدنى اختلاف من حديث أنس و قال : حسن .

الأرض مغفرة»^(١) وفي الحديث «إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتب عليه وإلا كتبها سيئة» وفي لفظ آخر «فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه: ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشرة وارفعل له تسع حسنات ، فلتلقى عنه هذه السيئة»^(٢).

وروي أنه عليه السلام قال : «إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه ، فقال أعرابي : وإن تاب عنه ؟ قال : محى عنه ، قال : فإن عاد ؟ قال عليه السلام : يكتب عليه ، فقال الأعرابي : فإن تاب ؟ قال : محى من صحيفته ، قال : إلى متى ؟ قال : إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل إن الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار فإذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله عز وجل إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإن عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل»^(٣). وجاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال : يا رسول الله إنني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليها . وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع أين أنا إذا مت فتبسم رسول الله عليه السلام وقال : نعم معي إن حفظت قلبك من اثنتين الغل والحسد ، ولسانك من اثنتين الغيبة والكذب ، وعينك من اثنتين النظر إلى ما حرم الله عز وجل

(١) أخرجه الطبراني وزاد فيه « لا يشرك بي شيئاً » بسند مجهول كفاً في معجم الزوائد ج ١٠ ص ٢١٦ . ورواه الترمذي من حديث الذي قبله ج ١٣ ص ٦٠ ورواه أحمد في مسنده من حديث أبي ذر .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي امامة بسند فيه لين باللفظ الاول ، ورواه أيضاً أطول منه وفيه « ان صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال » وليس فيه انه يأمر صاحب الشمال بالقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ، ولم أجد لذلك أصلاً (قاله العراقي) أقول : ورواه الطبراني في الكبير باختلاف راجع معجم الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٨ .

(٣) أخرج صدره الى قوله « حتى يمل العبد من الاستغفار » الطبراني في الكبير والاولسط من حديث حبة بن عامر واسناده حسن كما في معجم الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٠ .

وأن تزدرى بهما مسلماً دخلت معي الجنة على راحتي هاتين» (١) وفي الحديث إن أعرابياً قال : يا رسول الله من يلي حساب الخلق ؟ فقال : الله تبارك و تعالى ، قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم ، فتبسم الأعرابي ، فقال رسول الله ﷺ : هم ضحككت يا أعرابي ؟ فقال : إن الكريم إذا قدد عفا ، وإذا حاسب سامح ، فقال النبي ﷺ صدق الأعرابي ألا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ، ثم قال : فقه الأعرابي» (٢) وفيه أيضاً أن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ، ولو أن عبداً هدمها حجراً حجراً ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى ، قال الأعرابي ومن أولياء الله ؟ قال : المؤمنون كلهم أما سمعت قول الله عز وجل : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » (٣).

وفي بعض الأخبار «المؤمن أفضل من الكعبة» (٤) «والمؤمن طيب طاهر» (٥) «والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة» (٦) . وفي الخبر «خلق الله جهنم من فضل رحمته سوطاً يسوق الله به عباده إلى الجنة» (٧).

وفي خبر آخر «يقول الله عز وجل : إنما خلقت الخلق ليربحوا علي ولم أخلقهم لأربح عليهم» (٨) وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ : «ما خلق الله تعالى شيئاً إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه» (٩) وفي (١) قد تقدم سابقاً .

(٢) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

(٣) قال العراقي : لم أجد له أصلاً . والاية في سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٣٢ بلفظ «ما أعظمك وأعظم حرمتك واللى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه وأن نظن به الاخيراً» .

(٥) قال العراقي : لم أجد له أصلاً بهذا اللفظ وفي الصحيحين «المؤمن لا ينجس» .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٤٧ من رواية أبي مهزم عن أبي هريرة .

(٧) ما عثرت على أصل له ، وروى البخاري و أبو داود و أحمد بسند صحيح من

حديث أبي هريرة «عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة في السلاسل» .

(٨) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

(٩) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب . (المعنى)

الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق إن رحمته تغلب غضبي » (١).

وعنه عليه السلام قال : « من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة » (٢).

« ومن كان آخر كلامه قول لا إله إلا الله لم تمسه النار » (٣).

« ومن لقي الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار » (٤).

« ولا يدخلها من في قلبه وزن مثقال ذرة من إيمان » (٥) وفي خبر آخر « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما آيس من جنته أحد » (٦) ولما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » (٧) قال : أتدرون أي يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لا دم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحدة إلى الجنة ، قال : فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : مالكم لاتعملون ، فقالوا : « ومن يشتغل بعمل بعدما حدثتنا بهذا ؟ فقال : كم أنتم في الأُمم أين تأويل وثاريس و منسك و يأجوج و مأجوج اُمم لا يحصيها إلا الله تعالى إنما أنتم في سائر الأُمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود و كالرقعة في ذراع الدابة » (٨).

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٥ من حديث أبي هريرة هكذا « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده ان رحمته تغلب غضبي » .

(٢) رواه الطبراني في الاوسط والكبير من حديث أبي سعيد الخدري كما في مجمع

الزوائد ج ١ ص ١٨ .

(٣) أخرجه أبوداود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ « دخل الجنة » .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث سلمة بن نعيم الاشجعي و رواه أحمد و

رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨ . (٥) تقدم نحوه .

(٦) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٧ من حديث أبي هريرة باختلاف . (٧) الصحيح : ٢ .

(٨) أخرجه البخاري ج ٦ ص ١٢٢ و سعيد بن منصور و أحمد و عبد بن حنبل و

الترمذي وصححه و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم وصححه

و ابن مردويه من طرق من الحسن و عمران بن حصين و غيره كما في الدر المنثور

ج ٤ ص ٣٤٣ .

فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزعة الرجاء إلى الله تعالى إذ ساقهم بسياط الخوف أولاً فلما خرج بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داوهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال والقصد والأخير لم يكن مناقضاً للأول ولكن ذكر في الأول ما رآه سبباً للشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر ، فعلى الواعظ أن يقتدي بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه .

وفي الخبر « لو لم تذنبوا لخلق الله تعالى خلقاً يذنبون فيغفر لهم » و في لفظ آخر « لنهب بكم و جاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم »^(١).
و في الخبر « لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب ، قيل : ما هو ؟ قال : العجب »^(٢) .

وقال عليه السلام : « و الذي نفسي بيده الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها »^(٣) .

و في الخبر « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد حتى أن إبليس ليتناول لها رجاء أن تصيبه »^(٤) .

و في الخبر « إن لله مائة رحمة أخر عنده منها تسعاً وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يتراحم الخلق فتحن الوالدة إلى ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السماوات والأرضين قال : فلا يهلك على الله تعالى

(١) أخرجه الطبراني في الكبير والوسط بلفظيه من حديث عبادة بن عمر بسند

جيد راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٥ .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه الشيخان والطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٣ .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد

ضعيف كما في المنى .

يومئذٍ إلّا هالك» (١).

وفي الخبر «ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله تعالى برحمته» (٢).
وقال عليه السلام : «اعملوا وابشروا واعلموا أن أحداً لن ينجيه عمله» (٣).
وقال عليه السلام : «إنني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي أترونها للمطيعين المتقين بل هي للمخلفين المثلوثين» (٤).

وقال عليه السلام : «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة» (٥).

وقال عليه السلام : «أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا سراحة» (٦) ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم «ولا تحمل علينا إصراً» (٧) وقال : «ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم» (٨) وروى محمد بن الحنفية عن علي عليه السلام أنه قال : «لما نزل قوله تعالى «فاصفح الصفع الجميل» قال : يا جبرئيل وما الصفع الجميل ؟ قال : إذا عفوت ممن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال : يا جبرئيل فالله أكرم أن يعاتب من عفا عنه ، فبكى جبرئيل وبكى النبي ﷺ فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل وقال : إن ربكما يقرئكما السلام ويقول : كيف أعتاب من عفوت عنه هذا ما لا يشبه كرمي» (٩).

(١) أخرجه صدره مسلم ج ٨ ص ٩٦ من حديث أبي هريرة . وكذا البخاري في الصحيح ج ٨ ص ١٢٣ وما عثرت على ذيله .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٣) تقدم أيضاً .

(٤) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٧٥ في مسنده بأدنى اختلاف في اللفظ من حديث

عبدالله بن عمر . وفيه من لم يسم .

(٥) أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة ج ٥ ص ٢٦٦ «دون لفظ «السهلة» .

(٦) قال العراقي : أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد .

(٧) البقرة : ٢٨٦ . (٨) الاعراف : ١٥٧ .

(٩) أخرجه ابن مردويه وابن النجار عن علي عليه السلام هكذا «فاصفح الصفع الجميل» -

وقال عليٌّ عليه السلام : « من أذنب ذنباً فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم أن يكشف ستره في الآخرة ، و من أذنب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يشني عقوبته على عبده في الآخرة » ^(١).

وفي الحديث « إن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويزجره وكان يقول : دعني وربّي أبعث عليّ رقيباً ، حتّى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لا يغفر الله لك قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيسطيع أحدان يحظر رحمتي على عبادي إذ ذهب أنت فقد غفرت لك ثم يقول للعابد : وأنت فقد أوجبت لك النار قال : فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلك دنياء وآخرته » ^(٢).

وروي « أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فمرّ عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عبّاد بني إسرائيل من الحوارتين فقال اللصّ في نفسه : هذا نبيّ الله يمرّ وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثاً ، قال : فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحواريّ فيزدري نفسه تعظيماً للحواريّ ويقول في نفسه : مثلي لايمشي إلى جنب هذا العابد قال : و أحسّ به الحواريّ فقال في نفسه : هذا يمشي إلى جانبي فضمّ منه نفسه وتقدّم إلى عيسى عليه السلام فمشى إلى جانبه فبقي اللصّ خلفه قال : فأوحى الله تعالى إلى عيسى قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أمّا الحواريّ فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأمّا الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدري على نفسه فأخبرهما بذلك وضمّ اللصّ إليه في سياحته وجعله من حواريه . وفي الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال : فإذا ادخلا الجنة رفع أحدهما في الدّرجات العلى على صاحبه فيقول : ياربّ ما

← الرضا بشير عتاب « وكذا رواه الصدوق في الميون عن الرضا عليه السلام وما عثرت على ما رواه المصنف .

(١) تقدم نحوه عن النبي صلى الله عليه وآله .

(٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٧٣ من حديث أبي هريرة باسناد جيد .

كان هذا في الدنيا بأكثر منّي عبادة فرفعته عليّ في عليّين ؟ فيقول الله سبحانه :
إنّه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت
كلّ عبد سؤله . وهذا يدلّ على أنّ العبادة على الرّجاء أفضل لأنّ المحبة أغلب على
الرّجاء اجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتّقاء لعقابه و بين
من يخدم ارتجاءاً لإِنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظنّ و لذلك
قال ﷺ : « سلوا الله الدرجات العلى فإنّما تسألون كريماً » (١) .

وقال : وإذا سألتهم الله فأعظموا الرّغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإنّ الله لا
يتعاطمه شيء » (٢) .

و قال يحيى بن معاذ في مناجاته : يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي
إيّاك مع الأعمال لأنّي أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة
معروف وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالوجود موصوف .
وقيل : إنّ مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فقال : إن أسلمت أضفتك
فمرّ المجوسي فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم يا إبراهيم لم تطعمه إلّا بتغيير دينه
ونحن منذ سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ما ذا كان عليك ، فمرّ إبراهيم
يسعى خلف المجوسي فردّه وأضافه فقال المجوسي : ما السبب فيما بدالك ؟ فذكر
له ، فقال المجوسي : أ هكذا يعاملني ، ثم قال : أعرض عليّ الإسلام فأسلم . وقيل :
كان رجل شريّ يجمع قوماً من ندعائه و دفع إلى غلام له أربعة دراهم وأمره أن
يشترى شيئاً من الفواكه للمجلس فمرّ الغلام بباب منصور بن عمار وهو يسأل
لفقير شيئاً ويقول : من دفع إليّ أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات ، قال : فدفع
الغلام الدّراهم إليه فقال منصور : ما الذي تريد أن أدعو لك فقال : لي سيّداًريد

(١) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ وللترمذي من حديث ابن مسعود > سلوا
الله من فضله ان الله يحب أن يسئل .»

(٢) روى نحوه مسلم ج ٨ ص ٦٣ من حديث أبي هريرة : و في سنن الترمذي
ج ١٠ ص ٧ في ذيل حديث عن معاذ بن جبل > فإذا سألتهم الله فسلوه الفردوس .»

أن أتخلص منه ، فدعا منصور ، و قال : الآخر ؟ فقال : أن يخلف الله علي دراهمي فدعا ، ثم قال : الآخر ؟ فقال : يتوب الله علي سيدي فدعا ، ثم قال : الآخر فقال : أن يغفر الله لي ولسيدي ولك وللقوم ، فدعا منصور ، فرجع الغلام فقال له سيده : لم أبطأت فقص عليه القصة فقال : وبم دعا فقال : سألت لنفسي العتق ، فقال : اذهب فأنت حر ، قال : وأيش الثاني فقال : أن يخلف الله علي الدراهم ، فقال : لك أربعة آلاف درهم ، وأيش الثالث ؟ قال : أن يتوب الله عليك ، فقال : تبت إلى الله ، وأيش الرابع ؟ فقال : أن يغفر الله لي ولك وللقوم و للمذكر ، فقال : هذا الواحد ليس إلي فلما بات تلك الليلة رأي في المنام كأن قائلًا يقول له : أنت فعلت ما كان إليك أفترى أنني لا أفعل ما إلي قد غفرت لك و للغلام و لمنصور بن عمار و للقوم الحاضرين أجمعين .

وقال إبراهيم الأطروش : كنا قعوداً ببغداد مع المعروف الكرخي على دجلة إذ مر قوم أحداث في زورق يضربون بالدف و يشربون و يلعبون ، فقالوا لمعرف : أما تراهم يعصون الله مجاهرين ادع الله عليهم ، فرفع يده وقال : إلهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة ، فقال القوم : إنما سألناك أن تدعو عليهم فقال : إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم .

و كان بعض السلف يقول في دعائه : يا رب وأي أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابعة و رزقك عليهم داراً ، سبحانك ما أحلمك و عزتك أنك لتعصى ثم تسبغ النعمة و تدد الرزق حتى لكأنك يا ربنا إنما تطاع ، سبحانك ما أحلمك تعصى و تدد الرزق و تسبغ النعمة حتى لكأنك يا ربنا لا تغضب . فهذه هي الأسباب التي يجلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين و الآيسين ، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغي أن يسمعو شيئاً من ذلك بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف كالعبد السوء والصبي العرم الذي لا يستقيم إلا بالسوط و العصا وإظهار الخشونة في الكلام فأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا .

❖ (الشرط الثاني من الكتاب في الخوف) ❖

و فيه بيان حقيقة الخوف و بيان درجات الخوف ، و بيان أقسام المخاوف ، و بيان فضيلة الخوف ، و بيان الأفضل من الخوف والرُّجاء ، و بيان دواء الخوف ، و بيان معنى سوء الخاتمة ، و بيان أحوال الخائفين من الأنبياء والصالحين .

❖ (بيان حقيقة الخوف) ❖

إعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب و احتراقه بسبب توقُّع مكروه في الاستقبال و قد ظهر هذا في بيان حقيقة الرُّجاء و من أنس بالله وملك الحق قلبه و صار ابن وقته مشاهداً لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرُّجاء فانهما زامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها و إلى هذا أشار الواسطي حيث قال :
الخوف حجاب بين الله وبين العبد ، وقال أيضاً : إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف ، وبالجمله فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في الشهود ، و إنما دوام الشهود غاية المقامات ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات ، فنقول : حال الخوف ينظم أيضاً من علم وحال وعمل : أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه و ذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلاً ويجوز العفو و الافلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته و كون الملك في نفسه حقوداً غضوباً منتقماً ، و كونه محفوفاً بمن يحثه على الانتقام خالياً عما يتشفع إليه في حقه ، و كان هذا الخائف عاطلاً عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف و شدة تألم القلب ، و بحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف . فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباهت المثير لاحتراق القلب وتألمه ، و ذلك الاحتراق هو الخوف وكذا الخوف من الله تعالى تارة يكون بمعرفة الله تعالى و معرفة صفاته ، و تارة يكون

لكثرة الجنائية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغناؤه تكون قوة خوفه ، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وربه ، ولذلك قال عليه السلام « أنا أخوفكم لله »^(١) وكذلك قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »^(٢) ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحترق القلب ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات أما في البدن فبالنحول والصفار والغشية والزُّعَّة والبكاء وقد تنشق به المرادة فيفيض إلى الموت أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل أو يقوي فيورث القنوط واليأس ، وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه ، وأما في الصفات فهو أن يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيهِ إذا عرف أن فيه سمّاً فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضمة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذه النفس في الخطرات والخطوات والكلمات فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لامتساع فيه لغيره هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه . وقوة المراقبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأحوال وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع من المحظورات ، ويسمى الكفّ الحاصل من المحظورات ورعاً . فإن زادت قوته كفّ

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس « والله اني لاخشاكم لله وأتقاكم له » . و للشيخين من حديث عائشة « والله اني لاعلمهم بالله وأشدّهم له خشية » . (المغني)

(٢) فاطر : ٢٨ .

عما ينظرُ إلى إمكانية التحريف فيكفُ أيضاً عما لا يتيقنُ أيضاً تحريمه ويسمى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ، و قد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، و هو الصدق في التقوى ، فإذا انضمَّ إليه التجردُّ للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ، ولا يجمع ما لا يأكله ، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ، ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق و صاحبه جديرٌ بأن يسمى صدقاً ويدخل في الصدق التقوى ، و يدخل في التقوى الورع ، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فإن الخوف يؤثر في الجوارح بالكفِّ والإقدام . فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف و ما يكمنه من جانب العلوِّ كالمعرفة الموجبة له و من جانب السفلى كالأعمال الصادرة منه كفّاً وإقداماً .

﴿ بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف ﴾

إعلم أنَّ الخوف محمودٌ وربما يظنُّ أن كلَّ ما هو محمودٌ كلُّما كان أقوى و أكثر كان أحمد ، وهو غلطٌ بل الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم و العمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى و الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط و كذا الصبيُّ ولكن ذلك لا يدلُّ على أن المبالغة في الضرب محمودٌ فكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال ، و المحمود هو الاعتدال و الوسط فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقعة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحسَّ رجع القلب إلى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع ، و هو كالقضب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلِّها المأمر مبرحاً فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها ، و هكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء المترسِّمين برسوم العلماء والمتسِّمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني به العلماء بالله و بآيانه وأفعاله و ذلك بما قد عزَّ وجوده الآن ، وأما المفرط فهو الذي يقوى ويجاوز حدَّ الاعتدال حتى يخرج

إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل ، والمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأ الجهل والعجز ، أما الجهل فهو أنه ليس يدري عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفاً لأن المخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعزّض لمحتذور لا يقدر على دفعه فإذ هو محمود بالاضافة إلى نقص الآدمي وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله به فليس بكمال في ذاته وإنما يصير محموداً بالاضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدّهشة وزوال العقل وقد يخرج إلى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرّجاء وأكثر منها ليعالج بها صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يقدر هذه الأسباب فهو مذموم ، فإن قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموماً ، فأعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لاينا لها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالاضافة إليه فضيلة فأمّا بالاضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك سبيل الله بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كلّ لحظة رتبة شهيد أو شهيداً ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله فكل ما بطل

العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى الأمور وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة النبيين والصدّيقين^(١) ، فإذن الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فإذا أثمر الورع فهو أعلى ، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصدّيقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله فيه متسع فهذا أقصى ما يحمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه .

❖ (بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه) ❖

إعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي إلى المكروه كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة ، وكما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت ، فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروهاً من أخذ القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات فالمذنب يغلب على قلوبهم ما ليس مكروهاً لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقض التوبة أو نكث العهد ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله ، أو خوف زوال رقة القلب و تبدلها بالقساسة ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكله الله إلى حسناته التي اتكل عليها و تعز بها في عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، أو خوف تبعات

(١) في الاحياء > بالإضافة إلى درجة السّقيين والصدّيقين < .

الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء ، أو خوف مالا يدري أنّه يحدث في بقيّة عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة في الدّنيا و الافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاعتزاز بزخارف الدّنيا ، أو خوف اطلاع الله على سريره في حال غفلته عنه ، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل ، فهذه كلّها مخاوف العارفين ولكلّ واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر ممّا يفضي إلى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواطىء على القطام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله على سريره يشتغل بتطهير قلبه عن الوسواس وهكذا إلى بقيّة الأقسام وأغلب هذه المخاوف على المتّقين خوف الخاتمة فإنّ الأمر فيه مخطّر وأعلى الأقسام وأدّلّها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأنّ الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرّع عنها بعد تخلّل أسباب كثيرة ، فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه جز الرّقبة ، ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ، ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنّه عما ذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنّه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب ، وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع ، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد ، وإليه أشار النبي ﷺ حيث كان على المنبر فقبض كفّه اليميني ، ثمّ قال : هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنّة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص ، ثمّ قبض اليسرى وقال : هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأنسابهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاء حتّى يقال : كأنّهم منهم بل هم هم ثمّ يستنقذهم الله تعالى قبل الموت ولو بفواق ناقة وليعملن أهل الشقاء بعمل أهل السعادة حتّى يقال : كأنّهم منهم بل هم هم ، ثمّ يستخرجهم الله تعالى قبل الموت ولو بفواق ناقة ، السعيد من سعد بقضاء الله و الشقي من شقي بقضاء الله و الأعمال

بالخواتيم ، ^(١) وهذا كاتقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وحياته ، و إلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لأحواله فهذه أعلى رتبة و لذلك يبقى خوفه و إن كان في طاعة الصديقين ، و أما الآخر فهو في عرصة الغرور ، والآ من إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله تعالى خوف الموحدين و الصديقين و هو ثمرة المعرفة بالله تعالى فكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جنابة . الطبقة الثانية من الخائفين أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه و ذلك مثل سكرات الموت وشدته أو سؤال منكر و نكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى و الحياء من كشف السر و السؤال عن النكير و القطمير ، أو الخوف من الصراط وحدته و كيفية العبور عليه ، أو الخوف من النار وأغلاها وأهوالها ، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات ، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله و هو خوف العارفين و ما قبل ذلك خوف العابدين والصالحين والزهادين و كافة العاملين ومن لم يكمل معرفته ولم يفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك منكراً في باطنه وتعجب منه في نفسه لأنه لا يعرف إلا لذة الفرج والبطن والعين بالنظر إلى الألوان و الوجوه الحسان ، و بالجملة كل لذة تشاركه البهائم فيها فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له ومن كان أهلاً له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين .

❖ (بيان فضيلة الخوف والفرغيب فيه) ❖

إعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ج ٨ ص ٣٠٨ وقال : حسن

أما الاعتبار فسيبيله أن فضيلة الشيء بقدر إعانته في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله إذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد إلا في لقاء الله مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر إعانته وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والانس به في الدنيا ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الانس إلا بالمحبة ودوام الذكر ولا تيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقلاص حب الدنيا من القلب ولا ينقلع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتبهات إلا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف والخوف هو النار المحرقة للشهوات فاذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق ، وكيف لا يكون الخوف ذافضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي يتقرب بها إلى الله تعالى ذلغى ، وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار ، فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي جماع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى : « هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » (١) وقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٢) فوصفهم للعلم بخشيتهم وقال تعالى : « رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه » (٣) وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه السلام : « أما الخائفون فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه ، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ، ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله ﷺ في مرض موته بين البقاء في الدنيا

(٢) فاطر : ٢٨ .

(١) الاعراف : ١٥٤ .

(٣) البينة : ٨ .

و بين القدوم على الله تعالى كان يقول : « أسألك الرفيق الأعلى » (١) فاذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم و إن نظر إليه ثمرته فهو الورع والتقوى ، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما حتى أن العاقبة صارت موسومة بالتقوى خصوصاً بها كما صار الحمد مخصوصاً بالله تعالى والصلاة برسول الله ﷺ حتى يقال : الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، والصلاة على محمد وآله . وقد خصص الله التقوى بالاضافة إلى نفسه فقال تعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (٢) وإنما التقوى عبارة عن كفه بمقتضى الخوف كما سبق ، ولذلك قال الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٣) ولذلك وصى الله تعالى الاولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى : « ولقد وصينا الذين أتوا الكتاب من قبلكم وأياكم أن اتقوا الله » (٤) وقال تعالى : « وخافون إن كنتم مؤمنين » (٥) فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الايمان فلذلك لا يتصور أن يتفك مؤمن خوف و إن ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه ، وقال رسول الله ﷺ في فضيلة التقوى : « إذا جمع الله تعالى الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول : يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلي اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم أيها الناس إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم ، قلت : إن أكرمكم عند الله أتقاكم و أبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان وفلان أغنى من فلان ، فالיום أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتقون فينصب للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب » (٦) وقال ﷺ : « رأس الحكمة مخافة الله » (٧) و كذلك ما ورد في

(١) متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم .

(٢) الحج : ٣٧ . (٣) الصبر : ١٣ .

(٤) النساء : ١٣١ . (٥) آل عمران : ١٧٠ .

(٦) أخرجه العاظم في المستدرک والطبرانی في الاوسط بسند ضعيف .

(٧) أخرجه الحكيم الرملى في النوادر و أبو بكر بن لال بسند صحيح كما في

فضائل الذّكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين فقال « سيدّ كرم من يخشى » ^(١) وقال تعالى: « ومن خاف مقام ربّه جنتان » ^(٢) .

وقال ﷺ: « قال الله تعالى: و عزّتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمينين فاذا أمنيّ في الدّنيا أخفته يوم القيامة وإذا خافني في الدّنيا أمنتّه يوم القيامة » ^(٣) . وقال رسول الله ﷺ: « من خاف الله تعالى خافه كل شيء » ^(٤) .
وقال رسول الله ﷺ: « أتمكم عقلاً أشدّكم لله تعالى خوفاً ، وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً » ^(٥) .

وقالت عائشة: قلت: يا رسول الله « الذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة » ^(٦) ، هو الرّجل يسرق و يزني؟ قال: لا بل الرّجل يصوم و يصلي و يتصدّق و يخاف أن لا يقبل منه ^(٧) ، و التشديدات الواردة في الأمن من مكر الله و عذابه لا تنحصر و كل ذلك ثناء على الخوف لأنّ منعة الشيء ثناء على ضده الذي يتقيه ، و ضدّ الخوف الأمن كما أن ضدّ الرّجاء اليأس ، و كما دلّ منعة القنوط على فضيلة الرّجاء فكذلك يدلّ منعة الأمن على فضيلة الخوف المضادّ له ، بل نقول: كلّ ما ورد في فضل الرّجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنّهما متلازمان ، فإنّ كلّ من رجا محبوباً فلا بدّ وأن يخاف فوته ، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذن لا يحبّه

(١) الاعلى: ١٠ . (٢) الرحمن: ٤٧ .

(٣) قال العراقي: أخرجه ابن حبان في صحيحه و البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة و رواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الغافقين من رواية الحسن مرسلاً .

(٤) يأتي عن الكافي بلفظ أبسط و أخرجه ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي امامة بسند ضعيف جداً و رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الغافقين بإسناد ضعيف معضل كما في المغني .
(٥) ما عثرت على أصله . وقال العراقي: لم يصح في فضل العقل شيء . أقول: و هكذا قال المقدسي في الموضوعات . ولكن جاء من طريق الخاصة أخبار متظافرة صحاح حسان في مدح العقل و فضله .
(٦) المؤمنون: ٦٠ .

(٧) أخرجه العاظم في المستدرک ج ٢ ص ٣٩٣ و صححه وابن جرير وابن المنذر و ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي من حديث عائشة كما في الدر المنثور .

فلا يكون بانتظاره راجياً ، فالخوف والرَّجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه وهذا لأن من شرط الرَّجاء والخوف تعلُّقهما بما هو مشكوك فيه - إذ المعلوم لا يرجي ولا يخاف ، فإذا كان المحبوب الذي يجوز وجوده لا محالة فتقدير وجوده يرُّوح القلب وهو الرَّجاء ، وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكاً فيه ، نعم أحد طرفي الشك قد يرجح بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظناً فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوي الرَّجاء ، وخفي الخوف بالاضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى : « و يدعوننا رغباً ورهباً ^(١) » ، وقال تعالى : « يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ^(٢) » ، ولذلك عبّر العرب عن الخوف بالرَّجاء ، قال الله تعالى : « مالكم لا ترجون الله وقاراً ^(٣) » ، أي لا تخافون ، وكثيراً ما ورد في القرآن الرَّجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلزمه ، بل أقول : كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فإن البكاء ثمرة الخشية وقد قال الله تعالى : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ^(٤) » ، وقال تعالى : « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ^(٥) » ، وقال : « أفمن هذا الحديث تعجبون - - وتضحكون ولا تبكون - - وأنتم سامدون ^(٦) » ، وقال النبي ﷺ : « مامن عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعاً وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئاً من حر وجهه إلا حرمه الله تعالى على النار ^(٧) » ، وقال ﷺ : « إذا أقشعر قلب

(٢) السجدة : ١٦ .

(١) الانبياء : ٩٠ .

(٤) التوبة : ٨٢ .

(٣) نوح : ١٣ .

(٦) النجم : ٦٠ و ٦١ و ٦٢ .

(٥) الاسراء : ١٠٩ .

(٧) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٩٧ من حديث ابن مسعود وسنده حسن كفاي

المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياهُ كما يتحاتُّ من الشجرة ورقها^(١) ،
وقال عليه السلام : « لا يلج النار أحدٌ بكى من خشية الله حتَّى يعود اللبن في
الضرع^(٢) » .

و قال عقبة بن عامر : ما النجاة يا رسول الله ؟ قال : « أمسك عليك لسانك
وليسعك بيتك و ابك على خطيئتك^(٣) » .

و قالت عائشة : قلت : يا رسول الله يدخل أحدٌ من أمتك الجنة بغير حساب ؟
قال : « نعم من ذكر ذنوبه فبكى^(٤) » .

و قال عليه السلام : « ما من قطرة أحبُّ إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله أو
قطرة دم اهريق في سبيل الله^(٥) » .

و قال عليه السلام ^(٦) « اللهم ارزقني عينين هطاليتين^(٧) تشفيان بندوف الدمع
قبل أن تصير الدموع دماً والأضراس جمرأ^(٨) » .

و قال عليه السلام : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظلٌ إلا ظله و ذكر منهم - رجلاً ذكر
الله في خلوة ففاضت عيناه^(٩) » .

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث العباس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

(٢) أخرجه الترمذي و قال حسن صحيح و أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٢٦٠ و صححه
والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه أحمد ج ٤ ص ١٤٨ من حديثه وقد تقدم ج ٤ ص ٩ و وقع هناك تصحيف
من النساخ و كتب مكان عقبة بن عامر عبدالله بن عامر الجهني و ما ونبت عليه الاهننا .
نسأل الله أن يوفقنا على زلاتنا و يغفر لنا خطايانا .

(٤) قال العراقي : لم أجده .

(٥) أخرجه الترمذي في سننه من حديث أبي امامة و قال : حسن غريب وقد تقدم .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير وفي الدعاء ، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر
باسناد حسن ، و رواه الحسين المروزي في زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من
رواية سالم بن عبدالله مرسلًا ، دون « ذكر الله » . (الغنى) أقول : و رواه ابن عساكر وفيه
« تشفيان القلب بندوف الدمع من خشيتك الحديث » كما في الجامع الصغير .

(٧) أي بكاءتين . (٨) متفق عليه من حديث أبي هريرة و قد تقدم .

وروي عن حنظلة قال : كنّا عند رسول الله ﷺ ، فوعظنا موعظة رقّت منها القلوب وذرفت منها العيون و عرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلي فدفنت منّي المرأة و جرى بيننا من حديث الدُّنيا فنسيت ما كنّا عليه عند رسول الله ﷺ و أخذنا في الدُّنيا ، ثمّ تذكّرت ما كنت فيه و قلت في نفسي : قد نافقت حتّى تحوّل عني ما كنت فيه من الخوف والرقّة فخرجت و جعلت أنادي نافق حنظلة فدخلت على رسول الله ﷺ و أنا أقول : نافق حنظلة ، فقال ﷺ : كلاً لم ينافق ، فقلت : يا رسول الله كنّا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون و عرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدُّنيا و نسيت ما كنّا عندك عليه ، فقال : يا حنظلة لو أنكم أبداً على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة في الطرق و على فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة و ساعة (١) .

فاذن كلّ ما ورد في فضل الرّجاء و البكاء ، و فضل التقوى و الورع ، و فضل العلم و منّة الأمن فهو دالّة على فضل الخوف لأنّ جملة ذلك متعلّقة به إمّا تعلق السبب أو تعلق المسبّب .

أقول : و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمّار قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : «يا إسحاق خف الله كأنك تراه و إن كنت لا تراه فأنه يراك ، و إن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت ، و إن كنت تعلم أنه يراك ثمّ برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك (٢) » .

و عنه عليه السلام قال : « من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء و من لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء (٣) » .

وعنه عليه السلام « من عرف الله خاف الله و من خاف الله سحت نفسه عن الدُّنيا » (٤) .

وعنه عليه السلام « إنّ من العبادة شدّة الخوف من الله ، يقول الله تعالى : « إنّما

(١) رواه مسلم مختصراً وكذا الطيالسي في مسنده تحت رقم ١٣٤٥ . والقصة في

اسد الغابة ج ٢ ص ٥٨ تحت عنوان حنظلة بن الربيع التميمي نحوها .

(٢) و (٣) و (٤) المصدر ج ١ ص ٦٨ تحت رقم ٢ و ٣ و ٤ .

يخشى الله من عباده العلماء ، ^(١) و قال تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشون » ^(٢) و قال تعالى : « و من يتق الله يجعل له مخرجاً » ^(٣) و قال ﷺ : « إن حب الشرف و الذكر لا يكونان في قلب الخائف الرأهب » ^(٤).

وعنه ﷺ « المؤمن بين المخافتين : ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه ، و عمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك ، فهو لا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه إلا الخوف » ^(٥).

وعنه ﷺ قال : « لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، و لا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف و يرجو » ^(٦).

❖ بيان أن الافضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدلهما ❖

إعلم أن الأخبار في فضل الخوف و الرجاء قد كثرت و ربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما و قول القائل : الخوف أفضل أم الرجاء ؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل : الخبز أفضل أم الماء ، و جوابه أن يقال : الخبز أفضل للجائع و الماء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل و إن كان العطش أغلب كان الماء أفضل و إن استويا فهما متساويان و هذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه و الخوف و الرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله و الاغترار به فالخوف أفضل ، و إن كان الأغلب هو اليأس و القنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل و كذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل و يجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل على التأويل الذي يقال : الخبز أفضل من السكنجيين إذ يعالج بالخبز مرض الجوع و

(١) فاطر : ٢٨ .

(٢) المائدة : ٤٤ .

(٣) الطلاق : ٢ .

(٤) الكافي ج ٢ ص ٦٩ تحت رقم ٧ .

(٥) و (٦) المصدر ج ٢ ص ٧١ تحت رقم ١٢ و ١١ .

بالسكنجيين مرض الصفراء و مرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصي والاعتذار على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام ، وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا يمازجه المحبة ممازجتها للرجاء وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصح لا لفظ الأفضل فيقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصي وأما المتقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ، روي أن علياً عليه السلام قال لبعض ولده : ديا بني خف الله خوفاً ترى أنك إن أتيت بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، و ارج الله رجاء ترى كأنك لو أتيت بسيئات أهل الأرض غفرها لك .

أقول : ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي بإسناده عن الحارث بن المغيرة أو أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قلت له : ما كان في وصية لقمان ؟ قال : كان فيها الأعاجيب و كان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه : خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك ، و ارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك ، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام : كأن أبي يقول : إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران نور خيفة و نور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا » (١) .

وفي مصباح الشريعة (٢) عنه عليه السلام قال : « الخوف رقيب القلب والرجاء شفيع النفس ، ومن كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً ، وإليه راجياً و هما جناحا الإيمان يطير بهما العبد المحقق إلى رضوان الله و عينا عقله يصير بهما إلى وعد الله و وعيده و الخوف طالع عدل الله باتقاء وعيده والرجاء داعي فضل الله وهو يحيى

(١) المصدر ج ٢ ص ٦٧ تحت رقم ١ .

(٢) المصدر باب الثامن و الثمانون .

القلب والخوف يميت النفس ، قال النبي ﷺ : « المؤمن بين خوفين خوف ماضى و خوف ما بقي » و يموت النفس يكون حيوة القلب ، و بحياة القلب يكون البلوغ إلى الاستقامة ، و من عبد الله على ميزان الخوف و الرجاء لا يضل و يصل إلى مأموله ، و كيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما يختم صحيفته و لاله عمل يتوسل به استحقاقاً و لا قدرة له على شيء ، و لا مفر و كيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز و هو غريق في بحر آلاء الله و نعمائه من حيث لا تحصي و لا تعد و المحب يعبد ربه على الرجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر ، و الزاهد يعبد على الخوف .

قال أويس لهزم بن حيان : قد عمل الناس على الرجاء فقال : بل نعمل على الخوف ، و الخوف خوفان ثابت و معارض فالثابت من الخوف يورث الرجاء و المعارض منه يورث خوفاً ثانياً ، و الرجاء رجاءان عاكف و باد ، فالعاكف منه يورث خوفاً ثابتاً يقوى نسبة المحبة ، و البادي منه يصحح أهل العجز و التقصير و الحياء . قال أبو حامد : فاذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه و رجاءه أمّا غلبة الرجاء في غالب الناس يكون مستنده الاغترار و قلّة المعرفة ، و لذلك جمع الله بينهما في وصف من أثنى عليهم . فقال : « يدعون ربهم خوفاً و طمعاً » (١) و قال : « يدعوننا رغباً و رهباً » (٢) فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس و ترك العمل و قطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل و داعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط و ليس بخوف ، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل و يكدر جميع الشهوات و يزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الفرور فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف و الحث و دون اليأس الموجب للقنوط .

و قد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، و من عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ، و من عبده بالخوف و

الرَّجاء استقام في محبة الأذكار ، فإذن لابد من الجمع بين هذه الأمور . وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الاشراف على الموت أما عند الموت فالأصلح غلبة الرَّجاء و حسن الظن لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل . وقد انقضى وقت العمل ، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ، ثم لا يطبق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نياط قلبه و يعين على تعجيل موته ، وأما روح الرَّجاء فإنه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاءه ولا ينبغي أن يفارق أحدا الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله ، فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، و الرَّجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب و المقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله حتى يثمر المعرفة المحبة فإن المصير إليه و القدوم بالموت عليه ، و من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته و من فارق محبوبه اشتدت محنته و عذابه ، فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء و الأصحاب فهذا رجل محابته كلها في الدنيا فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فموته خروج من الجنة و حلوله بينه و بين ما يشتهي ، و لا يخفى حال من يحال بينه و بين ما يشتهي ، فأما إذا لم يكن له محبوب سوى الله و سوى ذكره و معرفته و الفكر فيه فالدنيا و علائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابته فموته قدوم على محبوبه و خلاص من السجن و لا يخفى حال من أفلت من السجن و خلّى بينه و بين محبوبه بلا مانع و لامكدر ، فهذا أوّل ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعد الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن و لا خطر على قلب بشر و فضلاً عما أعد الله للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة و رضوا بها و اطمأنوا إليها من الأنكال و السلاسل و الأغلال و ضروب الخزي و النكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين و يلحقنا بالصالحين و لا مطعم في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله و لا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب و قطع العلائق عن كل ما سوى الله من جاء و مال و

وطن فالأولى أن ندعو بمادعابه نبينا ﷺ إذ قال : « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقرّ بني إلى حبك ، واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد » (١) والغرض أن غلبة الرّجاء عند الموت أصلح لأنّه أجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنّه أحرّق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب ، ولذلك قال ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلّا وهو يحسن الظنّ بربه » (٢) . وقال تعالى : « أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء » (٣) والمقصود من ذلك كلّهُ أن يحبّب الله إلى نفسه ، ولذلك أوحى الله إلى داود عليه السلام : أن حبّني إلى عبادي ، فقال : بماذا ؟ فقال : بأن تذكّر لهم آلائي ونعمائي . فإن غاية السعادة أن يموت العبد محباً لله ، وإنّما تحصل المحبة بالمعرفة وبإخراج حبّ الدنيا من القلب حتّى يصير الدّنيا كالسجن المانع من المحبوب .

❖ بيان الدّواء الذي به يستجلب حال الخوف ❖

إعلم أنّ ما ذكرناه في دواء الصّبر وشرحناه في كتاب الصّبر والشكر هو كاف في هذا الغرض لأنّ الصّبر لا يمكن إلّا بعد حصول الخوف والرّجاء لأنّ أوّل مقامات الدّين اليقين الذي هو عبارة عن قوّة الايمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ، وهذا اليقين بالضرورة يهيّج الخوف من النار والرّجاء للجنة والخوف والرّجاء يقويان على الصبر ، فإنّ الجنة قد حفّت بالمكّله فلا يصبر على تحملها إلّا بقوة الرّجاء والنار قد حفّت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلّا بقوة الخوف ، ولذلك قال عليّ عليه السلام : « من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرّمات » (٤) ثمّ يؤدّي مقام الصبر المستفاد من

(١) ما عثرت عليه الا ما رواه الترمذى ج ١٣ ص ٢٧ من حديث أبي الدرداء عنه صلى الله عليه وآله قال : كان من دعاء داود عليه السلام وذكر مثله بأدنى اختلاف .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٦٧ من حديث جابر وقد تقدم .

(٣) أخرجه العاظم ج ٤ ص ٢٤٠ من حديث واثلة بن الاسقع .

(٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٠ . والكافي ج ٢ ص ٥٠ .

الخوف والرّجاء إلى مقام المجاهدة والتجرّد لذكر الله والفكر فيه على الدّوام ويؤدّي دوام الذّكر إلى الانس ، ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ويؤدّي كمال المعرفة والانس إلى المحبّة ويتبعها مقام الرّضا والتوكل وسائر المقامات ، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدّين ، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرّجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصّبر وبه المجاهدة والتجرّد لله باطناً وظاهراً ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلّا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلّا المحبّة والانس ومن ضرورة المحبّة الرّضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل فاذن فيما ذكرنا في علاج الصبر كفاية ولكنّا نفرد الخوف بكلام جملي .

فنقول : الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما أعلى من الآخر ، ومثاله أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حيّة ربّما كان لا يخاف وربّما مدّ اليد إلى الحيّة لباخذها ويلعب بها ، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحيّة وهرب منها فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو يرتعد فرائسه ويحتال في الهرب قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه في الهرب فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحيّة وسمها وخاصيتها و سطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته ، وأمّا خوف الابن فأنما كان بمجرد التقليد لأنّه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنّه لا يخاف إلّا من سبب مخوف في نفسه فيعلم أنّ السبع مخوف ولا يعرف وجهه ، فإذا عرفت هذا المثل فاعلم أنّ الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه ، والثاني الخوف منه في ذاته ، فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحد والمطلعين على سرّ قوله : « ويحدّركم الله نفسه » (١) ، وقوله : « اتّقوا الله حقّ تقاته » (٢) فأما الأوّل فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنّة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وبسبب ضعف الإيمان وإنّما تزول الغفلة بالوعظ والتذكير وللازمة الفكر في أهوال القيامة وأصناف العذاب في الآخرة ويزيد أيضاً

(١) آل عمران : ٢٩ .

(٢) آل عمران : ١٠٢ .

بالنظر إلى الخائفين و مجالستهم و مشاهدة أحوالهم ، فإن فانت المشاهدة فالسمع لا يخلو عن تأثير ، و أما الثاني و هو الأعلى أن يكون الله هو المخوف أعني أن يخاف البعد و الحجاب عنه و يرجو القرب منه كما قال ذوالنون : خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي . وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ^(١) و لعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرّد التقليد يضاهي خوف الصبي من الحيّة تقليداً لأبيه و ذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف و يزول عن قرب حتى أن الصبي ربما يرى المعزّم يقدم على أخذ الحيّة فينظر إليه و يغتر به فيتجرّ به أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه ، و العقائد التقليديّة ضعيفة في الغالب إلّا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكّدة لها على الدوام و بالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات و اجتناب المعاصي مدّة طويلة على الاستمرار ، فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة و عرف الله خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف و من قعد به القصور عن الارتقاء إلى يقاع الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار و الآثار فيطالع أحوال الخائفين و أقوالهم و ينسب عقولهم و مناصبهم إلى مناصب الرّاجين المفرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأولياء و العلماء و أما الآمنون فهم الفراعنة و الجهال و الأغبياء ، أمّا رسولنا ﷺ فهو سيّد الأولين و الآخرين أشدّ الناس خوفاً حتى روي أن رجلاً من أهل الصفة استشهد فقالت أمّه : هنيئاً لك الجنّة هاجرت إلى رسول الله و قتلت في سبيل الله ، فقال ﷺ : وما يدريك لعله كان يتكلّم بما لا ينفعه و يمنع ما لا يضرّه ، ^(٢) وفي حديث آخر أنه دخل ﷺ على بعض أصحابه و هو عليل فسمع امرأة تقول : هنيئاً لك الجنّة ، فقال ﷺ : من هذه المتألّية على الله تعالى فقال المريض : هي أمّي يا رسول الله ، فقال : وما يدريك لعلّ فلاناً كان يتكلّم بما لا يعنيه و يبخل بما لا يغنيه ، ^(٣) وكيف لا

(١) فاطر : ٢٨ .

(٢) تقدم عن البيهقي في الشعب و غيره باختلاف في اللفظ في كتاب آفات اللسان .

(٣) تقدم أيضاً في آفات اللسان .

يخاف المؤمنون كلهم وهو الذي يقول : « شيبني سورة هود وأخواتها سورة الواقعة و إذا الشمس كورت وعم يتسائلون » ^(١) فقال العلماء : لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى : « ألا بعداً لعاد قوم هود » « ألا بعداً لثمود » « ألا بعداً للمدين كما بعدت ثمود » ^(٢) مع علمه عليه السلام بأنه لو شاء الله ما أشر كوا إذ لو شاء الله لأتى كل نفس هديها وفي سورة الواقعة : ليس لوقعنها كاذبة خافضة رافعة ^(٣) أي جف القلم بما هو كائن و تمت السابقة حتى نزلت الواقعة إماماً خافضة قوماً كانوا مرفوعين في الدنيا ، و إماماً رافعة قوماً كانوا مخفوضين في الدنيا ، وفي سورة التكوين أهوال القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله : « إذا الجحيم سعرت » وإذا الجنة أزلقت ^(٤) علمت نفس ما أحضرت ^(٥) و في عم يتسائلون « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » ^(٥) وقوله « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » ^(٦) و القرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولولم يكن فيه إلا قوله تعالى : « وإني لفجار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » ^(٧) لكان كافياً إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها ، وأشد منه قوله تعالى : « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين » ^(٨) وكقوله تعالى : « ليسأل الصادقين عن صدقهم » ^(٩) وقوله : « سنفرغ لكم آية الثقلان » ^(١٠) وقوله : « أفأمنوا مكر الله - الآية - » ^(١١) وقوله : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذته أليم شديد » ^(١٢) وقوله : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً - الآيتين » ^(١٣) وقوله : « وإن منكم إلا واردها -

(١) أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم والبيهقي في المصابيح ج ٢ ص ١٨٢ وقد تقدم .

(٢) السورة : ٦٠ و ٦٨ و ٩٥ .

(٣) السورة : ٢ و ٣ . (٤) السورة : ١٠ إلى ١٢ .

(٥) و (٦) السورة : ٤١ و ٣٨ . (٧) طه : ٨٢ .

(٨) القصص : ٦٧ . (٩) الأحزاب : ٨ .

(١٠) الرحمن : ٣١ . (١١) الاعراف : ٩٩ .

(١٢) هود : ١٠٢ . (١٣) مريم : ٨٥ و ٨٦ .

الآية ، (١) وقوله تعالى : « اعملوا ما شئتم » (٢) وقوله : « من كان يريد حرث الآخرة
نزله في حرثه - الآية - » (٣) وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره - الآيتين - » (٤)
وقوله تعالى : « و قدمننا إلى ما عملوا من عمل - الآية - » (٥) وكذلك قوله تعالى :
« والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق »
وتواصوا بالصبر » (٦) فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران وإنما كان خوف
الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى : « فلا يأمن
مكر الله إلا القوم الخاسرون » (٧) حتى روي أن النبي ﷺ وجبرئيل عليه السلام بكيا من
خوف الله عز وجل فأوحى الله تعالى إليهما لم تبكيا و قد أمنتكما ، فقلا : ومن
يأمن مكره » (٨) وكانتهما إذ علما أن الله تعالى هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما
على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله : « قد أمنتكما » ابتلاء لهما و امتحاناً ومكراً
بهما حتى أن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمتا المكر وما وفيا بقولهما كما أن إبراهيم
عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال : حسبي الله وكانت هذه من الدعاوي العظام فامتحن
وعورض بجبرئيل في الهواء حتى قال : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، فكان ذلك وفاء
بمقتضى قوله : حسبي الله ، فأخبر الله تعالى عنه وقال : « وإبراهيم الذي وفى » (٩)
أي بموجب قوله : « حسبي الله » وبمثل هذا أخبر عن موسى صلوات الله عليه حيث قال :
« إننا نخاف أن يقرط علينا أو أن يطغى » فقال تعالى : « لا تخافا إنني معكما أسمع
وأرى » (١٠) ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يأمن
مكر الله و التباس الأمر عليه حتى جد عليه الأمن وقيل له : « لا تخف إنك أنت

(١) مريم : ٧١ .

(٢) الشورى : ٢٠ .

(٣) الزلزال : ٧ .

(٤) الفرقان : ٢٣ .

(٥) المعصر : ٢ و ٣ و ٤ .

(٦) الاعراف : ٩٧ .

(٧) قال العراقي : أخرجه ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر و رويناه في

مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش بسند ضعيف .

(٨) النجم : ٣٧ .

(٩) طه : ٤٩ .

الأعلى ، و ما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله ومن عرف حقيقة المعرفة بقصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال عيسى عليه السلام لما قيل : « أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » ^(١) قال : « إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولأعلم ما في نفسك » وقال : « إن تعدُّ بهم فإنهم عبادك وإن تغفلهم - الآية - » ^(٢) فوضَّح الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من بين لعلمه بأنَّه ليس إليه من الأمر شيء ، وأنَّ الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حدِّ المعقولات و المألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس و حدس وحسبان فضلاً عن التحقيق و الاستيقان وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين وليس إلا التسليم و استقراء خفيَّة السابقة من جلِّي الأسباب الظاهرة على القلب و الجوارح فمن يسرَّ له أسباب الشرِّ و حيل بينه و بين أسباب الخير وأحكمت علاقته مع الدُّنيا فكأنَّه كشف له على التحقيق سرُّ السابقة التي سبقت له بالشقاوة إذ كلُّ ميسر لما خلق له و إن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدُّنيا منقطعاً وبظاهره و باطنه على الله مقبلاً كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثقاً به ، ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف اشتعالاً و لا يمكنها من الانطفاء و كيف يؤمن تغيير الحال و قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وإنَّه أشدَّ تقلباً من القدر في غليانها وقد قال مقلب القلوب : « إنَّ عذاب ربِّهم غير مأمون » ^(٣) و أجهل الناس من آمنه وهو يناديه بالتحذير من الأمن و لولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ رُوِّح قلوبهم بروح الرُّجاء لا حترقت قلوبهم من نار الخوف ، فأسباب الرُّجاء رحمة الله لخواص الله وأسباب الغفلة رحمته على عوام الخلق من وجه إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب .

وروي في أخبار الأنبياء أن نبياً شكاً إلى الله تعالى الجوع و القمل و العري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه : عبدي أما رضيت أن عصمت قلبك

(١) البائدة : ١١٦ .

(٢) البائدة : ١١٨ .

(٣) السراج : ٢٨ .

أن تكفري حتى تسألني الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد ربيت يا رب فاعصمني من الكفر . فإذن إذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ، وسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والتناق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ولذلك اشتد خوف الصحابة من التناق ومانعوا به التناق الذي هو ضد أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً منافقاً وله علامات كثيرة . قال عليه السلام : « أربع من كنّ فيه منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، وإن كانت فيه خصلة منهن ففیه شعبة من التناق حتى يدعها : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خان ، وإذا خاصم فجر » وفي لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » ^(١) وقد فسّر الصحابة و التابعون التناق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صدق إذ قيل : إن من التناق اختلاف السرّ والعانية ، واختلاف اللسان والقلب ، والمدخل والمخرج ، ومن الذي يخلو عن هذه المعاني ، بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونسي كونها منكراً بالكليّة ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة ^(٢) : أن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله عليه السلام فيصير بها منافقاً إنّي لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرّات و كان أصحاب رسول الله عليه السلام يقولون : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ في أعينكم من الشعر كنّا نعدّها على عهد رسول الله عليه السلام من الكبائر . وقال بعضهم : علامة التناق أن تكره من الناس ما تأتي مثله وأن تحبّ على شيء من الجور وأن تبغض على شيء من الحق ^(٣) ، وقيل : من التناق أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك ، وأشدّ من ذلك ما روي أن قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه

(١) أخرجه البخاري ج ١ ص ١٦ باب علامة المنافق من حديث عبد الله بن عمر .

باللفظ الثاني .

(٢) أخرجه أحمد من حديث حذيفة ج ٥ ص ٣٨٤ .

(٣) في بعض النسخ [وأن تعث على شيء من الخير ولا تفعله] .

فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه فقال : تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال :
 كنّا نعدّ هذا اتفاقاً على عهد رسول الله ﷺ . وهذا حذيفة كان قد خصّ بعلم المنافقين
 وأسباب النفاق ^(١) وكان يقول : إنّه يأتي على القلب ساعة يمتلي بالآيمان حتّى لا
 يكون للنفاق فيه مغررٌ إبّرة و يأتي عليه ساعة يمتلي بالنفاق حتّى لا يكون للإيمان
 فيه مغررٌ إبّرة . فقد عرفت بهذا أنّ خوف العارفين من سوء الخاتمة وأن سببه أمور
 مقدّمة منها البدع ومنها المعاصي ومنها النفاق ومنى يخلو العبد عن شيء من جملة
 ذلك وإن ظنّ أنّه قد خلا عنه فهو النفاق إذ قيل : من آمن بالنفاق فهو منافق . وقال
 بعضهم لبعض العارفين : إنّي أخاف على نفسي النفاق فقال : لو كنت منافقاً لما خفت
 النفاق ، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفاً منهما ولذلك قال
 رضي الله عنه : « العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين
 أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا
 بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » ^(٢).

❦ (بيان معنى سوء الخاتمة) ❦

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة فما معنى سوء
 الخاتمة ؟ فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين إحداهما أعظم من الأخرى فأما الرتبة
 العظيمة الهائلة أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إمّا الشكّ وإمّا
 الجحود فتقبض الروح على حالة غلبة الجحود أو الشكّ فيكون ما غلب على القلب
 من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله أبداً وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلّد ،
 والثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حبٌّ أمر من أمور الدنيا وشهوة
 من شهواتها فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتّى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره
 فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا
 وصارفاً وجهه إليها ، ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومهما حصل

(١) راجع المجلد الاول ص ١٦٢ ، و مسند أحمد ج ٥ ص ٣٨٦ الى ٣٩٠ .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب مرسلًا وقد تقدم في ذم الدنيا .

الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلّا المحجوبين عنه فأمّا المؤمن السليم قلبه عن حبّ الدنيا المصروف همّه إلى الله تعالى تقول له النار : جزياً مؤمناً فإنّ نورك أطفأ لهبي فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حبّ الدنيا فالأمر مخطر لأنّ المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضادّ الصفة الغالبة عليه إذ لا تصرف في القلوب إلّا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع في عمل ولا مطمع في الرُّجوع إلى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة إلّا أنّ أصل الإيمان وحبّ الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب بمدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فإنّه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه في القوة إلى حدّ مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب وإن كان أقلّ من ذلك طال مكثه في النار ولولم يكن إلا مثقال حبة فلا بدّ وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين .

فإن قلت : فما ذكرته يقتضي أن يسرع النار إليه عقيب موته فما باله يؤخّر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدّة ؟ فاعلم أنّ من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الإيمان ونور القرآن بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحّت به الأخبار وهو أنّ القبر إمّا حفرة من حفر النيران أو روضة من رياض الجنة ،^(١) وأنّه قد يفتح إلى قبر المعبّد سبعون باباً من الجحيم ، كما وردت به الأخبار^(٢) فلا يفارقه روحه إلّا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة وإنّما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكّر ونكير عند الوضع في القبر والتعذيب بعده ، ثمّ المناقشة في الحساب والافتضاح على ملاّ الأَشْهاد في القيامة ، ثمّ بعد ذلك خطر الصراط وهول الزبانية إلى آخر ما وردت به الأخبار^(٣) فلا

(١) أخرجه الترمذی والبيهقي في المصابيح ج ٢ ص ١٨٢ . وفي الكافي ج ٣ ص ٢٤٢ من حديث أبي عبد الله عليه السلام قال : «ان للقبر كلاماً في كل يوم يقول : أنا بيت النربة ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الدود ، أنا القبر ، أنا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» .

(٢) راجع بحار الانوار ج ٣ باب أحوال المجرمين والبتقين في البرزخ .

(٣) تقدم جلها في كتاب العقائد و راجع بحار الانوار كتاب المعاد .

يزال الشقي متردداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب و هو في جملة الأحوال معذبٌ إلا أن يتممه الله برحمته ، ولا تظنُّ أنَّ محلَّ الإيمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبدِّدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فيجتمع الأجزاء المتفرقة و يعاد إليها الرُّوح التي هي محلُّ الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إمّا في حواصل طير خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإمّا على حالة تضادّ هذه الحالة إن كانت - والعياذ بالله - شقية .

فإن قلت : فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أنَّ أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها أمّا الختم على الشكِّ والجحود فينحصر سببه في فئتين أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد و تمام الصلاح في الأعمال كالمتدع الزاهد فإنَّ عاقبته خطيرة جداً وإن كانت أعماله سالحة و لست أعني مذهباً و أقول : إنّه بدعة فإنَّ بيان ذلك يطول القول فيه ، بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرّجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ما هو عليه ، إمّا برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصوم وعليه يعول وبه يقترّ ، وإمّا أخذاً بالتقليد بمن هذا حاله فإذا قرب الموت و ظهرت له ناصية ملك الموت و اضطرب القلب بما فيه قريباً ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء و مبادي سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً بعميقناً له عند نفسه لم يظنَّ بنفسه أنّه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصّة لا لتجائه فيه إلى رأيه الغائل وعقله الناقص ، بل ظنَّ أنَّ كلَّ ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكّه فيها فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن ينبب ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء و خرجت روحه على الشرك و العياذ بالله منه ، فهو لا هم المرادون بقوله تعالى :

« وهداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »^(١) ويقول تعالى : « هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »^(٢) .
وكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة اشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتكشف له الأمور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحالة سبباً للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقیة الاعتقادات ، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر ، والزهد والصالح لا يكفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق ، والبله بمعزل عن هذا الخطر أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً مجمللاً راسخاً كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً ولا أصغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال عليه السلام : « أكثر أهل الجنة البله »^(٣) ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله جميعاً وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاد نفي التشبيه ومنعهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤودة ومسالكه وعرة ، والعقول عن درك جلال الله قاصرة ، وهداية الله بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة ، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض و القلوب لما أُلقي إليها من مبدء النشوء آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر ، ثم الطباع بحب الدنيا مشعوفة وعليها

(١) الزمر : ٤٧ . (٢) الكهف : ١٠٣ و ١٠٤ .

(٣) أخرجه ابن شاهين في الأفراد وابن عساكر عن جابر بسند ضعيف هكذا

« دخلت الجنة فاذا أكثر أهلها البله » . و رواه البراد وقد تقدم .

مقبلة وشهوات الدُّنيا بمخنقها آخذة و عن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام في الله وصفاته بالرُّأي والمعقول مع تفاوت في قرائحهم واختلافهم في طباعهم وحرص كلُّ جاهل منهم على أن يدَّعي الكمال والإحاطة بكنه الحقَّ انطلقت ألسنتهم بما يقع لكلِّ واحد منهم وتعلّق ذلك بقلوب المصغين إليهم وتأكّد ذلك بطول الإلف فيهم و انسُدَّ بالكلّيّة طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرّضوا لما هو خارج عن حدِّ طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كلُّ جاهل على ما وافق طبعه بظنٍّ وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الإيمان ويظنُّ أنه ما قنع به ^(١) من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين وسيعلمون نبأه بعد حين وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسنْتَ ظنَّكَ بالأَيَّامِ إذْ حسنتَ ✽ ولم تخفِ سوء ما يَأْتِي به القدر
وسالمتك اللَّيالي فَاغتررتَ بها ✽ وعند صفو اللَّيالي يحدث الكدر
واعلم يقيناً أن كلَّ من فارق الإيمان الساذج بالله ورسله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرّض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملنظم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد والهلاك أغلب عليه وكلُّ نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إمّا مع الأدلة التي حرّروها في تعصباتهم أو دون الأدلة فإن كان شاكاً فيه فهو فاسد الدِّين وإن كان واثقاً به فهو آمن من مكر الله مغترُّ بعقله الناقص وكلُّ خائض في البحث فلا ينفكُّ عن هاتين الحالتين إلّا إذا جاوز حدَّ العقل إلى نور المكالشفة الذي يشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر وأنّى يتيسّر وإنّما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام والذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة .

وأما السبب الثاني فهو ضعف الإيمان في الأصل ثم استيلاء حبِّ الدُّنيا على القلب ، ومهما ضعف الإيمان ضعف حبُّ الله تعالى وقوي حبُّ الدُّنيا فيصير

(١) في الإحياء « ما وقع به » .

بحيث لا يبقى في القلب موضع لحبّ الله إلا من حيث حديث النفس لا يظهر له أثر في مخالفة النفس و العدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود ويتراكم ظلمة الدُّنوب على القلب و لا يزال يطغى ما فيه من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريناً فاذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعني حبّ الله ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدُّنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فينال القلب باستشعار فراق الدُّنيا و يرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدّر الله من الموت و كراهة ذلك من حيث إنّه من الله فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله بدل الحب كما أن الذي يحب ولده حباً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء و هلك هلاكاً مؤبداً ، و السبب الذي يقضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حبّ الدُّنيا والرّكون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حبّ الله ، فمن وجد في قلبه حبّ الله أغلب من حبّ الدُّنيا و إن كان يحبّ الدُّنيا أيضاً فهو أبعد عن هذا الخطر و حبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة و هو الداء العضال و قد عمّ أصناف الخلق وذلك كلّهم لقلّة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبّه إلا من عرفه ولهذا قال تعالى : **«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقتر فتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره»** (١) فاذا من فارقته روحه في حال خطرة الانكار على الله تعالى بباله وظهور بغض فعل الله تعالى بقلبه في تعريقه بينه و بين أهله وماله و سائر محابه فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبه فيقدم على الله تعالى قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً فلا يخفى ما يستحقّه من الخزي و النكال وأمّا الذي يتوقى على الحبّ فإنّه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي يتحمّل مشاقّ الأعمال ووعثاء الأسفار طمعاً في لقائه فلا يخفى

ما يلقاه من الفرح و السرور بمجرّد القدوم فضلاً عمّا يستحقّه من لطائف الإكرام و بدائع الإنعام ، و أمّا الخاتمة الثانية الّتي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النّار فلها أيضاً سببان أحدهما كثرة المعاصي و إن قوي الإيمان و الآخر ضعف الإيمان و إن قلّت المعاصي وذلك لأنّ مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلّف و العادة وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره طاعة الله و إن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربّما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدُّنيا و معصية من المعاصي فيتقيّد بها قلبه و يصير محجوباً عن الله تعالى ، فالذّي لا يقارف الذّنْب إلّا القينة بعد القينة فهو أبعد عن هذا الخطر و الذّي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو بعيد جدّاً عن هذا الخطر ، و الذّي غلبت عليه المعاصي و كانت أكثر من طاعاته و قلبه بها أرواح منه بالطاعة فهذا الخطر عظيم في حقّه جدّاً و يعرف هذا بمثال و هو أنّه لا يخفى عليك أنّ الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال الّتي عهدها طول عمره حتّى أنّه لا يرى إلّا ما يماثل مشاهداته في اليقظة و حتّى أنّ المراهق الذّي يحتمل لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدّة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ، ثمّ لا يخفى أنّ الذّي قضى عمره في التفقّه يرى من الأحوال المتعلّقة بالعلم والعلماء أكثر ممّا يراه النّجار الذّي قضى عمره في النجارة و النجار يرى من الأحوال المتعلّقة بأسباب النجارة أكثر ممّا يراه الطيّب و الفقيه لأنّه إنّما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلّف أو لسبب آخر من الأسباب و الموت شبيه النوم ولكنّه فوقه ولكن سكرات الموت و ما يتقدّمه من الغشية قريب من النوم فيقتضي ذلك تذكّر المألوفات و عودها إلى القلب و أحداً لأسباب المرجّحة لحصول ذكره في القلب طول الإلّف و طول الإلّف بالمعاصي والطاعات أيضاً مرجّح ولذلك يخالف أيضاً منامات الصالحين منامات الفسّاق فيكون غلبة الإلّف سبباً لأنّ يتمثّل صورة فاحشة في قلبه و تميل إليها نفسه فربّما يقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته و إن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرحى

له الخلاص منها وكما أن ما يخطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله يعرف بعضها ولا يعرف بعضها كما أننا نعلم أن الخاطر ينقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة ، وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس معه ، أما المشابهة فبأن ينظر إلى جهيل فيتذكر جهيلاً آخر ، وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جهيل فيتذكر قبيحاً ويتأمل في شدة التفاوت بينهما ، وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبته له وإنما يكون ذلك بواسطة أو واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى ثان ومنه إلى ثالث ، ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة وكذلك لانتقالات الخواطر في المنام أسباب من هذا الجنس وكذا عند سكرات الموت ، ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال إلى المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطام نفسه عنها وفي قمع الشهوات من القلب ، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخليئة النفس عن الشر عدة و ذخيرة لحالة سكرات الموت فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلتقن عند الموت كلمتي الشهادة وهو يقول : خمسة سنة أربعة . و كان مشغول النفس بالحساب الذي طال فيه إلفه له قبل الموت ، وقال بعض العارفين من السلف : إن العرش جوهره يتلأ نوراً فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فإذا كان في سكرات الموت كشفت له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذ من الحياء والخوف ما يجلبه عن الوصف . و ما ذكره صحيح و سبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فإن النائم يدرك ما سيكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ و هو جزء من أجزاء النبوة فإذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله و الاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير

داخلة تحت الاختيار دخولاً كلياً وإن كان لطول الإلصاق فيه تأثير ، فلهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كان كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكليّة تحت الضبط وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي يصف لي وجوب حسن أدب المريـد لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال : حكيت لشيخي أبي القاسم الكرمانـي مناماً لي وقلت : رأيتك أنك قلت لي كذا ، فقلت لم ذلك ؟ قال : فهجرتني شهراً ولم يكلمني وقال : لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في المنام وهو كما قال : إذ قل ما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكشفة ، وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي بجميع العمر في طاعة الله من غير معصية ، فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاءك ونياحتك ويدوم حزرك وقلقك كما سنحكى من أحوال الأنبياء والأولياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيّجة لنار الخوف من قلبك ، وقد عرفت بهذا أن أعمال المرء كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح وأن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكل جدّاً ، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول : إني لأعجب ممن هلك كيف هلك ولكنني أعجب ممن نجا كيف نجا . ولذلك قال حامد اللقاف : إذا صعدت الملائكة بروح المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا : كيف نجاهذا من ديننا ، فسديها خيارنا ، وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الخواطر أعظم النظام

من أمواج البحر ، و إنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال **رَبِّهِمْ** : « إِنَّ الرُّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا فَوَاقٌ نَاقَةٌ فَيَخْتَمُ لَهُ بِمَا سَبَقَ بِهِ الْكِتَابُ » ^(١) ولا يتسع فَوَاقٌ نَاقَةٌ لأعمال توجب الشقاوة بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف ، وقال سهل : رأيت كأنني دخلت الجنة فرأيت ثلاثمائة نبي فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا؟ قالوا : سوء الخاتمة ولاجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها وكان موت الفجأة مكروهاً أما الموت فجأة فلا أنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن أمثالها إلى أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة وأما الشهادة فلا أنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب ، إذ لا يهجم على صف القتال موطناً نفسه على الموت إلا حباً لله وطالباً لمرضاته ، و بايعاً دنياه بآخرته ، وراضياً بالبيع الذي بايعه الله به إذ قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمِ الْجَنَّةُ » ^(٢) و البائع راغب عن المبيع لاحتالة و مخرج حبه من القلب ، ومجرّد حبّ العوض المطلوب في قلبه ، ومثل هذه الحالة قد يغلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصفاً القتال سبب زهوق الروح على مثل هذه الحالة ، وهذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فإن من هذا حاله و إن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلّت عليه الأخبار . و إذبان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها و اظب على ذكر الله وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك و عن الفكر فيها قلبك و احترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهديك فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوّف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك

(١) روى نحوه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف كما في الجامع

(٢) التوبة : ١١١ .

الصغير و قد تقدم .

إذ يمكن أن تختطف فيه روحك، فراقب قلبك في كل تطريفة وإيّاك أن تهمله لحظة فـلعلّ تلك اللّحظة خاتمتك، هذا مادمت في يقظتك وأما إذا نمت فإيّاك أن تنام إلّا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلّا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر واعلم قطعاً أنّه لا يغلب عند النوم على قلبك إلّا ما كان قبل النوم غالباً عليه وأنّه لا يغلب في النوم إلّا ما كان غالباً قبل النوم ولا ينبعث عن نومك إلّا على ما غلب على قلبك في نومك، والموت والبعث شبه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد إلّا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلّا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء إلّا على ما عاش عليه ولا يحشر إلّا على ما مات عليه، وتحقق قطعاً و يقيناً أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة، وراقب أنفاسك ولحظّاتك وإيّاك أن تغفل عن الله طرفة عين فإنك إذا فعلت ذلك كلّك كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والناس كلّهم هلكت إلّا العالمون، والعالمون كلّهم هلكت إلّا العاملون، والعالمون كلّهم هلكت إلّا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كلّ فـضول و الضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطرب كاره له ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجه فهما ضرورتان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همّتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همّتك، واعلم أنّه إن كان همّتك ما يدخل في بطنك فقيمته ما يخرج من بطنك. وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلّا التقوي على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور من مأكولك في وقته وقدره وجنسه أمّا الوقت فأقلّه أن تكتفي في اليوم واللييلة بمرّة واحدة فتواظب على الصوم، وأمّا قدره فأن لا تزند على ثلث البطن، وأمّا جنسه

فأن لا تطلب اللذائذ من الأطعمة بل تقنع بما يتفق فإن قدرت على هذه الثلاث وسقط عنك مؤونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حلّه فإنّ الحلال يعزّ ولا يفي بجميع الشهوات ، وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحرّ والبرد وستر العورة وكلّ ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع زمانك و يلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرّة والطمع أخرى من الحرام والشبهة ، وقس بهذا ما تدفع به الحرّ والبرد عن بدنك ، فكلمّا حصل مقصود اللباس إن لم يكتف به من خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومردّ بعده ، بل كنت ممّن لا يملأ بطنه إلا التراب ، وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفاً والأرض مستقراً فإن غلبك حرّ أو برد فعليك بالمساجد فإن طلبت مسكناً خاصّاً طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثمّ إنّ يتيسر لك فقصدت من الحائظ سوى كونه حائلاً بينك وبين الأبصار ومن السقف سوى كونه دافعاً للأمطار فأخذت ترفع الحيطان وتزيّن السقوف فقد تورطت في مهواة يتعدّد رقيك منها وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصر عليها تفرّغت لله و قدرت على التزوّد لآخرتك والاستعداد لخاتمتك وإن جاوزت حدّ الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله في أيّ واد أهلكك فاقبل هذه النصيحة ممّن هو أحوج إلى النصيحة منك .

واعلم أنّ متّسع التدبير والتزوّد والاحتياط هذا العمر القصير فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويقك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك ، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه لضعف خوفك إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فإننا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن تزيل بعض القساوة عن قلبك فإنّك تتحقّق أنّ عقل الأنبياء والعلماء والأولياء وعلمهم ومكانهم عند الله لم تكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتدّ بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشياً عليه وبعضهم يختر ميتاً

إلى الأرض ولاغرو أن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة
وأشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج
منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون .

﴿ بيان أحوال الانبياء والاولياء والملائكة عليهم السلام في الخوف ﴾

روت عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذ تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير
وجهه ويقوم و يتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله (١)
وقرأ ﷺ آية في سورة الحاقة فصعق (٢) . وقال الله تعالى : « وخر موسى صعقاً » (٣)
و رأى رسول الله ﷺ صورة جبرئيل عليه السلام بالاً بطح فصعق (٤) .

وروي أنه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأنه كازيز الرجل (٥) .
وقال ﷺ : « ما جاءني جبرئيل قط إلا وهو يرعد فرقاً من الجبار » (٦) وقيل :
لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبرئيل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله تعالى :
إليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء فقالا : يا رب ما نأمن منك فقال الله تعالى

(١) راجع صحيح البخارى ج ٦ ص ١٦٧ فى عنوان « سورة الاحقاف » .

(٢) المعروف فى ما يروى من هذه القصة أنه قرأ « أن لدينا أنكالا وجميعاً و
طعاماً ذا غصة و عذاباً أليماً » فصعق . كما أخرجه عبد بن حميد و محمد بن نصر عن
حمران ، وأحمد فى الزهد كما فى الدر المنثور ج ٦ ص ٢٧٩ .

(٣) الاعراف : ١٤٣ .

(٤) أخرج البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبى صلى الله عليه وآله
و سلم جبرئيل أن يريه صورته فقال : ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل
يرتفع و يسير فلما رآه صعق ، و رواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلاً بلفظ « فنفى
عليه » . (المعنى)

(٥) أخرجه الترمذى فى الشمائل ص ٢٣ باب ما جاء فى بكاء رسول الله .

(٦) قال العراقى : لم أجده بهذا اللفظ و روى أبو الشيخ فى كتاب المعظمة عن ابن
عباس قال : ان جبرئيل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد
فرائصه فرقاً من عذاب الله - الحديث - .

هكذا كوننا لا تأمنا مكري ، وعن النبي ﷺ أنه سأل جبرئيل بمالي لا أرى ميكائيل يضحك فقال جبرئيل ﷺ ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار ،^(١) ويقال : إن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم .

و روي أن داود عليه السلام كان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إليّ روحي ، سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادتك أيداوا خطيئتي فكلمهم عليك يدلني فبؤساً للقائطين من رحمتك . وقال الفضيل : بلغني أن داود ﷺ ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال : ارجعوا لا أريدكم إنما أريد كل بكاء ، على خطيئته فلا يستقبلني إلا البكاء ، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء ، وكان يعاتب في كثرة البكاء ، فيقول : دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء ، قبل تخريق العظام و اشتعال الحشا ، و قبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

و قال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال : إلهي يح صوتي في صفا ، أصوات الصديقين . وروي أنه ﷺ لما طال بكاءه ولم ينفعه ذلك فضاقت ذرعه واشتد غمه قال : يا ربّ أما ترحم بكائي فأوحى الله تعالى إليه : يا داود نسيت ذنبك و ذكرت بكاءك ، فقال : إلهي وسيدي سوف أنسى ذنبي و كنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلمني الطير على رأسي وأنست الوحوش إلى محرابي ، إلهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ذاك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، يا داود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي و توجّهت بتاج وقاري وشكالي الوحدة فزوّجته حواء أمتي وأسكنته جنّتي عصاني فطرده عن جوارى عريان ذليلاً ، يا داود اسمع منّي - و الحق أقول - أطعنا فأطعناك و سألنا فأعطيناك و عصيتنا فأهملناك و إن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٣ ص ٢٢٤ من حديث أنس .

وقال يحيى بن أبي كثير: بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعة أيام كل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء ، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرجه إلى البرية منبر فيأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقرى البلاد وماحولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع فينادي فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال : فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتأتي الطير من الأوكار وتأتي العذارى من خدورهن ويجتمع الناس لذلك اليوم ويأتي داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به و سليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ، ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال : يا أبناء قد مررت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء ، فبينما هو كذلك إذ ناداه بعض عباده بني إسرائيل يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك ، قال : فخر مغشياً عليه فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أنى بسرير فحمله عليه ثم أمر منادياً ينادي ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فيحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يا من قتله ذكر النار ، يا من قتله خوف الله ، ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول : يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجي ربه فيأتي سليمان فيقف على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعر ويقول : يا أبناء تقو بهذا على ما تريد فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم .^(١) وقال يزيد الرقاشي: خرج داود ذات يوم بالناس يعظمهم ويخوفهم فخرج في أربعين ألفاً فمات منهم ثلاثون ألفاً وما رجع إلا في عشرة آلاف ، قال : وكان له جاريتان اتخذهما حتى إذا جاء الخوف

(١) قصة من الاسرائيليات توجد في بعض كتب الصوفية وكذا التي قبلها وبعدها .

وسقط فاضطرب قعدتاعلى صدره وعلى رجليه مخافة أن يتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت .
وقال ابن عمر : دخل يحيى بن زكريا عليه السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان سنين
فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهديهم قد خرّ قوا
الترابي وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس فهاله ذلك
فرجع إلى أبويه فمر بصبيان يلعبون فقالوا له : يا يحيى هلم بنا للعب فقال : إنني
لم أخلق للعب قال : فأتى أبويه فسألهما أن يدرّعا الشعر فعلا فرجع إلى بيت
المقدس وكان يخدمه نهاراً ويصبح فيه ليلاً حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج
ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن
وقد انقطع رجليه في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول : وعزتك وجلالك لأذوق
بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك فسأله أبواه أن يطر على قرص كان معهما
من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبرّ فردّه أبواه إلى
بيت المقدس فكان إذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر ويبكي زكريا
عليه السلام لبكائه حتى يغمر عليه فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خديّه وبدت
أضراسه للناظرين فقالت له أمة : يا بني لو أذنت لي أن أتخذ لك شيئاً توارى به أضراسك
عن الناظرين ، فأذن لها فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خديّه فكان إذا قام
يصلي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعة أتت إليها فمصرتهما فإذا رأى دموعه
تسيل على ذراعي أمّه قال : اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم
الراحمين ، فقال له زكريا : يا بني إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقرّ عيناى فقال
يحيى : يا أبت إن جبرئيل أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء
قال زكريا عليه السلام : فابك يا بني .

أقول: وهذا الحديث رواه شيخنا الصدوق في المجلس الثامن من كتاب عرض
المجالس بإسناده عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ مع زيادة ونقصان واختلاف في ألفاظه
وروى في المجلس الرابع والخمسين من طريق الخاصة عن ليث بن أبي سليم قال: سمعت
رجلاً من الأنصار يقول : بينما رسول الله ﷺ مستظلّ بظل شجرة في يوم شديد

الحرّ إذ جاء رجل ينزع ثيابه ثمّ جعل ينمرّ غ في الرّمضاء، يكوي ظهره مرّة ويطنه مرّة وجبهته مرّة ويقول : يا نفس ذوقي فماعد الله أعظم ممّا صنعت بك. ورسول الله ينظر إلى ما يصنع ثمّ إنّ الرّجل لبس ثيابه ثمّ أقبل فأومأ إليه النبي ﷺ بيده ودعا فقال له: يا عبد الله لقد رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه فمحملك على ما صنعت؟ فقال الرّجل : حملني على ذلك مخافة الله وقلت لنفسي : يا نفسي ذوقي فماعد الله أعظم ممّا صنعت بك فقال النبي ﷺ : لقد خفت ربك حقّ مخافته وإنّ ربك ليباهي بك أهل السماء ثمّ قال لأصحابه : يا معشر من حضر ادنوا من صاحبكم حتّى يدعولكم فدعوا منه فدعا لهم وقال : « اللهمّ اجمع أمرنا على الهدى واجعل التقوى زادنا والجنة مأبنا » .

قال أبو حامد : وقال عيسى عليه السلام : معاشر الحوارين خشية الله وحبّ الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا ، بحقّ أقول لكم : إنّ أكل الشعر والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل . وقيل : كان الخليل عليه السلام إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلاً فيميل فيأتيه جبرئيل فيقول له : الجبار يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلاً يخاف خليله ، فيقول : يا جبرئيل إنّي إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلّتي ، وقيل كان يسمع أزيز قلبه عليه السلام إذا كان في الصلاة مسيرة ميل خوفاً من ربه ، وقال علي عليه السلام وقد سلّم عن صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلّب يده : لقد رأيت أصحاب محمد وآله عليه السلام فلم أر اليوم شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون صُغراً شُعْناً غُبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراو حون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا وذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الرّيح وحملت أعينهم بالدموع حتّى تبلّ ثيابهم والله لكأني بالقوم باتوا غافلين . ثمّ قام فما رئي بعد ذلك ضاحكاً حتّى ضربه ابن ملجم ، وكان علي بن الحسين عليه السلام إذا توضأً اصفرّ لونه فيقول له أهله : ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم ^(١) أقول : ومن (١) تقدم جميع ذلك في المجلد الاول كتاب أسرار الصلاة و المجلد الرابع كتاب أخلاق النبوة و كتاب آداب الشيعة و أخلاق الامامة .

طريق الخاصة روي في الكافي حديث علي عليه السلام عن الباقر عليه السلام هكذا صلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه بالناس الصبح بالعراق فلما انصرف وعظم فبكى وأبكاهم من خوف الله ثم قال : « أما و الله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله ﷺ و أنهم ليصبحون ويمسون شعناً غير أخمصاً بين أعينهم كركب المعزى يبيتون لربهم سجداً و قياماً يراوحون بين أقدامهم وجباههم يناجون ربهم ويسألونه فكأن رقابهم من النار و الله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون » (١).

و في رواية أخرى كأن « زفير النار في آذانهم ، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر كأنما القوم ماتوا غافلين ، قال : ثم قال : فما رأيي ضاحكاً حتى قبض عليه » (٢).

و عن الصادق عليه السلام قال : « كان علي بن الحسين عليه السلام إذا قام في الصلاة تغير لونه فإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً » (٣) . و عنه عليه السلام قال : « كان أبي يقول : كان علي بن الحسين إذا قام في الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه إلا ما حرك الرِّيح منه » (٤) . و الأدعية المنسوبة إليه تنادي بشدة خوفه و كذا الندبات المنقولة عنه .

وقد أكثر أبو حامد من ذكر خوف الصحابة والسلف ههنا بما ليس في ذكره فائدة فإن منهم من هو معروف عندنا بالتقوى والضلال ومنهم من هو مجهول الحال . قال : فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء ونحن أجدر بالخوف منهم ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب و كمال المعرفة و إلفليس أمننا لقلّة ذنوبنا وكثرة طاعتنا ، بل قادتنا شهوتنا و غلبت علينا شقوتنا و صدّتنا عن ملاحظة أحوالنا

(١) المصدر ج ٢ ص ٢٣٥ والشعث تفرق الشعر وعدم اصلاحه ومشطه . والاغبر: المتلطيخ بالغبار ، والركب : ما بين أسافل أطراف الفخذ . وراجع بيانه المصدر في الهامش .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٣٦ . وماد يبيد أى اضطرب وفي بعض النسخ [باتوا غافلين]

(٣) الكافي ج ٣ ص ٣٠٠ تحت رقم ٥ .

(٤) الكافي ج ٣ ص ٣٠٠ تحت رقم ٤ .

غفلتنا وقسوتنا ، فلا قرب الرُّحيل ينبهنا ، ولا كثرة الذُّنوب تحرُّ كُنَّا ، ولا مشاهدة
أحوال الخائفين تخوِّفنا ، ولا خطر الخاتمة يزعجنا ، فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضلِهِ
وجوده أحوالنا فيصلحنا إن كان تحريك اللِّسان بمجرَّد السؤال دون الاستعداد ينفعنا
ومن العجائب أنَّنا إذا أردنا المال في الدُّنيا زرَعنا وغرسنا واتَّجرنا وركبنا البحار
و البراري و خاطرنا و إن أردنا طلب رتبة العلم تفقَّهنا و تعبنا في حفظه و تكررهِ
و سهرنا و نجتهد في طلب أقدارنا ولا نثق بضمن الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول :
اللَّهُمَّ أرزقنا ، ثمَّ إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بالسنتنا :
اللَّهُمَّ اغفر لنا وارحمنا ، والذي إليه رجأؤنا و به اغترارنا ينادينا ويقول : « وأن ليس
للإنسان إلَّا ما سعى » ، « ولا يغركم بالله الغرور » ، « يا أيُّها الإنسان ما غرُّكَ بربِّكَ
الكريم » كلُّ ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا ، فما هذه إلاَّ محنة
هائلة إن لم يتفضَّل الله علينا بتوبة نصوح تداركنا بها و يجيرنا فنسأل الله تعالى أن
يتوب علينا بل نسأله أن يشوِّق إلى التوبة سرائر قلوبنا و أن لا يجعل حرَّكة اللِّسان
بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممَّن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل إذا سمعنا
الوعظ بكينا و إذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من
هذا . فنسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا بالتوفيق والرُّشد علينا بمنِّه وفضله ، و لنقتصر
من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردنا فإنَّ القليل من هذا يصادف القلب القابل
فيكفي و الكثير منه و إن أفيض على القلب الغافل فلا يغني ، ولقد صدق الرَّاهب
الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني و كان من خيار العبَّاد أنَّه رآه على باب
بيت المقدس واقفاً كهيفة المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقأ دمه من كثرة البكاء
قال عيسى : فلمَّا رأيته هالني منظره فقلت : أيُّها الرَّاهب أوصني بوصيته أحفظها
عنك ، فقال : يا أخي بما ذا أوصيلك إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته
السباع و الهوامُّ فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفتربه السباع أو يسهو فتنهشه
الهوامُّ فهو مذعور القلب وجل فهو في المخافة في ليله و إن آمن المغترُّون ، وفي الحزن
في نهاره و إن فرح البطالون فافعل ، ثمَّ ولى و تركني فقلت : لوزدتنني شيئاً عسى

أن ينقني فقال : الظمآن يجرئه من الماء أيسره . فقد صدق ، فإن القلب الصافي يحرّكه أدنى مخافة و القلب الجامد ينبو عنه كل المواعظ ، وما ذكره من تقديره إنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحوناً باصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لاتزال تفتنرك وتنهشك إن سهوت عنها لحظة إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء و وضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها ، فترى بعينك العقارب والحيات قد أهدقت بك في قبرك وإنما هي صفاتك الحاضرة لك الآن قد انكشف لك صورها فإن أردت أن تقتلها وتقرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم فؤادك فضلاً عن ظاهر بشرتك وجسمك والسلام .

هذا آخر كتاب الخوف والرُّجاء من ربيع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء ، ويتلوه كتاب الفقر والزهد ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله وسلامه .



كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربيع المنجيات من المحجة البيضاء، في تهذيب الأحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي ، تسبّح له الرّمال ، وتسجد له الضلال ، وتندكدك^(١) من هيئته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللّازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم و أتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدو والآصال ، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتّى لاحظ بضياؤه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استبح دون مبادي إشرافه كلّ حسن وجمال ، فاستنقل كلّ ما صرفه عن مشاهدته و ملازمته غاية الاستئصال ، وتمثّل لمظاهر الدّنيا في صورة امرأة جميلة تميس^(٢) وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوها ، عجنّت من طينة الخزي ، وضربت في قالب النكال ، وهي متلفعة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال و قد نصبت حباثلها في مدارج الرّجال فهي تقتنصهم^(٣) بضروب المكر والاغتيال ، ثم لا تجتري معهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقيّدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبتليهم بأنواع البلايا والانكال فلمّا انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال زهدوا فيها زهدا مبغض لها فتر كوها وتر كوا التفاخر والنكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال والجمال ، واثقين منه بوصال ليس دونه فصال ، و مشاهدة

(١) أى تهدمت .

(٢) ماس الرجل ببس ميساً و ميساناً فى المشى أى يتمايل و يتبختر .

(٣) أى تصيدهم .

أبدية لا يعترها فنا، ولا زوال ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وآله خير آل .
 أمّا بعد فإن الدنيا عدوة لله تعالى بغرورها ضلّ من ضلّ ، و بمكرها زلّ
 من زلّ فحبّها رأس الخطايا والسيئات ، و بغضها أمّ الطاعات وأُمّ الحسنات ،
 وقد استقصينا ما يتعلّق بوصفها و ذمّ الحبّ لها في كتاب ذمّ الدنيا من ربيع المهلكات
 ونحن الآن نذكر فضل البغض لها و الزهد فيها فإنّه رأس المنجيات ، فلا مطمع
 في النجاة إلّا بالانقطاع عن الدنيا والبعدها ولكن مقاطعتها إمّا أن تكون بانزوائها
 عن العبد و يسمّى ذلك فقراً ، و إمّا بانزواء العبد عنها و يسمّى ذلك زهداً ، ولكلّ
 واحد منهما درجة في نيل السعادات و حظّ في الإعانة على الفوز و النجاة ، و نحن
 الآن نذكر حقيقة الفقر و الزهد و درجاتهما و أقسامهما و شروطهما و أحكامهما
 ونذكر الفقر في شطر من الكتاب و الزهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر .

الشرط الاول من الكتاب في الفقر وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر
 مطلقاً ، وبيان فضيلة خصوص الفقراء ، وبيان فضل الفقير على الغني ، و بيان أدب
 الفقير في فقره ، و بيان أدبه في قبول العطاء ، و بيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان
 مقدار الغني المحرّم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين .

✽ (بيان حقيقة الفقر واختلاف احوال الفقير واساميّه) ✽

إعلم أنّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه فأما فقد ما لا حاجة إليه فلا
 يسمّى فقراً ، و إن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً ،
 وإذا فهمت هذا لم تشكّ في أنّ كلّ موجود سوى الله فهو فقير لأنّه محتاج إلى دوام
 الوجود في ثائي الحال و دوام وجود مستفاد من فضل الله وجوده ، فإن كان في الوجود
 موجودٌ ليس وجوده مستفاداً له من غيره فهو الغني المطلق ولا يتصور أن يكون مثل
 هذا الموجود إلّا واحداً فليس في الوجود إلّا غني واحد ، وكلّ من عداه فإنّهم
 محتاجون إليه ليمدّ وجودهم بالدوام وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى : «والله
 الغني» وأنتم الفقراء» (١) وهذا معنى الفقر مطلقاً ولكنّا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق

بل الفقر من المال على الخصوص و إلا فققر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأن حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال وهو الذي نريد الآن بيانه فقط فنقول : كل فاقد للمال فإننا نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجاً إليه في حقه ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونختص كل حال باسم لتتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها .

الحالة الأولى : وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال بكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد .
الثانية : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه و لو أتاه رضي به وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً .

الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه عفواً صفواً أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة نسميه قانعاً إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة .

الرابعة : أن يكون تركه الطلب لعجزه و إلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص .

الخامسة : أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً كيف ما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية وقلما يتفك هذه الحالة عن الرغبة فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه .

أقول : الاضطراب المنضم إليه الزهد إن تصور فليس من الخصال المحمودة بل ولا من شيم العقلاء فضلاً عن أن يكون أقصى درجات الزهد فإن الجائع المضطراً

إلى الخبز الفاقد له لو آتاه الله الخبز عفواً صفواً فتأذى به وهرب من أخذه عد من المجانين ولا يأتني لفضله بيان في كلام أبي حامد وكيف نبين ما ليس ، ثم التقسيم الذي ذكره ليس بسديد وذلك لأن المضطر ليس قسيماً للأربعة الآخر بل هو أيضاً ينقسم إلى بعضها كما أشار إليه أبو حامد فيما بعد ، فالصواب أن يقسم الفقير أولاً إلى مضطر وغير مضطر ثم يقسم غير المضطر إلى الأقسام الأربعة ، ويقسم المضطر إلى بعضها مما يتصور ثم يذكر ترتيب الفضل في أقسام كل منهما على حدة .

قال : و وراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذى وإن فقده فكذلك .

أقول : لم نجد فرقاً بين هذه الحالة والحالة الثانية التي سماها رضا .
قال : فمن هذه حاله فلو كانت الدنيا بحذاقيرها في يده وخزائنه لم تضربه إذ هو يرى الأموال في خزانة الله لا في يد نفسه فلا يفرق بين أن يكون في يده أو في يد غيره ، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً و ليفهم من هذا الاسم معنى يفارق معنى اسم الغني المطلق على الله تعالى وعلى من كثر ماله من العباد فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده و إنما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقاءه في يده فهو إذن فقير من وجه ، وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضاً ، فإنه ليس يتأذى به ليجتاح إلى الخروج وليس يفرح به ليجتاح إلى البقاء وليس فاقداً له ليجتاح إلى الدخول في يده فغناه إلى العموم أميل فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله أقرب ، و إنما قرب العبد من الله بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكننا لانسمي صاحب هذه الحالة غنياً بل مستغنياً ليبقى الغنى إسماء لمن له الغنى المطلق عن كل شيء ، وهو الله سبحانه ، وأما هذا العبد وإن استغنى عن المال وجوداً وعدماً فلم يستغن عن أشياء أخر سواء لم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه فإن القلب المقيّد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق ، والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة لأنها

بين أصبعين من أصابع الرحمن فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقاً عليه مع هذا الكمال إلا مجازاً .

واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار و صاحب هذه الحالة من المقر بين فلا جرم صار الزهد في حقه نقصاناً إذ حسنات الأبرار سيئات المقر بين وهذا لأن الكار في الدنيا مشغول بالدنيا كما أن الرغب فيها مشغول بها ، والشغل بما سوى الله حجاب عن الله تعالى إذ لا بعد بينك وبين الله حتى يكون البعد حجاباً فإنه أقرب إليك من جبل الوريد ، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه فإنه أقرب إليك منك ، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره و شغلك بنفسك و شهواتك شغل بغيره و أنت لا تزال مشغولاً بنفسك و شهوات نفسك ، فلذلك لا تزال محجوباً عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله و المشغول ببغض نفسه أيضاً مشغول عن الله بل كل ما سوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستنقاله و كراهة حضوره فهو في حالة اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه و لو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق و نقص فيه ، فكذا النظر إلى غيره لبغضه شرك فيه و نقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضاً وحباً فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله تعالى كالمشغول بحبها إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب إذ يرجى له أن ينهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود ، فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة و علقها وتسييرها ولكن أحدهما مستدبر للكعبة والآخر مستقبل لها فهما سيان بالاضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة و مشغول عنها ، ولكن حال المستقبل

محمود بالاضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها وليس بمحمود بالاضافة إلى المعتكف في الكعبة والملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يغتفر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه بل الدنيا عائق عن الله و لا وصول إليه إلا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الداراني من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة . فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن طريق الحج ، فإن قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أُريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وإن أُريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالاضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص ، ونقصان بالاضافة إلى درجة المستغني ، بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك الماء والمال ، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذك بأن تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذك إلا في قدر الضرورة مع أن الماء محتاج إليه كما أن المال محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغي الماء الكثير ، بل تقول : أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ، ولا أبخل به على أحد ، فهكذا ينبغي أن يكون المال لأن الخبز والماء واحد في الحاجة وإنما الفرق بينهما في قلة أحدها وكثرة الآخر وإذا عرفت الله وثقت بتدبيره الذي دبّر به العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حياً كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل .

فإن قلت : فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار فأقول : كما نفروا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم فنفروا عنها وراءها ولم يجمعوه في القرب والروايا يدبرونه مع أنفسهم بل تركوه في الأنهار والبراري للمحتاجين لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله ﷺ وإلى بعض أصحابه فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها إذ كان قد استوى عندهم الماء والمال والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فإما أن ينقل عن من خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى

الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ، وإما أن ينقل عن قوي بلوغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنقار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقنتوا به في الترك إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا كما يفرُّ الرُّجل المعزَّم بين يدي أولاده من الحياة لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه بأنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها وهلكوا ، و السير بسيرة الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء فقد عرفت إذن أن المراتب ستة وإن أعلاه رتبة المستغني ، ثم الزاهد ، ثم الراضي ، ثم القانع ، ثم الحريص . أقول: بل عرفت أنها لا تزيد على خمسة لأن الراضي والمستغني واحد . قال : واسم الفقر يطلق على هذه الخمسة وأما تسمية المستغني فقيراً فلا وجه له بهذا المعنى ، بل إن سمي فقيراً فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجاً إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرُّ بها فإنه أحقُّ باسم العبد من الغافلين وإن كان اسم العبد عامّاً للخلق فكذلك اسم الفقير عامٌّ ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحقُّ باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين ، فإذ عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قوله ﷺ: « أعوذ بك من الفقر » ^(١) و « كاد الفقر أن يكون كفراً » ^(٢) لا يناقض قوله: « أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنني في ذمرة المساكين » ^(٣) إذ فقر المضطرُّ هو الذي استعاذ منه ، والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأل في دعائه .

❦ (بيان فضيلة الفقر مطلقاً) ❦

أما من الآيات فيدلُّ عليه قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا

(١) أخرجه النسائي ج ٨ ص ٢٦٢ في حديث وفيه « من شرفقة الفقر » وأخرجه

أبو داود وابن ماجه .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في كتاب الجسد .

(٣) أخرجه الحاكم وابن ماجه تحت رقم ٤١٢٦ ومصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم

من ديارهم وأموالهم»^(١) وقال تعالى : «للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف»^(٢) ساق الله تعالى الكلام في معرض المدح ثم قدّم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار ، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر .

أقول: لا دلالة في الآيتين على مدح الفقر وإنما سيقنا لبيان أن مصرف المال إنما هو الفقراء المتصفون بهذه الصفات وكذا في بعض الأخبار التي ذكرها مثل ما رواه أنه عليه السلام «سئل من خير الناس؟ فقال : فقير يعطي جهده» فإنه يدل على فضيلة الإعطاء جهداً مطلقاً لا على فضيلة الفقر مطلقاً فلنطو منها ما لا دلالة فيه والمتشابه وما أوله به وما لا اعتماد على قائله ، ولنذكر ما ورد عن أهل البيت عليه السلام من طريق الخاصة ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : «كلما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته»^(٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : «وكل الرزق بالحق و وكل الحرمان بالعقل و وكل البلاء بالصبر»^(٤) وعن الصادق عليه السلام : «إن فقراء المؤمنين يتقلبون في رياض الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً قال : سأضرب لك مثل ذلك ، إنما مثل ذلك مثل سفينتين مرّ بهما على عاشر فنظر في أحدهما فلم يرفيها شيئاً فقال : أسربوها و نظر في الأخرى فإذا هي موقورة فقال : احبسوها»^(٥) و عنه عليه السلام «في مناجاة موسى عليه السلام : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل : ذنبٌ عجّل عقوبته»^(٦).

و عنه عليه السلام قال لرجل : «أما تدخل السوق أمّا ترى الفاكحة تباع والشيء

(١) العشر : ٨ . (٢) البقرة : ٢٧٣ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٢٦١ تحت رقم ٤ .

(٤) المصدر ج ٨ ص ٢٢١ تحت رقم ٢٧٧ .

(٥) المصدر ج ٢ ص ٢٦٠ تحت رقم ١ .

(٦) المصدر ج ٢ ص ٢٦٣ تحت رقم ١٢ .

مما تشتهي قال : بلى فقال : أما إن لك بكل ما تراه فلا تقدر على شرائه حسنة^(١).
وعنه عليه السلام : إذا كان يوم القيامة قام عنق من الناس حتى يأتوا باب الجنة
فيضربوا باب الجنة فيقال لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن الفقراء ، فيقال لهم : أقبل
الحساب ؟ فيقولون : ما أعطيتونا شيئاً تحاسبونا عليه ، فيقول الله تعالى : صدقوا
ادخلوا الجنة^(٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام والفقر أذين للمؤمن من العذار على خد الفرس^(٣).
وعن الكاظم عليه السلام : إن الله تعالى يقول : إنني لم أغن الغني لكرامة به علي^٤
ولم أفقر الفقير لهوان به علي^٥ وهو مما ابتليت به الأغنياء بالفقراء و لولا الفقراء
لم يستوجب الأغنياء الجنة^(٤).

قال أبو حامد : و قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد
أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر والجهد»^(٥).
و روي «أن جبرئيل نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمد إن الله يقر عليك
السلام ويقول : أتجب أن أجعل هذه الجبال ذهباً ويكون معك حيث ما كنت فأطرق
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساعة ثم قال : يا جبرئيل : إن الدنيا دار من لا دار له و مال من
لا مال له وقد يجمعها من لا عقل له فقال له جبرئيل : يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت
في الحياة الدنيا وفي الآخرة»^(٦).

و روي أن عيسى عليه السلام مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة فأيقظه فقال :

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٦٤ تحت رقم ١٧ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٦٤ تحت رقم ١٩ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٢٦٥ تحت رقم ٢٢ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٢٦٥ تحت رقم ٢٠ .

(٥) ما عثرت على أصل له .

(٦) ملفق من حديثين روى الترمذي من حديث أبي أمامة : « عرض على ربي ليجعل
لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب ولكن أشبع يوماً و أجوع يوماً - الحديث - » وقال
حسن : ولاحمد من حديث عائشة « الدنيا دار من لا دار له - الحديث - » وقد تقدم (المعنى).

يا نائم قم فاذكر الله ، فقال : ما تريد مني إني قد تركت الدنيا لأهلها ، فقال له :
فمن إذن يا حبيبي . وصر موسى عليه السلام برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه
ولحيته في التراب وهو مشرر بعباءة فقال : يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع فأوحى
الله إليه : يا موسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبدي بوجهي كله زويت عنه الدنيا
كلها .

وعن أبي رافع قال : وفد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه
فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال : قل له : يقول لك محمد : أسلفني أو بعني
دقيقاً إلى هلال رجب قال : فأتيته فقال : لا والله إلا أبرهن فأخبرت رسول الله ﷺ
بذلك فقال : أما والله إني لأمين في أهل السماء وأمين في أهل الأرض ولو باعني أو
أسلفني لأديت إليه إذ ذهب بدرعي هذا إليه فأرهنه ، فلما خرجت نزلت هذه الآية
« ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا - الآية - تعزية
له عن الدنيا » (١) .

وقال رسول الله ﷺ : «الفقر أزين للمؤمنين من العذار الحسن على خد الفرس» (٢) .
وقال رسول الله ﷺ : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسمه وعنده طعام يومه
فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » (٣) .

و قال رسول الله ﷺ : « تحفة المؤمن في الدنيا الفقر » (٤) و قال عيسى عليه السلام : بشدة
يدخل الغنى الجنة .

وفي خبر عن أهل البيت عليه السلام أنه عليه السلام قال : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحب
الحبّ البالغ اقتناه قيل : وما اقتناه قال : لم يترك له أهلاً ولا مالاً » (٥) .

(١) قال العراقي : أخرجه الطبراني بسند ضعيف .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث شداد بن أوس و سعيد بن مسعود بسند
ضعيف كما في الجامع الصغير و رواه الكليني في الكافي بسند حسن كما تقدم .

(٣) أخرجه ابن ماجه وغيره و قد تقدم .

(٤) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ كما في الجامع الصغير .

(٥) أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني (المعنى) .

وعن النبي ﷺ أنّه قال : «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتد الله تعالى إليه كما يعتد الرّجل إلى الرّجل في الدّنيا فيقول وعزّتي وجلالي ما زويت الدّنيا عنك لهوائك عليّ ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة أخرج يا عبدي : إلى هذه الصفوف فمن أطعمك فيّ أو كساك في يريد بذلك وجهي فخذ به بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فينخل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذه بيده ويدخله الجنّة » (١).

أقول : وهذا الحديث في الكافي عن الصادق عليه السلام هكذا « إن الله يلتفت يوم القيامة إلى فقراء المؤمنين شبيهاً بالمعتد إليهم فيقول : وعزّتي وجلالي ما أفقرتكم في الدّنيا من هوان بكم عليّ ولترون ما أصنع بكم اليوم فمن زوّد أحداً منكم في دار الدّنيا معروفاً فخذوا بيده فأدخلوه الجنّة قال : فيقول رجل منهم : ياربّ إنّ أهل الدّنيا تنافسوا في دنياهم فنكحوا النّساء ولبسوا الثياب اللينة وأكلوا الطّعام وسكنوا الدّور وركبوا المشهور من الدّوابّ فأعطني مثل ما أعطيتهم فيقول الله تبارك وتعالى : لك ولكلّ عبد منكم مثل ما أعطيت أهل الدّنيا منذ كانت الدّنيا إلى أن انقضت الدّنيا سبعون ضعفاً » (٢).

قال أبو حامد : وقال عليه السلام : « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيدي فإنّ لهم دولة فقالوا : يا رسول الله وما دولتهم قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم : انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً فخذوا بيده ثمّ امضوا به إلى الجنّة » (٣).

وقال عمران بن حصين : كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاء فقال : «يا عمران إنّ لك عندنا منزلة وجاهاً فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ؟ فقلت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقام وقمت معه حتّى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال : السلام.

(١) أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف نحوه (المغني).

(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٦١ تحت رقم ٩.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن عليّ عليهما السلام باختلاف في آخره.

كما في الجامع الصغير .

عليكم أَدْخُل؟ فقالت : ادخل بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله ، فقال : أنا ومن معي؟ قالت : و من معك يا رسول الله ، قال عمران : فقالت فاطمة : و الذي بعثك بالحق نبيّاً ما عليّ إلاّ عبادة قال : اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت : هذا جسدي قد واريته فكيف لي برأسي فألقى إليها ملأة كانت عليه خلقة فقال : شدّي بها على رأسك ، ثم أذنت له فدخل فقال : السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت فقال: أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على ما بي إنني لست أقدر على طعام آكله وقد أضر بي الجوع فبكى رسول الله ﷺ فقال : لا تجزعي يا ابنتاه فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث وإنني لأكرم على الله منك ولو سألت ربّي لأطعمني ولكن آثرت الآخرة على الدنيا، ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها : أبشري فوالله إنك لسيّدة نساء أهل الجنة ، قالت : فأين آسية امرأة فرعون ، و مريم بنت عمران ، و خديجة بنت خويلد؟ قال : آسية سيّدة نساء عالمها ، و مريم سيّدة نساء عالمها ، و خديجة سيّدة نساء عالمها ، وأنت سيّدة نساء عالمك إنكنّ في بيوت من قصب لأذى فيها ولا صخب ولا نصب ، ثم قال لها : اقنعي بآب من معك فوالله لقد زوّجتك سيّداً في الدنيا سيّداً في الآخرة ،^(١)

و روي عن عليّ عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أبغض الناس فقراءهم و أظهروا عمامة الدنيا وتكالبوا على جمع الدّراهم و الدّنانير رماهم الله بأربع خصال بالقحط من الزّمان ، والجور من السلطان ، و الخيانة من ولاة الأحكام و الشوكة من الأعداء ، »^(٢) و قال يحيى بن معاذ: حبك للمفقر من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامات الصالحين ، و فرارك من صحبتهم من علامة المنافقين . و في الأخبار من الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : احذر أن أمقتك فتسقط من عيني ، فأصبّ عليك الدنيا صبّاً .

﴿ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والغانمين والصادقين ﴾

قال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن هدى إلى الإسلام و كان عيشه كفافاً وقنع به ، »^(٣)

(١) تقدم سابقاً . (٢) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس . (المفني)

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه و قد تقدم .

و قال ﷺ : « يا معشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » ^(١) فالأول للقانع وهذا للرّاضي ويكاد يشعر هذا بمفهومه أن الحريص لا ثواب له على فقره ، ولكن العمومات الواردة في فضل الفقراء يدل على أن له ثواباً كما سيأتي تحقيقه ، فاعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه ، وربّ راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله ولا كراهة في فعله فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر .

و روي عن النبي ﷺ « أن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الجنة جب المساكين والفقراء لصبرهم ، هم جلساء الله يوم القيامة » ^(٢) .

و روي عن عليّ عن النبي ﷺ أنه قال : « أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الرّاضي عن الله تعالى » ^(٣) . وقال ﷺ : « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً » ^(٤) .
و قال ﷺ : « ما من أحد غني ولا فقير إلا ودّ يوم القيامة أنه كان أو تي قوتاً في الدنيا » ^(٥) .

و أوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام : اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي ، قال : و من هم قال : الفقراء الصادقون .

و قال عليه السلام : « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً » ^(٦) . و قال ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين صفوتي من خلقي فنقول الملائكة : ومن هم ياربنا فيقول : فغراء المسلمين القانعون بعطائي الرّاضون بتقدي ادخالهم الجنة فيدخلونها »

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف جداً

كما في المغني و روى نحوه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) أخرجه أبو بكر بن لال من حديث ابن عمر ، كما في الجامع الصغير .

(٣) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ .

(٤) أخرجه المسلم ج من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤٠ .

(٦) ما عثرت على أصل له .

و يأكلون و يشربون و الناس في الحساب يتر : دون ^(١) فهذا في القانع والراضي
فأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب .

أقول : ومن طريق الخاصة الخبران اللذان مرأ في أول الباب .

و عن الصادق عليه السلام : « مكتوب في التوراة ابن آدم كن كيف شئت كما تدب
تُدان ، من رضي من الله بالقليل من الرزق قبل الله منه اليسير من العمل ، و من
رضي باليسير من الحلال خفت مؤنته وزكت مكسبته و خرج من حد الفجور ^(٢) .
و عنه عليه السلام : « إن الله يقول : يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه وذلك أقرب
له مني . و يفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه و ذلك أبعد له مني ^(٣) .

و عن أمير المؤمنين عليه السلام « ابن آدم إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن
أيسر ما فيها يكفيك وإن كنت إنما تريد ما لا يكفيك فإن كل ما فيها يكفيك ^(٤) .
و عن الباقر عليه السلام « إياك أن تطمح بصرك إلى من هو فوقك فكفى بما قال الله
لنبيه صلى الله عليه وآله : « ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ^(٥) » و قال : « ولا تمدن عينيك إلى
ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ^(٦) » فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر
عيش رسول الله صلى الله عليه وآله فإني ما كان قوته الشعير و حلواه التمر و وقوده السعف إذا
وجده ^(٧) .

قال أبو حامد : و أما الآثار في القناعة والرضا فكثيرة ، قال : وكان أبوذر
يوماً جالساً في الناس فأتته امرأة فقالت له : أجلس بين هؤلاء والله ما في البيت هبة

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس كما في المغنى .

(٢) الكافي ج ٢ ص ١٣٨ تحت رقم ٤ .

(٣) الكافي ج ٢ ص ١٤١ تحت رقم ٥ .

(٤) الكافي ج ٢ ص ١٣٨ تحت رقم ٦ .

(٥) التوبة : ٥٦ . هكذا « ولا تعجبك » .

(٦) طه : ١٣١ .

(٧) الكافي ج ٢ ص ١٣٧ تحت رقم ١ ، والوقود : الحطب وما يوقد به . والسعف :

أغصان النخل ما دامت في الغوص .

ولا سعة^(١) فقال : يا هذه إن بين أيدينا عقبة كؤوداً لا ينجو منها إلا كل مخف فرجعت وهي راضية .

وقال ذوالنون : أقرب الناس إلى الكفر ذوفاقة لا صبر له . وقيل لبعض الحكماء : ما مالك ؟ فقال : التجمّل في الظاهر ، والقصد في الباطن ، واليأس بما في أيدي الناس . وروي أن الله تعالى قال في بعض الكتب المنزلة : يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن . وقيل في القناعة :

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس ✧ واقنع بئس فإن العز في اليأس
واستغن عن كل ذي قريب وذو رحم ✧ إن الغني من استغنى عن الناس
وقيل :

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه ✧ مقدراً أي باب منه يغلقه
مفكراً كيف تأتبه منيته ✧ أغادياً أم بها يسري فتطرقه
جمعت مالا ففكر هل جمعت له ✧ يا جامع المال أيا ما تفرقه
المال عندك مخزون لوارثه ✧ ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة ✧ إن الذي قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه ✧ والوجه منه جديديس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها ✧ لم يبق في ظلها همّاً يؤرقه

✧ (بيان فضيلة الفقر على الغنى) ✧

أقول : ذكر أبو حامد أولاً في بيان فضيلة الفقر على الغنى أقوال الناس و اختلافهم وحججهم و بسط الكلام في ذلك بما لا طائل تحته ثم قال : فكشف الغطاء في هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضيلته والدنيا ليست محدودة لعينها ولكن لكونها

(١) أي ما في البيت مشروب ولا مأكول (النهاية) .

عائقة عن الوصول إلى الله ولا الفقر مطلوب لعينه ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله وعدم الشاغل عنه ، وكم من غني لم يشغله الغنى مثل سليمان بن داود عليه السلام ، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد ، وغاية المقصود في الدنيا هو حب الله والأنس به ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل وإنما الشواغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والمحبة للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله ، وربما يكون شغله في الفراق أكثر وربما يكون في الوصال أكثر ، والدنيا معشوقة الغافلين والمحروم عنها مشغول بها وبطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها وبالتمتع منها ، فإذن إن فرضت فارغين من حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى القاعد والواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة وجود قدر الحاجة أفضل من فقده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر فالفقر عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا تقدر ولذلك قالت الصحابة: بلينا بفتنة الضراء فعبيرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، وهذا خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادراً فلماً كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر والضراء أصح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه ، حيث قال عيسى عليه السلام : « لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم » وقال بعض العلماء : تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان .

وفي الخبر « إن لكل أمة عجل وعجل هذه الأمة الدنيا والدرهم » ^(١) وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضاً ، واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس من حديث حذيفة كما في كنوز الحقائق

إذ كان عليه السلام يقول للدنيا : « إليك عنّي إليك عنّي » ^(١) إذ كانت الدنيا تتمثل له بزینتها ، وكان علي عليه السلام يقول : « يا صفراء غري سواي ويا بيضاء غري غري » ^(٢) وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادي الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه ، وذلك هو الغني المطلق إذ قال عليه السلام : « ليس الغنى بكثرة العرض إنما الغنى غنى النفس » ^(٣) وإذا كان ذلك بعيداً فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا بها وصرفوها إلى الخيرات لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن الأنس بهذا العالم وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها و القلب إذا تجافى عما سوى الله و كان مؤمناً بالله انصرف لا محالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود إلا الله وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ، ومن أقبل عليه تجافى من غيره و يكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر و قربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإن نهما جهتان فالمرتد دينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد من الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد عن الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله ، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوفه عن الدنيا وأنسه بها فإذن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلوبهما بالمال فقط فإن تساوى فيه تساوت درجاتهما إلا أن هذا مرآة الأقدام وموضع الغرور فإن الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به وإنما يشعر به إذا فقده فليجرب نفسه بتفريقه وإذا سرق منه فإن وجد لقلبه إليه التفاتاً فليعلم أنه كان مغروراً فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعل من قلبه النار التي كانت مسكنة فيه فتحقق إذن أنه كان مغروراً وإن العشق

(١) أخرجه الحاكم باختلاف في المستدرک ج ٤ ص ٣٠٩ .

(٢) روى مثله الصدوق في الامالی من حديث ضراب بن ضمرة اللیثی وفي النهج مثله .

(٣) أخرجه البخاری ج ٨ ص ١١٨ .

كان مستكنّاً في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد ، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء ، والأولياء ، وإذا كان ذلك محالاً أوبعيداً فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لأنّ علاقة الفقير وانسه بالدنيا أضعف و بقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته و عباداته فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكّدها الأنس بالمذكور ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ عن غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول ، ولذلك قال بعض السلف : مثل من تعبّد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفى النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمن .

أقول: وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله عز وجل : « إنا من أتى الله بقلب سليم » (١) قال : « القلب السليم الذي يلتقي ربّه وليس فيه أحد سواه ، قال : وكلّ قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط وإنما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة » (٢).

❖ بيان آداب الفقير في فقره ❖

للفقير آداب في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها وأما أدب باطنه فإن لا يكون فيه كراهة لما ابتلاه الله به من الفقر ، أعني به أنّه لا يكون كارهاً فعل الله من حيث أنّه فعله وإن كان كارهاً للفقير كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارهاً فعل الحجّام ولا كارهاً له بل ربّما يتقلّد منّة منه فهذا أقل درجاته وهو واجب وتقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام : « يا معشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » (٣) و أرفع من هذا أن يكون كارهاً للفقير بل يكون راضياً به ، و أرفع منه أن يكون طالباً له و فرحاً به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكّلاً في باطنه على الله واثقاً به في قدر ضرورته أنّه يأتيه لا محالة ويكون كارهاً للزّيادة على الكفاف .

أقول: هذا ينافي قوله فيما مضى أن أرفع المراتب أن يكون الفقر والغنى عنده

(١) الشراء : ٨٩ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ١٦ تحت رقم ٥ .

(٣) تقدم آنفاً .

متساويين .

قال : وقد قال علي عليه السلام : « إن الله عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله على فقره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسيء عليه خلقه ويعصي به ربه ويكثر الشكاية ويتسخط بالقضاء » وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل الذي لا يتسخط أو يرضى أو يفرح بالفقر يرضى لعلمه بثمرته إذ قيل ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له : خذه على ثلاثة أثلاث : شغل وهم وطول حساب ، وأما أدب ظاهره فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففي الحديث « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » ^(١) وقال تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياً من التعفف » ^(٢) وقيل : أفضل الأعمال التجمل عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر . وأما أدبه في مخالطته فأن لا يتواضع لغني لأجل غناه بل يتكبر عليه قال علي عليه السلام : « ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله وأحسن منه تبه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل » فهذه رتبة الفقير وأقل منها أن لا يخالط الأغنياً ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال بعض العارفين : إذا مال الفقير إلى الأغنياً انحنت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل . وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياً وطمعاً في العطاء .

وأما أدبه في أفعاله فأن لا يفتخر بسبب الفقر عن عبادة الله ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فأن ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى قال عليه السلام : « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم . قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف فتصدق بها ، وأخرج رجل درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب مائة ألف » ^(٣) وينبغي أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدد الحاجة ويخرج الباقي .

(١) تقدم كراً . (٢) البقرة : ٢٧٣ .

(٣) أخرجه النسائي ج ٥ ص ٥٩ كتاب الزكاة باب جهد القل وقوله عليه السلام :

« عرض ماله » بضم العين المهملة وسكون الراء أى جانبه .

و في الادّ خار ثلاث درجات احداها أن لا يدّ خر إلّا ليومه و ليلته وهي درجة الصدّيقين ، و الثانية أن يدّ خر لأربعين يوماً فإنّ ما زاد عليه داخل في طول الأمل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوماً وهذه درجة المتّقين ، و الثالثة أن يدّ خر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادّ خار على هذه فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلّية فغنى الصالح العفيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوماً وغنى خصوص الخصوص في يوم و ليلة .

﴿بيان آداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال﴾

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور نفس المال و غرض المعطي و غرضه في الأخذ . أمّا نفس المال فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلّها فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه ، وقد ذكرنا في كتاب الحلال و الحرام درجات الشبهة و ما يجب اجتنابه و ما يستحبّ تناولها . و أمّا غرض المعطي فلا يخلو إمّا أن يكون غرضه تطيب قلبه و طلب محبته و هو الهدية أو الثواب و هو الصدقة و الزكاة أو الذّكر و الرّياء و السمعة إمّا على التجرّد و إمّا ممزوجاً ببقية الأغراض ، أمّا الأوّل و هو الهدية فلا بأس بقبولها فإنّ قبولها سنة رسول الله ﷺ ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة و إن كان فيها منة فلا وليّ تركها فإن علم أنّ بعضها ممّا تعظم فيه المنّة فليردّ البعض دون البعض ، فقد أهدى رجل إلى النبي ﷺ سمناً و أقطاً و كبشاً فقبل السمن و الأقط و ردّ الكبش^(١) و كان ﷺ يقبل من بعض الناس و يردّ على بعض^(٢) و قال : «لقد هممت أن لا أتّهب إلّا من قرشيّ أو ثقفيّ أو أنصاريّ أو دوسيّ»^(٣) و فعل هذا جماعة من الصحابة و التابعين ، وحيّ بصرة إلى فتح الموصل في فيها خمسون درهماً فقال : حدّثنا عطاء عن النبي ﷺ أنّه قال : « من أتاه رزق من غير مسألة و ردّه

(١) أخرجه أحمد في ضمن حديث ليعلى بن مرة و اسناده جيد .

(٢) راجع مسند أبي داود الطيالسي ص ١٤٦ تحت رقم ١٠٨٢ و ١٠٨٣ .

(٣) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٢٨٠ من حديث أبي هريرة .

فإنما يردّه على الله» (١) ثم فتح الصرّة فأخذ منها درهماً وردّ سائرهما . و كان إبراهيم التيمي يسأل أصحابه الدّهم والدّ رهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً يقول : اتركه عندك و انظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل منّي قبل القبول فأخبرني حتّى آخذ و إلّا فلا ، و أمانة هذا أن يشقّ عليه الرّدّ لو ردّه ويفرح بالقبول و يرى المنّة على نفسه في قبول صديقه هديته فإن علم أنّه يمازجه منّة فأخذه مباح ولكنّه مكروه عند الفقهاء الصادقين . و قال بشر : ما سألت أحداً قطّ شيئاً إلّا سريّاً السقطي لأنّه قد صحّ عندي زهده في الدّنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده و يتبرّم ببقائه عنده فأكون عوناً على ما يحبّ . وجاء خراسانيّ إلى الجنيد بمال و سأله أن يأكله فقال : افرقه على الفقراء ، فقال : ما أريد هذا ، فقال : ومتى أعيش إلى إن آكل هذا ، فقال : ما أريد أن تنفقه في الخلّ والبقل بل في الحلوات والطيبات فقبل فقال الخراساني : ما أجد ببغداد أمنّ عليّ منك فقال الجنيد : وما ينبغي أن يقبل إلّا من مثلك .

الثاني أن يكون للثواب المجرّد وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه أنّه هل هو مستحقّ للزكاة فإن اشتبه عليه فهو محلّ شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة ، وإن كان يعطيه لظنّه أنّه عالم أو علويّ ولم يكن كذلك فإنّ أخذه حرامّ محض لاشبهة فيه .

الثالث أن يكون غرضه الشهرة والرّياء و السمعة فينبغي أن يردّه عليه قصدّه الفاسد و لا يقبله إذ يكون معيناً له على غرضه الفاسد . وكان بعضهم يردّ ما يعطى ويقول : لو علمت أنّهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لأخنت . وعوتّب بعضهم في ردّه ما كان يأتيه من صلة فقال : إنّما أردّ صلتهم إشفاقاً و نصحاً لهم لأنهم يذكرون

(١) قال العراقي : لم أجده مرسلًا هكذا ولاحمد و أبي يعلى و الطبراني باسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهني > من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة و لا اشراف نفس فليقبله ولا يردّه فانما هو رزق ساقه الله عز وجل اليه اهـ . أقول : و روى نحوه الطيالسي تحت رقم ٢٤٧٨ من حديث أبي هريرة .

و يحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم ويحبط أجرهم ، وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغنى عنه فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ قال عليه السلام : « ما المعطي من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً » ^(١) وقال عليه السلام : « من آتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإتاه هو رزق ساقه الله إليه وفي لفظ آخر « فلا يردّه » ^(٢) وقال بعض العلماء : من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط . وقد قال بعض العلماء : يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره فإما إذا كان ما آتاه زائداً على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأموال الفقراء و الاتفاق عليهم لما في طبعه من الفرق والسخاء ، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالباً طريق الآخرة فإن ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو من سبيل الشيطان أوداع إليه « ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » . ثم له مقامان أحدهما أن يأخذ في العلانية ويرد في السر أو يأخذ في العلانية ويفرق في السر ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة ، والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ و يوصله إلى من هو أحوج منه فيقع كلاهما في السر أو كلاهما في العلانية ، وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب منه .

وقال بعض المجاورين بمكة : كانت عندي دراهم أعددتها للاتفاق في سبيل الله فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي : أنا جائع كما ترى عريان كما ترى ، فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى ؟ فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت : في نفسي لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم فقال : أربعة دراهم ثمن مؤثرين ودرهم أنفقه ثلاثاً فلاحاجة بي إلى

(١) أخرجه الطبراني في الكبير بسند صحيح من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير .

(٢) تقدم آنفاً .

الباقي فردّه ، قال : فرأيتُه اللَّيلة الثانية وعليه مؤزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء ، فالتفت إليّ فأخذ بيدي فأطافني معه أسبوعاً كل شوط منها في جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين منها ذهب وفضّة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس فقال: هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأنّ هذه أثقال و فتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة . والمقصود من هذا أنّ الزيادة على قدر الحاجة إنّما تأتيك ابتلاء و فتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه و قدر الحاجة يأتيك رفقاً بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ حَسَنٌ عَمَلًا » (١).

و قد قال عليه السلام : « لا حقّ لابن آدم إلّا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، و ثوب يوارى عورته ، و بيت يكتنه فما زاد فهو حساب » (٢) فإنّ أنت في أخذك قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب و فيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرّض للحساب و إن عصيت الله فأنت متعرّض للعذاب .

ومن الاختبار أيضاً أن تعزم على ترك لذّة من اللذّات تقرّباً إلى الله تعالى و كسراً لصفة النفس فتأتيك عفواً صغواً لتمتحن به قوّة عقدك فالأولى الامتناع عنها فإنّ النفس إذا رخصت في نقض العزم ألغت نقض العهد وعادت لعادتها فلا يمكن قهرها ، وردّ ذلك مهمّ وهو الزهد فإن أخذته وصرفت إلى محتاج فهو غاية الزهد ولا يقدر عليه إلّا الصديّون ، فأما إذا كان حالك السخا والبذل والتكفّل بحقوق الفقراء وتمهّد جماعة من الصلحاء ، فخذ ما زاد على حاجتك فإنّه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخر فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربّما يخلو في قلبك فتمسكه ويكون فتنة عليك ، فقد تصدّى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسّع في المال والتنعمّ في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ، ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظنّ بالله لا

(١) الكهف : ٧ .

(٢) أخرجه الترمذی ج ٩ ص ٢٠٦ بتقديم و تأخير واختلاف فی اللفظ .

اعتماداً على السلاطين الظلمة فإن رزقه الله من حلال قضاء وإن مات قبل القضاء قضى الله تعالى عنه وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يقرض المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقرضه على بصيرة ودَيْن مثل هذا الرجل واجب أن يقتضى من مال بيت المال أو من الزكوات فقد قال تعالى : « ومن قدر عليه رزقه فلينتق مِمَّا آتاه الله » ^(١) و قيل : معناه لبيع أحدثويه ، وقيل : معناه فليستقرض بجاهه ، فذلك ممَّا آتاه الله وقال بعضهم : إن الله تعالى عباد ينفقون على قدر بضائعهم والله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله . ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء والأغنياء والأغنياء فقيل : من هؤلاء ؟ فقال : أمَّا الأقوياء فهم أهل التوكل على الله ، وأمَّا الأغنياء فهم أهل حسن الظن بالله ، وأمَّا الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله . فإذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي فليأخذه ، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لامن المعطي إنمَّا المعطي واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات .

قال موسى عليه السلام : يارب جعلت رزقي هكذا في أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوماً ويعشيني هذا ليلة فأوحى الله إليه : هكذا أصنع بأوليائي أنجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم . فلا ينبغي أن يرى المعطي إلَّا من حيث أنه مسخر مأجور .

❖ بيان تحريم الحلال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه ❖

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات ، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة والكشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل وإنمَّا يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فإن كان عنها بد فهو حرام وإنمَّا قلنا : إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك من ثلاثة أمور محرمة : الأول إظهار الشكوى من الله إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله عليه وهو عين الشكوى وكما

أن العبد المملوك لو سأل كان سؤاله تشنيعاً على سيده ، فكذا سؤال العباد تشنيع على الله تعالى وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا بضرورة كما يحل المينة ، والثاني أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فإن فيه عزه فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله ، فلا ينبغي أن يذل لهم إلا بضرورة ، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤول ، والثالث أنه لا يفتك عن إيذاء المسؤول غالباً لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيبة قلب منه فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ وإن منع ربما استحيى وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة ، ومهما فهمت هذه المحذورات فهمت قوله عليه السلام حيث قال : «مسئلة الناس من الفواحش ومأحل من الفواحش غيرها» ^(١) فانظر كيف سمّاه فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح بضرورة . وقال عليه السلام : «من سأل عن ظهر غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم» ^(٢) «و من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وعظم وجهه يتقعقع ليس عليه لحم» ^(٣) وفي لفظ آخر «كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه» ^(٤) وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وبايع رسول الله ﷺ قوماً على الإسلام فاشتراط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة : «ولا تسألوا الناس شيئاً» ^(٥) وكان يأمر كثيرًا بالتعفف

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

(٢) أخرجه أبوداود ج ١ ص ٣٧٨ ورواه عبد الله بن أحمد ، والطبراني في الأوسط

بلفظ «رضف جهنم» وهو بمعنى جمر جهنم وفي إسناده ضعف كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٩٤ .

(٣) روى نحوه ابن ادريس في مستطرفات السرائر . وفي مجمع الزوائد عن الطبراني في الأوسط مثله .

(٤) رواه أصحاب السنن وقد تقدم في كتاب الزكاة .

(٥) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٩٧ من حديث عوف بن مالك الأشجعي . وأخرجه أبوداود

السجستاني ج ١ ص ٣٨٢ .

عن السؤال ويقول: «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله» وقال: «ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا» ^(١) وقال: «استغنوا عن الناس ولو بشوص من سواك» ^(٢) وقال: «استغنوا عن السؤال وما قل من السؤال فهو خير قالوا: و منك يا رسول الله؟ قال: ومنني» ^(٣).

أقول: ومن طريق الخاصة مارواه في الكافي عن الباقر عليه السلام «لو يعلم السائل ما في المسئلة ما سأل أحدٌ أحدًا، ولو يعلم المعطي ما في العطية ماردٌ أحدٌ أحدًا» ^(٤).

وعن الصادق عليه السلام «إيّاكم وسؤال الناس فإنه ذل في الدنيا وفقر تعجلونه وحساب طويل يوم القيامة» ^(٥).

وعن النبي صلى الله عليه وآله «الأيدي ثلاث يدا العليا ويدها المعطي التي تليها ويدها المعطى أسفل الأيدي فاستغنوا عن السؤال ما استطعتم إن الأرزاق دونها حجب فمن شاء قنى حياه وأخذ رزقه ومن شاء هتك الحجاب وأخذ رزقه والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم عرض الوادي فيحتطب حتى لا يلتقي طرفاه ثم يدخل به السوق فيبيعه بمد من تمر يأخذ ثلثه ويتصدق بثلثيه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم حرموه» ^(٦).

وعنه عليه السلام «من فتح على نفسه باباً من مسألة فتح الله عليه باب فقر» ^(٧). قال أبو حامد: فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم أن الشيء إما أن

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والعارث بن أبي اسامة في مسنده من حديث

أبي سعيد الخدري و روى صدره الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٣٩ تحت رقم ٧.

(٢) رواه البزار والطبراني في الكبير و رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ٣

ص ٩٤. «شوص من سواك» أي بذالته وقيل بما يتفتت منه عند التسوك.

(٣) ما عثرت على أصل له.

(٤) و (٥) و (٦) المصدر ج ٤ ص ٢٠ تحت رقم ٢ و ١ و ٣.

(٧) الكافي ج ٤ ص ١٩ تحت رقم ٢.

يكون مضطراً إليه أو محتاجاً إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال ؛ أما المضطرُّ إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً ومرضاً ، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحاً والمسؤول منه بكونه راضياً في الباطن وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب فإنَّ القادر على الكسب وهو بطلان ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته وكلُّ من له خطٌّ فهو قادر على الكسب بالوراقة ، وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئاً أو عنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعاً وهذا طرفان واضحان ، وأما المحتاج حاجة مهمة كمرىض محتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لولم يستعمله ولكنَّه لا يخلو عن خوف و كمن له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذى لا ينتهي إلى حدِّ الضرورة ، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة فهذا أيضاً ينبغي أن تسترسل عليه إلا باحة لأنها حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروهاً مهما صدق في السؤال ، وقال : ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذى أطيقه ولكن يشق عليّ فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله ، وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستتر به الخروق التي في ثيابه عن أعين الناس و كمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز و كمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الرأحلة ، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وكذلك لو كان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى أو الدُّل أو إيذاء المسؤول فهو حرام لأنَّ مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباع بها هذه المحذورات ، وإن لم يكن فيه شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة .

فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟ فاعلم أنَّ الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ، ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ولكنني تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حدِّ الشكوى .

و أما الذلُّ فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرُّجل السخيُّ الذي قد أعدَّ ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله و يتقلد منة بقبوله فيسقط عند الذلِّ بذلك فإنَّ الذلَّ لازم للمنة لا محالة. و أما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعيّن شخصاً بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام تعريضاً بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرِّح بصدق الرغبة و إن كان في القوم شخصٌ مهقوقٌ لو لم يبذل لكان يلام فهذا إيذاء فإنَّه ربّما يبذل كرهاً خوفاً من الملامة و يكون الأحبُّ إليه في الباطن الخلاص لو قدّر عليه من غير ملامة ، و أما إذا كان يسأل شخصاً معيناً فينبغي أن لا يصرّح بل يعرّض تعريضاً يبقى له سبيلاً إلى التغافل إن أراد ، فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته و أنه غير متأدّب به . أقول : و من طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن النبي ﷺ « لا تسالوا أمّتي في مجالسها فتبخلوها » (١) .

قال أبو حامد : و ينبغي أن يسأل من لا يستحي منه لورده أو تغافل مع القدرة عليه فإنَّ الحياء من السائل يؤدي كما أن الرِّياء مع غير السائل يؤدي ، فإن قلت : فإذا أخذ مع العلم بأنَّ باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه فهو حلال أو شبهة ؟ فأقول : ذلك حرامٌ محض لاختلاف فيه بين الأئمة و حكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة إذ لا فرق أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء و خوف الملام و ضرب الباطن أشدُّ نكايّة في قلوب العقلاء ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضي به وقد قال ﷺ : « نحن نحكم بالظاهر والله يتولّى السرائر » (٢) فإنَّ هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردّهم إلى البواطن و قرائن الحالات فاضطروا إلى الحكم بظاهر اللسان مع أنه ترجحان كثير الكذب ولكنَّ الضرورة دعت إليه وهذه سؤال مما بين العبد وبين الله والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالأسنة عند سائر الحكّام فلا تنظر في مثل هذا

(١) المصدر ج ٤ ص ٤٧ تحت رقم ٨ .

(٢) قال العرافي : لم أجد له أصلاً وكذا قال المزى لما سئل عنه .

إلا إلى قلبك وإن أفتوك و أفتوك فإن المفتي معلم القاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة وافتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن مفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا ، فإذن ما يأخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله ويجب عليه الرد على صاحبه فإن كان يستحيي من أن يرد ولم يسترد فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهدية والمقابلة ليتفسي عن عهده ، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى ، فإن قلت : هذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه فكيف السبيل فيه ، وربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضاً ؛ فأقول : لهذا ترك المشتقون السؤال رأساً فما كانوا يأخذون من أحديشياً أصلاً ، وكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلا من السري وقال : لأنني أعلم أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحبّه و إنما عظم النكير في السؤال وتأنّ كدالاً أمر بالتعفف لهذا لأن هذا الأذى إنما يحل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له لحم الخنزير وأكل الميتة وكان الامتناع طريق الورعين ، ومن أرباب القلوب من كان واثقاً بصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ، ومنهم من كان يأخذ مما يعطي بعضاً ويرد بعضاً كما فعل رسول الله ﷺ في الكيش والسمن والأقط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعاً في جاه أو طلباً لرياء وسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلا في موضعين أحدهما الضرورة والثاني السؤال من الأصدقاء والإخوان وفي حق الإخوان ، وكانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستيذان لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباستنتهم فإذن كانوا لا يسألون الإخوان عند شكهم في إقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال . وحدّ إباحة

السؤال أن تعلم أن المسؤول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لا يبتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك فأما في تحريكه بحياء أو إثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدى للسائل حالة لا يشك معها في رضا الباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق وفي الثانية حرام سحت ، ويتدرد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فاته الأثم وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه ، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته و ضعف حرصه وشهوته فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراهى له ما يوافق غرضه ولا ينفطن للقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطلع على سر قول رسول الله ﷺ حيث قال : «إن أطيب ما يأكل الرُّجل من كسبه»^(١) وقد أوتي جوامع الكلم لأن من لا كسبه له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد أقربائه فيأكل من أيدي الناس فإن أعطى بغير سؤال فأنما يعطى لدينه ومن يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى لدينه فيكون ما يأخذه حراماً ، وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذاسئل وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت ، وإن الطيب هو الكسب الذي اكتسب هو أو موروثه ، فإذا نزع بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فנסأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يغنيننا بحلاله عن حرامه بمنه وسعة جوده .

❖ (بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال) ❖

إعلم أن قوله ﷺ : «من سأل عن ظهر غنى فأثم استكثر من جرحهم»^(٢) صريح في التحريم ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير وليس إلينا وضع المقادير بل نستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث «استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره قالوا : وما هو؟ قال : غداً ، يوم ، وعشاء ، ليلة»^(٣) . وفي حديث آخر «من سأل وله خمسون درهماً أو

(١) تقدم في كتاب الحلال والحرام .

(٢) تقدم آنفاً .

(٣) ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة كما في المنى .

عدلها من الذهب فقد سأل إلحافاً^(١) وورد في لفظ آخر «أربعون درهماً». ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحداً و التقدير ممتنع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول: قال عليه السلام : «لاحق لابن آدم إلا في ثلاث طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى به عورته ، وبيت يكتنه و ما زاد فهو حساب»^(٢) فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها ، والنظر في الأجناس والأقذار والأوقات فأمّا الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بهما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله و ولده وكل من يجب عليه كفالته ، و أمّا الأقذار فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوي الدّين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس ، و أمّا الثاني من كل جنس فهو مستغنى عنه وليقتس على هذا أثاث البيت ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفير فيما يكفي فيه الخرف فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة ، و أمّا الطعام فقد رده في اليوم مدّ وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير و الأدم على الدوام فضلة وقطعه بالكلية إضرار وفي طلبه في بعض الأحوال رخصة ، و أمّا المسكن فأقله ما يجزى ، من حيث المقدار وذلك من غير زينة فأمّا السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى ، و أمّا بالاضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكتنه ، فلا شك فيه فأمّا سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات إحداها ما يحتاج إليه في غد والثانية ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين ، والثالثة ما يحتاج إليه في السنة فلنقطع بأن من معه ما يكفي له ولعياله إن كان له عيال لسنة فسؤاله حرام فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهماً في الحديث فإن خمسة دنائير تكفي للمنفرد في السنة إذا اقتصد و أمّا

(١) رواه أحمد و رجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٩٥ .

(٢) تقدم آنفاً .

المعيل فربما لا يكفيه ذلك فإن كان يحتاج إليه قبل السنة فإن كان قادراً على السؤال ولا يفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج إليه فيكفيه غداً يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال لأن أمل البقاء سنة غير بعيد فهو يتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطراً عاجزاً عما يغنيه ، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف القوت وتراخي المدّة التي فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله فيستغني فيه قلبه ويعمل به إن كان سالكاً طريق الآخرة وكل ما كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان وقد قال الله تعالى : «فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين»^(١) وقال : «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً»^(٢) والسؤال من الفحشاء الذي أبيع بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثاً وادّخر لحاجته وراء السنة وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنها صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهي من أمّهات المهلكات .

أقول : ثم ذكر أبو حامد فصلاً في بيان أحوال السائلين وأورد فيه من أقوال الصوفية وما كانوا يفعلون وإذ لا وثوق بهم وبما كان يصدر عنهم فلنعرض عن ذلك ومن أراد الإطلاع على حقيقة الحال في الفقر والزهد فليطالع ما أوردناه في آخر الشطر الثاني من هذا الكتاب من كلام الصادق عليه السلام ومحاجته مع الصوفية .

(١) آل عمران : ١٧٥ .

(٢) البقرة : ٢٦٨ .

❖ (القطر الثاني من الكتاب في الزهد) ❖

و فيه بيان حقيقة الزهد ، و بيان فضيلة الزهد ، و بيان درجات الزهد وأقسامه ، و بيان تفصيل الزهد في المطعم و الملبس و المسكن و الأثاث و ضرورات المعيشة و بيان ، علامات الزهد .

❖ (بيان حقيقة الزهد) ❖

إعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين و ينتظم هذا المقام من علم و حال و عمل كسائر المقامات لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد و قول و عمل و كأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر حال الباطن و إلا فليس القول مراداً لعينه و إن لم يكن صادراً عن حال سمي إسلاماً و لم يسم إيماناً و العلم هو السبب في الحال يجري مجرى المثمر و العمل يجري من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم و العمل أما الحال فنعني بها ما يسمي زهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه و كل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة و بيع و غيره فإتما عدل عنه لرغبته عنه و إنما عدل إلى غيره لرغبته فيه فحاله بالاضافة إلى المعدول عنه يسمي زهداً و بالاضافة إلى المعدول إليه يسمي رغبة و حباً فإذن يستدعي حال الزهد مرغوباً عنه و مرغوباً إليه وهو خير من المرغوب عنه و شرط المرغوب عنه أن يكون أيضاً هو مرغوب فيه من وجه من الوجوه فمن رغب مما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمي زاهداً فتارك التراب و الحجر و الحشرات لا يسمي زاهداً و إنما يسمي تارك الدراهم و الدنانير زاهداً لأن التراب و الحجر ليسا في مظنة الرغبة و شرط المرغوب إليه أن يكون خيراً عنده من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبائع لا يقدم على البيع إلا و المشتري عنده خير من المبيع فيكون حاله بالاضافة إلى المبيع زهداً فيه و بالاضافة إلى العوض رغبة و حباً و لذلك قال تعالى : « و شروه بثمن بخس دراهم معدودة و كانوا فيه من الزاهدين » ^(١) معناه باعوه و قد يطلق الشري بمعنى البيع و وصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذا طمعوا في أن يخلو لهم

وجه أبيهم وكان ذلك عندهم أحب من يوسف فباعوه طمعاً في العوض فأذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن زهد في الدنيا كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو الميل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال والذي يرغب عن كل ما سوى الله حتى الفراديس ولا يحب إلا الله فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهده في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الجور والقصور والفواكه والأنهار فهو أيضاً زاهد ولكنه دون الأول والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجمّل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقاً ودرجته في الزهد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات و الزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً وإن كان قد زهد في المحظورات وانصرف عنه ولكن تخصص هذا الاسم بترك المباحات فأذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة أو عن غير الله عدولاً إلى الله وهي الدرجة العليا وكما يشترط في المرغوب إليه أن يكون خيراً عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه فإن تركه ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ، وأما العلم الذي هو المثمر لهذه الحال هو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه و مالم يتحقق هذا العلم لا يتصور أن يزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى أي لذاتها خير في أنفسها كما يكون الجوهر خير أو أبقى من الثلج مثلاً ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر والآلي فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج الموضوع

في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض والآخرة كالجواهر التي لا فناء لها فبقدر
 قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة
 حتى أن من قوي يقينه ببيع نفسه وماله كما قال الله تعالى : « إن الله اشترى من
 المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » (١)
 ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال : « فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز
 العظيم » (٢) فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن الآخرة خير
 وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف علمه ويقينه وإما لاستيلاء
 الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان وإما لاغتراده بمواعيد الشيطان
 في التسويف يوماً فيوماً إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت ،
 وإلى تعريف خساسة الدنيا بالإشارة بقوله تعالى : « قل متاع الدنيا قليل » (٣) وإلى
 تعريف نفاسة الآخرة بالإشارة بقوله : « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير
 لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون » (٤) فنبه على أن العلم بنفاسة الجواهر
 هو المرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب
 منه . قال رجل في دعائه : اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال عليه السلام : « لا تقل هكذا ولكن
 قل : أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك » (٥) وهذا لأن الله يراها حقيرة
 كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة إلى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة في حق
 نفسه بالاضافة إلى ما هو خير له ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عن فرسه
 كما يرى بائع حشرات الأرض لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن
 الفرس والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه فيرى الكل في درجة واحدة بالاضافة
 إلى جلاله ويراه متفاوتة بالاضافة إلى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالاضافة

(١) و (٢) التوبة : ١١٣ .

(٣) النساء : ٧٧ . (٤) القصص : ٨٠ .

(٥) قال العراقي : ذكره صاحب الفردوس مختصراً « اللهم أرني الدنيا كما تريها

الصالح من عبادك » من حديث أبي القصير ولم يخرج له .

إلى نفسه لا إلى غيره ، وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه يبيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها ، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من اليد والعين ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين و سائر الجوارح وظائف الطاعات وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن فإذا وفي بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست بشر ببيعه الذي بايع ، فإن الذي بايعه بهذا البيع وفي بالعهد ، فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته وفائه بالعهد ، وما دام ممسكاً للدنيا لا يصح زهده أصلاً ، ولذلك لم يصف الله تعالى : إخوة يوسف بالزهد في ابن يامين وإن كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أينا منا^(١) وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه إلا عند التسليم والبيع ، فعلمة الرغبة الإمساك وعلامة الزهد الإخراج فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهداً مطلقاً وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه ، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله ، فإنك إذا لم تجرب نفسك حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها فلمّا تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق يقع فيها ، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فإنك وأن تثق بوعدها في المباحات والموثق الغليظ أن تجرب بها مرة بعد مرة في حال القدرة فإذا وفيت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً ، فلا

بأس أن تنق بها وثوقاً ولكن تكون من تغيّرها أيضاً على حذر فإنها سريعة النقص للعهد قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع ، بالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط ، وذلك عند القدرة ، ولذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله ﷺ : « إِنَّا نَحِبُّ رَبَّنَا وَلَوْ عَلِمْنَا فِي أَيِّ شَيْءٍ حُبُّهُ لَفَعَلْنَا حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ ^(١) وقال ابن مسعود: وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » ^(٢) وليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ، ولكن لا مدخل لها في العبادات ، إنما الزهد أن تتركها لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاة الآخرة فأما كل نوع من الترك فإنه يتصور بمن لا يؤمن بالله وبالآخرة فذلك قديكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ، ولكن لا يكون زهداً إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألد وأهنا من المال وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعاً في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعاً في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستئصاله لما في حفظ الأموال من المشقة والعناء والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلاً بل هو استعجال حظ آخر للنفس بل الزهد من أتته الدنيا راحة عفواً صفواً وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان جاء وقبح اسم ولا فوات حظ فتركها خوفاً من أن يأنس بها فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله ويكون مشركاً في حب الله غير الله أو تركها طمعاً في ثواب الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنة ، وترك التمتع بالسراي والنسوان طمعاً في الحور العين ، وترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة وأشجارها ، وترك التزيّن والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة ، وترك المطاعم اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة وخوفاً من أن يقال له

(١) النساء : ٦٦ .

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة باسناد حسن كما في المعنى :

«أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا» فأثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفوياً لعلمه بأن ما في الآخرة خيرٌ وأبقى وما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلاً.

أقول: الكلام الجامع في حقيقة الزهد ما رواه في نهج البلاعة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»^(١) ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه»^(٢).

﴿بيان فضيلة الزهد﴾

قال الله تعالى: «فخرج على قومه في زينته - إلى قوله - وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير»^(٣) نسب الزهد إلى العلماء و وصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء ، وقال تعالى: «أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا»^(٤) وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا . وقال تعالى: «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً»^(٥) قيل: معناه أيهم أزهدها فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى: «من كان يريد حرث الدنيا نؤثها منها وما له في الآخرة من نصيب»^(٦) . وقال تعالى: «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خيرٌ وأبقى»^(٧) . وقال تعالى: «الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة»^(٨) فبه وصف الكفار فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بضده وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا .

وأما الأخبار فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات إذ حُب الدنيا من المهلكات ، ونحن الآن نقصر على فضيلة بفض

(١) الحديد : ٢٣ . (٢) المصدر أبواب الحكم تحت رقم ٤٣٩ .

(٣) و (٤) القصص : ٨٠ و ٥٤ .

(٥) الكهف : ٧ . (٦) الشورى : ٢٠ .

(٧) طه : ١٣١ . (٨) إبراهيم : ٣ .

الدنيا فإنه من المنجيات وهو المعني بالزهد و قد قال عليه السلام : « من أصبح وهمه الدنيا شئت الله عليه أمره ، و فرّق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، و لم يأت به من الدنيا إلّا ما كتب له ، و من أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » ^(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا رأيتم العبد قد أعطي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة و قد قال الله تعالى : « و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ^(٢) ولذلك قيل : من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق به لسانه .

وعن بعض الصحابة أنه قال : قلنا : « يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال : كل مؤمن محمود القلب صدوق اللسان ، قلنا : يا رسول الله وما محمود القلب ؟ قال : النقي النقي الذي لا غش فيه ولا غل ولا بغي ولا حسد ، قيل : يا رسول الله فمن على اثره ؟ قال : الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة » ^(٣) ومفهومه أن شر الناس الذي يحب الدنيا . و قال عليه السلام : « إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا » ^(٤) فجعل الزهد سبباً للمحبة فمن أحبه الله فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد من أفضل المقامات ومفهومه أيضاً أن محب الدنيا متعرّض لبغض الله . وفي خبر من طريق أهل البيت : « الزهد و الورع يجولان في القلب كل ليلة فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياة أقاما فيه و إلّا ارتحلا » ^(٥) ولما قال حارثه لرسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا مؤمن حقاً فقال : وما حقيقة إيمانك فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي بارزاً فقال عليه السلام : فالزم هذا عبدنور الله

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٥ بسند صحيح بأدنى اختلاف ، وفي الكافي مثله .

(٢) البقرة : ٢٦٩ والخبر أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠١ من حديث أبي خلاد .

(٣) أخرجه الغرائطي في مكارم الاخلاق كما في الفتنى .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٢ بنحوه .

(٥) قال العراقي : لم أجد له أصلاً . أقول : في التعريف ص ٣٧٣ عن الصادق عليه السلام

هكذا « ان الفنى والمز يجولان فاذا ظفرا جوضع التوكل أو طناه » .

قلبه بالإيمان» ^(١) فانظر كيف بدأ بإظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكّاه رسول الله ﷺ إذ قال : «عبدنوا الله قلبه بالإيمان» ولمّا سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » ^(٢) وقيل له : ما هذا الشرح قال : إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح ، قيل : يا رسول الله هل لذلك من علامة ؟ قال : نعم التجاني عن دار الغرور والإناية إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله ، ^(٣) فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام وهي التجاني عن دار الغرور .

وقال ﷺ : «استحيوا من الله حق الحياء قالوا : إنّنا نستحي منه قال : ليس كذلك ، تبينوا ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون » ^(٤) فبيّن أنّ ذلك يناقض الحياء من الله ، ولمّا قدم عليه وفد وقالوا : إنّنا مؤمنون قال : وما علامة إيمانكم ؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء ، والرّضا بمواقع القضاء ، وترك الشّماتة بالمصيبة إذ أنزلت بالأعداء ، فقال ﷺ : فإن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبينوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما ترحلون » ^(٥) فجعل الزهد تكملة لإيمانهم .

و قال جابر : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها غيرها وجبت له الجنة فقام إليه عليّ عليه السلام فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها صفه لنا وفسره لنا ، فقال : حب الدنيا طلباً لها واتباعاً لها وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة » ^(٦) وفي الخبر «السخاء من اليقين ولا يدخل النار

(١) أخرجه الطبراني ورواه الكليني في الكافي بنحو أبسط ج ٢ ص ٥٣ .

(٢) الانعام : ١٢٥ . (٣) أخرجه العاظم في المستدرک ج ٤ ص ٣١١ .

(٤) أخرجه الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف .

(٥) أخرجه الخطيب وابن عساكر في تاريخيهما من حديث جابر باسناد ضعيف (المفني)

(٦) قال العراقي : لم أجده من حديث جابر وقد رواه الحكيم الترمذي في النوادر

من حديث زيد بن أرقم .

موقنٌ والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك^(١)، وقال: «أيضاً السخي قريبٌ من الله قريبٌ من الناس قريبٌ من الجنة، والبخل بعيد من الله بعيدٌ من الناس قريبٌ من النار»^(٢) والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المنعم لا محالة.

و روى ابن المسيب عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال: «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة في قلبه فأنطق به لسانه وعرفه داء الدنيا ودواها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام»^(٣).

و روي أنه ﷺ مر في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر و لعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: «وإذا العشار عطشت»^(٤) فأعرض عنها رسول الله ﷺ و غص بصره فقيل: يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا ننظر إليها؟ فقال: قد نهاني الله عن ذلك، ثم تلا قوله تعالى: «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به - الآية -»^(٥) و روى مسروق عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع، فقال: «يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ولكنتي اخترت جوع الدنيا على شعبها، وفقر الدنيا على غناها، وحزن الدنيا على فرحها، يا عائشة إن الدنيا

(١) أخرجه صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرج له ولده في مسنده .

(٢) أخرجه الترمذي وقد تقدم و البيهقي في الشعب والطبراني في الاوسط عن

أبي هريرة و جابر و عائشة كما في الجامع الصغير .

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٢٨ من حديث أبي عبد الله عليه السلام ولم أجده

من حديث جابر ، و أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلًا و لابن عدى في الكامل من حديث أبي موسى الاشعري نحوه .

(٤) التكوير : ٤ .

(٥) أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن يحيى بن كثير نحوه باختصار كما في الدر المنثور

ج ٤ ص ١٠٥ و أورده أبو الفتوح الرازي في تفسيره باختصار من حديث أنس .

لا ينبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني مثل ما كلفهم فقال : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » والله مالي بد من طاعته وإنني والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة إلا بالله ، ^(١) وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « لقد كان الأنبياء من قبلي ليبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العبادة وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من الإعطاء إليهم » ^(٢).

وعن ابن عباس قال : لما ورد موسى ماء مدين كان خضرة البقل ترى في بطنه من الهزل. فهذا كان ما اختاره أنبياء الله والمرسلون وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة ، وفي حديث عمر أنه قال : لما نزل قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة - الآية » ^(٣) قال ﷺ : « تباً للدينار والدرهم فقلنا : نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأبى شيء ، ندخر فقال ﷺ : ليتخذ أحدكم لساناً ذا كراً وقلباً شاكراً وزوجة صالحة تعينه على أمر الآخرة » ^(٤).

وفي حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله

(١) أخرجه ابن حبان في كتاب اخلاق النبي ص ٢٩٣ بتمامه ، وأخرجه ابن أبي

حاتم والديلمي في مسند الفردوس مختصراً راجع الدر المنثور ج ٦ ص ٤٥ .

(٢) لم أجده بهذا اللفظ نعم روى ابن ماجه تحت رقم ٤٠٢٣ عن أبي سعيد قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حرة بين يدي فوق اللعاف ، قلت : يا رسول الله ما أشدها عليك قال : أنا كذلك يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الاجر ، قلت : يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ، قال : الانبياء ، قلت : يا رسول الله ثم من ؟ قال : ثم الصالحون إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العبادة يعويها وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء .

(٣) التوبة : ٣٤ .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٨٥٦ .

بثلاث هم لا يفارق قلبه أبداً ، وفقر لا يستغني معه أبداً ، وحرص لا يشبع معه أبداً^(١) .
وقال عليه السلام : « لا يستكمل العبد الايمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه
من أن يعرف ، وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته »^(٢) .

وقال عيسى عليه السلام : « الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له : يا نبي
الله لو أمرتنا أن نبني لك بيتاً تعبد الله فيه فقال : إذهبوا فابنوا بيتاً على الماء ، فقالوا :
كيف يستقيم بنيان على الماء ؟ قال : فكيف تستقيم عبادة على حب الدنيا .
وقال نبينا عليه السلام : « إن ربي عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت :
لا يارب ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك و
أدعوك ، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك »^(٣) .

وعن ابن عباس أنه قال : خرج ذات يوم رسول الله ﷺ ومعه جبرئيل فصعد
على الصفا فقال له النبي ﷺ : والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كسويق ولا سفة
دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدهة من السماء أفزعتهم فقال ﷺ : أمر الله القيامة
أن تقوم ؟ فقال : لا ولكن هذا إسرائيل قد نزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه إسرائيل
فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح الأرض فأمرني أن
أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فقلت
فإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً فأوماً إليه جبرئيل أن تواضع لله فقال
نبياً عبداً ثلاثاً^(٤) .

وقال عليه السلام : وإذا أراد الله بعبد خيراً أزهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره

(١) ما عثرت على أصل له .

(٢) ذكره صاحب الفردوس من رواية على بن طلحة مراسلاته بتقديم وتأخير وزيادة
ولم يخرجه ولده في مسند الفردوس . (الغنى)

(٣) قد تقدم عن الترمذي في السنن ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٤) رواه الطبراني بإسناد حسن والبيهقي في الزهد من حديث ابن عباس . ورواه
ابن حبان في صحيحه مختصراً من حديث أبي هريرة كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٦ .

بعبوب نفسه» (١).

وقال عليه السلام : لرجل : «ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» (٢).

وقال عليه السلام : « من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلم ، وهدى بغير هداية ، فليزهد في الدنيا » (٣).

وقال عليه السلام : « من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن خاف من النار لها عن الشهوات ، ومن ترقب الموت ترك اللذات : ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات » (٤) وجميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن حصرها فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لأصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة فإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيما أوردناه كفاية .

أقول : وجل ما أوردناه ورد من طريق الخاصة أيضاً وما ورد فيه أيضاً أكثر من أن يحصى وقد أوردناه نبذاً من ذلك في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات ولتقتصر ههنا على ثلاث روايات ففي الكافي عن أبي عبيدة الحذاء ، قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قال الله : إن من أغبط أوليائي عندي رجلاً خفيف الحال » (٥)

(١) أخرجه الديلمي في مستند الفردوس والبيهقي في الشعب بدون قوله « وورعه في الآخرة » وزاد في أوله . « فقهه في الدين » من حديث محمد بن كعب القرظي مرسلًا كما في الجامع الصغير . (٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٢ وقد تقدم . (٣) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

(٤) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٣٢ من حديث علي بن الحسين عليهما السلام . وابن حبان في الضعفاء ، من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام . وفي النهج أيضاً أبواب الحكم تحت رقم ٣٠ من حديثه عليه السلام .

(٥) « خفيف الحال » أي قليل المال والحظ من الدنيا ، وفي بعض نسخ الحديث بالمهملة بمعنى سوء العيش وقلة المال ولعل الصحيح « خفيف العاذ » وفي النهاية : « وفيه أغبط الناس المؤمن الخفيف العاذ ، العاذ والعال واحد واصل العاذ طريقة المتن وهو ما يقع عليه اللبس من ظهر الفرس أي خفيف الظهر من العيال ومنه الحديث « ليأتين على الناس زمان يبط فيه الرجل بخفة العاذ .. » .

ذا حظّ من صلاة ، أحسن عبادة ربّه بالغيب ، وكان غامضاً في الناس ^(١) ، جعل رزقه كغافاً فصبر عليه ، عجّلت منيته فقلّ ترائه وقلّت بواكبه ^(٢) .

وعن عليّ بن الحسين عليه السلام قال : « مرّ رسول الله ﷺ براعي عليه السلام إبل فبعث إليه يستسقيه فقال : أمّا ما في ضروعها فصبوح الحيّ وأمّا ما في آئتنا فغبوقهم ^(٣) فقال رسول الله ﷺ : اللهمّ أكثر ماله وولده ، ثمّ مرّ براعي غنم فبعث إليه يستسقيه فحلب ما في ضروعها و أكفأ ^(٤) ما في إنائه في إناء رسول الله وبعث إليه بشاة وقال : هذا ما عندنا وإن أحببت أن نزيّدك زدناك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : اللهمّ ارزقه الكفاف ، فقال له بعض أصحابه : يا رسول الله دعوت للذي ردّك بدعاء عامتنا نجّبه ودعوت للذي أسعفك بحاجتك ^(٥) بدعاء كلنا نكرهه ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن ما قلّ وكفى خير ممّا أكثر وألّهي ^(٦) اللهمّ ارزق عجم وآل عجم الكفاف ^(٧) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إن الله تعالى يقول : يحزن عبدي المؤمن إن قُتِرَ عليه و ذلك أقرب له منّي ويفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه و ذلك أبعد له منّي » ^(٨) .

❦ بيان درجات الزهد وأقسامه ❦

❦ بالاضافة الى نفسه والى المرغوب عنه والى المرغوب فيه ❦

إعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوّته على ثلاث درجات : الدرجة السفلى منها أن يزهد في الدنيا و هولها مشته و قلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتنقة

(١) في النهاية : غامضاً أى مغشوراً غير مشهور .

(٢) المصدر ج ٢ ص ١٤٠ تحت رقم ١ . (٣) النبوق : شرب آخر النهار .

(٤) « أكفأ » أى قلب وكب . في القاموس كفأ كمنه : صرفه وكبه و قلبه كأكفأ .

(٥) « أسعفك بحاجتك » أى قضاها لك .

(٦) « ألّهي » أى شغل عن الله وعن عبادته .

(٧) المصدر ج ٢ ص ١٤٠ تحت رقم ٤ .

(٨) المصدر ج ٢ ص ١٤١ تحت رقم ٥ .

ولكن يجاهدها ويكفها وهذا يسمى المتزهد وهو مبدء الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والمتزهد يذنب أولاً نفسه ثم كيسه والزاهد يذنب أولاً كيسه ثم يذنب نفسه في الطاعات لاني الصبر على ما فارقه والمتزهد على خطر فانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير ، الدرجة الثانية أن يترك الدنيا طوعاً لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهماً لاجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لاحالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكون معجباً بنفسه وبزهده ويظن بنفسه أنه ترك شيئاً له قدر ما هو أعظم قدراً منه وهذا أيضاً نقصان ، الدرجة الثالثة وهي العليا أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنه ترك شيئاً إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خنفساء وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تارك شيئاً ، والدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخس من خنفساء إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة ، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخنفساء بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع .

قال : أبو يزيد لأبي موسى عبد الرحيم في أي شيء تتكلم ؟ قال : في الزهد قال : في أي شيء ؟ قال : في الدنيا فتنقض يده ، وقال : ظننت أنك تتكلم في شيء ، الدنيا لا شيء ، أيش تزهد فيها ، ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته أفترى أنه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقتها إلى كلبه في مقابلة ما يناله ، فالشيطان كلب على باب الله يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلها فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقله في المعدة ، ثم ينتهي إلى النتن والقنذ ويحتاج إلى إخراج الثقل فمن يتركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ، أو نسبة الدنيا كلها

أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن مرر مائة سنة بالاضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالاضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له و الدنيا متناهية على القرب ولو كانت تتماهى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة له إلى الأبد فكيف ومدّة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرّة غير صافية فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد ، فإذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهده فيه ولا يلتفت إلى ما زهده فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتداً به ، ولا يراه شيئاً معتداً به إلا لقصور معرفته ، فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذه تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضاً لها درجات . إذ تصبّر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقة في الصبر ، وكذلك درجة المعجب بزهده في قدر التفاته إلى زهده .

و أما انقسام الزهد بالاضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضاً على ثلاث درجات : الدرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب ، وخطر الصراط ، وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها أن الرّجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاش على عرقه لصدرت رواء ،^(١) فهذا زهد الخائفين وكأنتهم رضا بالعدم ولو أعدوا فأن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم . الدرجة الثانية أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الرّاجين فإن هؤلاء ماتر كوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم على نعيم قائم لا آخر له . الدرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقتصد الخلاص منها ، ولا إلى اللذات ليقتصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستغرق بهم بالله تعالى وهو الذي أصبح وهمومه واحد وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى لأن من طلب غير الله فقد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبداً بالاضافة إلى مطلوبه وطلب غير الله من الشرك الخفي وهذا زهد المحبّين وهم العارفون لأنه لا يحب الله خاصة إلا من عرفه . وكما أن من عرف

(١) ما عثرت على أصل له .

الدِّينَار وعرف الدَّرْهَم وعلم أَنَّهُ لا يقدَّر على الجمع بينهما لم يجب إِلَّا الدِّينَار فمن عرف الله وعرف لذَّة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أَنَّ الجمع بين تلك اللذَّة وبين لذَّة التَّنعم بالحوار العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يجب إِلَّا لذَّة النظر ولا يؤثر غيره ولا تنظيْن أَنَّ أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى لذَّة الحوار والقصور متسع في قلوبهم ، بل تلك اللذَّة بالاضافة إلى لذَّة نعيم الجنة كلذَّة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالاضافة إلى لذَّة الاستيلاء على عصفور واللعب به ، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذَّة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذَّة الملك لِأَنَّ اللَّعِب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق .

و أمَّا انقسامه بالاضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ولعلَّ المذكور فيه يزيد على مائة قول فلانشتغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أَنَّ أكثر ما ذكر فيه قاصرٌ عن الإحاطة بالكلِّ ، فنقول : المرغوب عنه بالزُّهدله إجمال وتفصيل ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل أمَّا الإجمال في الدرَّجة الأولى فهو كلُّ ما سوى الله ، فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضاً ، والإجمال في الدرَّجة الثانية أن يزهد في كلِّ صفة للنفس فيها متعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرتاسة والمال والجاه وغيرها ، والإجمال في الدرَّجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع حظوظ النفس ، وفي الدرَّجة الرابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدِّينَار والدَّرْهَم والجاه ، إذاً أموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدِّينَار والدَّرْهَم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كلَّ علم وقدرة مقصودها ملك القلوب إذ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها كما أَنَّ معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها ، فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزُّهد عن الحصر ، وقد ذكر الله تعالى في آية

واحدة سبعة منها فقال : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا »^(١) ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال : « اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد »^(٢) ثم رده في موضع آخر [إلى اثنين فقال تعالى : « إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو »^(٣) ثم رد الكل] إلى واحد في موضع آخر فقال : « ونهى النفس عن الهوى » فإن الجنة هي المأوى^(٤) قال الهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه ، وإذا عرفت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى والحاصل أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلّها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمه لا محالة لأنّه يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء ، فإن من أراد شيئاً أراد دوامه ، ولا معنى لحب الحياة الدنيا إلا حب دوام ما هو موجود أو يمكن في هذه الحياة ، فإذا رغب عنها لم يردّها ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، فقال تعالى : « قل متاع الدنيا قليل »^(٥) أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين أمّا الزاهدون المحبسون لله فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسينين وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصره دين الله أو نيل رتبة الشهادة وكل من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة ، وأمّا المنافقون ففرّوا من الزحف خوفاً من الموت فقيل لهم : « إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملائكم ، فإذا يثاركم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير » فأولئك الذين اشتروا الضلالة

(٢) الحديد : ٢٠ .

(١) آل عمران : ١٣ .

(٣) محمد : ٣٦ .

(٥) النساء : ٧٧ .

(٤) النازعات : ٤٠ .

بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، وأما المخلصون فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة أو ثلاثين بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به ، وهذا بيان المزهود فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكر المتكلمون في حدّ الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه أو على من كان يخاطبه . أقول : ثم ذكر أبو حامد جملة من أقاويل الناس في الزهد وبيّن قصورها واحداً واحداً .

ثم قال : وفي الزهد أقاويل وراء ما قلناه فلم نر في نقله فائدة ، فإن من طلب كشف حقايق الأمور من أقاويل الناس ورآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا يتلقف بمن سمعه وثق بالحق وأطلع عن قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته ، وهؤلاء كلهم اقتصروا للقصور في البصيرة ولكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الرهنة التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحداً ولا يتصور أن يختلف .

أقول : وفي الكافي عن السجاد عليه السلام « إن الزهد في آية من كتاب الله تعالى » لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ،^(١) وقد مضى هذا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهي الكلمة الجامعة في الزهد ، وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « الزهد في الدنيا قصر الأمل وشكر كل نعمة والورع عن كل ما حرم الله عز وجل » ،^(٢) وعن الصادق عليه السلام « أنه سئل عن الزهد في الدنيا فقال : الذي يترك حلالها مخافة حسابها ويترك حرامها مخافة عقابه » ،^(٣)

(١) المصدر ج ٢ ص ١٢٨ تحت رقم ٤ ، والاية في سورة الحديد : ٣٣ .

(٢) المصدر ج ٥ ص ٧١ تحت رقم ٣ .

(٣) رواه الصدوق في العيون ص ١٧٣ .

وفي مصباح الشريعة^(١) عنه عليه السلام قال : «الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار وهو تركك كل شيء يشغلك عن الله من غير تأسف على فوتها ولا إعجاب في تركها ولا انتظار فرج منها وطلب محبة عليها ولا عوض لها بل ترى فوتها راحة وكونها آفة ، وتكون أبدأ هارباً من الآفة ، معتمداً بالراحة ، والزهد الذي يختار الآخرة على الدنيا والذل على العز والجهد على الراحة والجوع على الشبع وعافية الآجل عن محنة العاجل والذكر على الغفلة ويكون نفسه في الدنيا وقلبه في الآخرة قال رسول الله ﷺ : «حب الدنيا رأس كل خطيئة» ألا ترى كيف أحب ما أبغضه الله وأي خطيئة أشد جرمًا من هذا ؟ وقال بعض أهل البيت عليهم السلام : لو كانت الدنيا بأجمعها لقمة في فم طفل لرجمناه فكيف حال من ينبذ حدود الله خلف ظهره في طلبها والحرص عليها ، والدنيا دار لو أحسنت إلى ساكنها لرحمتك وأحسن تداعك قال رسول الله ﷺ : «لما خلق الله الدنيا أمرها بطاعته فأطاعت ربها فقال لها : خالقي من طلبك ووافقي من خالفك ، فهي على ما عهد إليها الله وطبعها عليه .

قال أبو حامد : فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه فأمّا بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة فالفرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات وقد ذكرنا درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد إذ قيل لبعض السلف : ما الزهد؟ فقال : التقوى ، وأمّا بالإضافة إلى خفايا ما يترك فلا نهاية للزهد فيه إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات لا سيما خفايا الرّيا ، فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سماسة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضاً درجات الزهد فيها لا تنهاى فمن أقصى درجاتها زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجراً في نومه فقال له الشيطان : أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدالك ؟ فقال : وما الذي تجد ؟ فقال : توسدك الحجر أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم فرمى الحجر وقال : خذني فقد تركته لك . وروي عن يحيى بن زكريا أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده

(١) المصدر باب العادى والثلاثون .

تركاً للتعلم بلين الثياب واستراحة حسن اللبس فسألته أمه أن يلبس مكانها جبة من صوف ففعل فأوحى الله إليه يا يحيى آثرت علي الدنيا فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان . وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال: ما أقمتني أنت إنما أقامني الذي لم يرمز لي أن أتتعلم بظل الحائط ، فإذن درجات الزهد ظاهراً وباطناً لأحصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شبهة ومحذور ، فإن قلت : مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم ، فكل ذلك اشتغال بما سوى الله؟ فاعلم أن معنى الانصراف من الدنيا إلى الله الإقبال بكل القلب إليه ذكراً وفكراً ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ، ولا بقاء إلا بضرورات النفس فمهما اقتضت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشغولاً بغير الله فإن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه فالمشتغل بعلف الناقة في طريق الحج ليس معرضاً عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك ، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوي على طاعة الله فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد .

❦ بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضرورات الحياة ❦

إعلم أن ما الناس منهكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم فالفضول كالخييل المسوومة مثلاً إذ يقتنيها الإنسان ليركب وهو قادر على المشي والمهم كالأكل والشرب ولنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر وإنما ينحصر المهم الضروري والمهم أيضاً ينظر في إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه ، والمهمات ستة المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال . والجاه يطلب لأغراض هذه الستة من جملة ما وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب

الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرِّيا، من ربيع المهلكات ونحن الآن نقف على بيان هذه المهمات الستة .

أقول : ثم أخذ أبو حامد في بيان هذه المهمات الستة واحداً واحداً بكلام عليل وتفصيل طويل خرج به عن حد الاعتدال والاقتصار فيها إلى التضييق والتعسير والمبالغة في التقشف وما ليس عند أهل الحق بمرضي وما لا يوجد في الناس عامل به وما ذمه أهل البيت عليه السلام فيما روي عنهم أصحابنا رحمهم الله واستند في ذلك إلى أقوال السلف وأفعالهم وهم بين من ليس قوله ولا فعله حجة وبين من لفعله وقوله تأويل أو تخصيص بالزمان أو العرف أو غير ذلك فلنعرض عن ذكر كلامه هذا صفحاً إلا ما ذكره في المال والجاه وما ذكره بعد ذلك من علامات الزهد، ثم نذكر كلاماً في هذا الباب عن الصادق عليه السلام يكون ميزاناً يعرف به كل خلل كان في كلام أبي حامد في أبواب الزهد فنختم به الكتاب إن شاء الله .

قال : المهم السادس ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال والجاه أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل بها إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافترق إلى أن يخدم افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه لأنه أن لم يكن له عذره محل وقد لم يخدم بخدمته وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له أول مرتبة ولكن يتماذى به إلى هاوية لاعق لها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إنما لجلب نفع أو لدفع ضرر ولخلاص من ظلم فأما النفع فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن للمستأجر عنده قدر وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة ، وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل العدل فيها ، أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في القلوب أو محل له عند السلطان ، وقد الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً فإن اشتغاله بالدين والعبادة

يمهّده من المحلّ في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفّار فكيف بين المسلمين، وأمّا التوهّمات و التقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة ، إذ من طلب الجاه أيضاً لم يخل عن أذى في بعض الأحوال فعلاج ذلك بالاحتمال و الصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فإن طلب المحلّ في القلوب لا رخصة فيه أصلاً واليسير منه دأب إلى الكثير و ضراوته أشدّ من ضراوة الخمر فليحترز من قليله و كثيره . وأمّا المال و هو ضروري في المعيشة أعني القليل منه فإن كان كسوباً فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب ، كان بعضهم إذا اكتسب قد حادته رفع سفته وقام، هذا شرط الزهد فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد و أقويائهم جميعاً وإن كانت له ضيعة و لم يكن له قوة يقين في التوكّل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكلّ ما يفضل من كفاية سنته ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فإن شرط التوكّل في الزهد كما شرطه أوس القرني فلا يكون هذا من الزهاد و قولنا إنّه خرج من حدّ الزهاد نعني به أن ما وعد للزّاهدين في الدّار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله و إلّا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالاضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة . أقول: بل الذي أمسك من أكثر قوت السنة أيضاً بنية أنّه إن احتاج إلى اتفاق أو بذل لا يحوجه ذلك إلى الطلب لا يخرج عن الزهد ولا التوكّل بشرط أن يكون وثوقه بالله سبحانه لا بذلك المال، و بشرط أن لا يشتغل قلبه به كما يتبين ممّا يأتي. قال : و أمر المنفرد في جميع ذلك أخفّ من أمر المعيل وقد قال أبو سليمان لا ينبغي أن يرهق الرّجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه فإن أجابوا وإلّا تركهم و فعل بنفسه ما شاء . معناه أن التضييق المشروط على الزّاهد يخصّه ولا يلزمه كلّ ذلك في عياله ، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضاً فيما يخرج عن حدّ الاعتدال ، فإذا ما يضطرّ الإنسان إليه من جاء و مال ليس بمحذور بل الزّائد على الحاجة سمّ قاتل و المقتصر على الضرورة دواء نافع و ما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزّيادة وإن لم يكن سمّاً قاتلاً فهو مضرّ وما يقرب من الضرورة فهو دواء .

و إن لم يكن دواء نافعاً ، ولكنه يسير الضرر . والسّم محظور شرهه ، والدّواء فرض تناوله وما بينهما مشتبّه أمره ، فمن احتاط فإيّما يحتاط لنفسه و من تساهل فإيّما يتساهل على نفسه و من استبره لدينه وترك ما يريه إلى ما لا يريه ، وردّ نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدّنيا بل ذلك القدر من الدّنيا هو عين الدّين لأنّه شرط الدّين و الشرط من جملة المشروط ، فإنّ قدر الحاجة من الدّين و ما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدّنيا أيضاً كذلك يعرفه من عاين أحوال الأغنياء و ما عليهم من المحنة في كسب المال و جمعه و حفظه و احتمال الدّلّ فيه ، و غاية سعاده فيه أن يسلم لورثته فيأكلونه وهم أعداؤه و ربّما يستعينون به على المعصية فيكون هي معيّن لهم عليها و لذلك شبه جامع الدّنيا و متبّع الشهوات بدود القزّ لا يزال ينسج على نفسه حيّاً ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصاً فيموت و يهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه قال الشاعر :

ألم تر أن المرء طول حياته معني بأمر لا يزال معالجه
كدود كدود القز ينسج دائماً ويهلك غمّاً وسط ما هو ناسجه

فكذلك كل من اتبّع شهوات الدّنيا فإيّما يحكم على قلبه سلاسل تقيده بما يشتهيّه حتّى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه و الأهل و الولد و شماتة الأعداء و مراآة الأصدقاء و سائر حظوظ الدّنيا فلو خطر له أنّه قد أخطأ فيه وقصد الخروج من الدّنيا لم يقدر عليه و رأى قلبه مقيّداً بسلاسل و أغلال لا يقدر على قطعها ولو ترك محبوباً من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه ممعّلة بالدّنيا التي هي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدّنيا و مخالب ملك الموت قد تعلّقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة فيكون أهون أهواله عند الموت أن يكون مثل شخص ينشر بالمنشير ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين والذي ينشر بالمنشار إيّما ينزل الألم بيدنه ويألمه من حيث يسرى أثره إلى قلبه فكيف الظنّ بأنّه يتمكن

أولاً من صميم القلب مخصوصاً به لا طريق للسراية إليه من غيره ، فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حشرات فوت النزول في أعلى عليين و جوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تنسلط عليه نار جهنم إذا النار غير مسلطة إلا على محجوب قال تعالى : « كلاً إنهم عن ربهم يومئذ محجوبون » ثم إنهم اصالوا الجحيم » (١) فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار ، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه فنسأل الله تعالى أن يقرّر في أسماعنا ما نثقت في روع رسول الله ﷺ حيث قيل له : « احب من أحببت فانك مفارقه » (٢) ولما انكشف لأولياء الله أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القرّ نفسه رفضوا الدنيا بالكليّة وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه و يقول : أخاف أن يفسد عليّ قلبي فمن كان له قلبٌ - كان يخاف من فسادهِ والذين أمات حبّ الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال : « ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون » (٣) وقال « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » (٤) وقال : « فأعرض عن من تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » (٥) فأحال ذلك كلّهُ على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احملني معك في سياحتك فقال : اخرج مالك وألحقني قال : لا أستطيع فقال عليه السلام : بعجب يدخل الغنيّ الجنّة أو قال : بشدة ، وقال بعضهم : مامن يوم ذرّ شارقه إلّا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات مملكان بالشرق ومملكان بالمغرب ، يقول أحدهم من المشرق : يا باغي الخير هلمّ ويا باغي الشرّ أقصر ، و يقول الآخر : اللهمّ أعط منقحاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً ، و يقول اللذان بالمغرب أحدهما : لدوا للموت وابنوا للخراب ، ويقول الآخر : كلوا وتمتعوا لطول الحساب .

(١) المطففين : ١٥ و ١٦ .

(٢) يونس : ٧ .

(٤) الكهف : ٢٨ .

(٥) النجم : ٢٩ .

﴿بيان علامات الزهد﴾

إعلم أنه قديظن أن تارك المال زاهدٌ وليس كذلك فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد فكم من الرأهين ردوا أنفسهم كل يوم على قدد يسير من الطعام و لازموا ديراً لا باب له وإنما مسرّتهم معرفة الناس حالهم ونظرهم إليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة بل لابد من الزهد في المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا .

أقول : وهذا كحال بعض المنافقين من الصحابة والتابعين ومن تأخر عنهم كالحسن البصري والسفيان الثوري وأبي حنيفة وكثير ممن يسميهم أبو حامد بالسلف ويستند إلى أقوالهم وأفعالهم اتخذوا له من تقشفهم وتعرفهم أنفسهم إلى الناس ليحمدوا حباً للرئاسة والجاه .

قال أبو حامد : فاذن معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الرهد على الزاهد مشكل وينبغي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات : العلامة الأولى أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال الله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ^(١) والثانية أن يستوي عنده ذاته ومادحه فالأولى علامة الزهد في المال ، والثانية علامة الزهد في الجاه ، والعلامة الثالثة أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله ، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان ، و كل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره و لذلك قيل لبعضهم : إلى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال : إلى الأنس بالله ، فأما الأنس بالدنيا وبالله جميعاً فلا يجتمعان وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام « اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي » فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى

دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه و آخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجراً كما فعله عيسى عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادية نصيباً وإن قل فإِنَّ أمثالنا لا يستجري على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه ، وإذا لاحظنا عجائب نعم الله علينا علمنا أن الله لا يتعاضمه أمرٌ فلا يبعد أن نعظم السؤال اعتماداً على الجود المجاوز لكل كمال فإذن علامة الزهد استواء الغنى والفقر والعز والذل والمدح والذم لأجل غلبة الأنس بالله ، ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخر لا محالة ، مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها ، وقيل : علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطاً أو أمر مسجداً ، وقال ابن عسك : علامة الزهد السخاء بالموجود ، وقال ابن خفيف : علامته وجود الراحة في الخروج من الملك ، وقال أيضاً : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه ، وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه .

أقول : ولنأت الآن بما وعدناه من ذكر كلام الصادق عليه السلام .

﴿كلام الصادق عليه السلام في الزهد﴾

روى في الكافي عن علي بن إبراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة قال : « دخل سفيان الثوري على أبي عبد الله عليه السلام فرأى عليه ثياب بيض كأنها غرقى ، البيض ^(١) فقال له : إن هذا اللباس ليس من لباسك ، فقال له : اسمع مني وع ما أقول لك فإنه خير لك عاجلاً وآجلاً إن أنت مت على السنة والحق ^(٢) ولم تمت على بدعة ، أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان في زمان مقفر جذب ^(٣) فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق أهلها بها أبرارها لا فجارها ، ومؤمنوها لا منافقوها ، ومسلموها لا

(١) الغرقى - كزبرج - : القشرة الملزمة بيباض البيض أو البياض الذي يؤكل ،

قال الفراء : وهزته زائدة . (الصحيح) .

(٢) أي انتفاعك بما أقول آجلاً انما يكون إذا تركت البدع .

(٣) الفقر : خلو الأرض من الماء . والجذب : انقطاع المطر وبيس الأرض .

كفارها فما أنكرت يا ثوري فوالله إنني لمع ماترى ما أتى عليّ مذعقلت صباح ولا مساء. والله في مالي حقٌ أمرني أن أضعه موضعاً إلا وضعتَه ، قال : فأتاه قومٌ ممن يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف فقالوا له : إن صاحبنا حصر عن كلامك^(١) ولم تحضره حججه فقال لهم : فهاتوا حججكم فقالوا له : إن حججنا من كتاب الله ، فقال لهم : فأدلو بها^(٢) فإنها أحقُّ ما اتبع وعمل به ، فقالوا يقول الله تبارك وتعالى غيبر عن قوم من أصحاب النبي ﷺ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون^(٣) فمدح فعلهم ، وقال في موضع آخر ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً^(٤) فنحن نكتفي بهذا ، فقال رجل من الجلساء : إننا رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيبة ومع ذلك تأمرون الناس بالخروج من أموالهم حتى تمتعوا أُنتم منها ؟ ! فقال له أبو عبد الله عليه السلام : دعوا عنكم ما لا ينتفعون به أخبروني أيها النفرأ لكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضل من ضل وهلك من هلك من هذه الأمة فقالوا له : أو بعضه فأما كَلِّه فلا ، فقال لهم : فمن ههنا أتيتم^(٥) وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ^(٦) فأما ما ذكرتم من إخبار الله عز وجل إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم يحسن فعالهم فقد كان مباحاً جائزاً^(٧) ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منه على الله عز وجل ذلك أن الله جل وتقدس أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمره

(١) التقشف - محرقة - قدر الجلد و رثانة الهيئة و سوء الحال و ترك النظافة

و الترفة . والحصر العي في المنطق والمعجز عن الكلام .

(٢) الادلاء بالشئ : احضاره أى احضروها .

(٣) الحشر : ١٠ . والخصاصة : الفقر والحاجة والشح : البخل .

(٤) الدهر : ٨ .

(٥) «أتيتم» بالبناء للمفعول أى دخل عليكم البلاء وأصابكم ما أصابكم .

(٦) أى فيها أيضاً ناسخ و منسوخ ومحكم و متشابه وانتم لا تعرفونها .

(٧) هذا لا ينافي ما ذكره عليه السلام في جواب الثوري فإنه علة شرعية الحكم أولاً

و نسخه ثانياً .

ناسخاً لفعلهم و كان نبي الله تبارك و تعالى رحمة منه للمؤمنين و نظراً لكيلا يضرّوا بأنفسهم و عيالاتهم منهم الضعفة الصغار و الولدان و الشيخ الفاني و العجوز الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع فإن تصدّقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا و هلكوا جوعاً ، و من ثمّة قال رسول الله ﷺ : « خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه ، ثمّ الثانية على نفسه و عياله ، ثمّ الثالثة على قرابته الفقراء ، ثمّ الرابعة على جيرانه الفقراء ، ثمّ الخامسة في سبيل الله وهو أحسنها أجراً » و قال ﷺ : « لا نصاري حين أعتق عند موته خمسة أوسنة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار : « لو أعلمت موني أمره ماتر كحكم تدفونه مع المسلمين ترك صبية صغاراً يتكفّفون الناس »^(١) ثمّ قال : حدّثني أبي أن رسول الله ﷺ قال : « إبدأ بمن تعول الأدنى فالأدنى » ثمّ هذا ما نطق به الكتاب ردّاً لقولكم و نبيأ عنه مفروضاً من الله العزيز الحكيم قال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً »^(٢) أفلا ترون أن الله تبارك و تعالى قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه من الأثرة على أنفسهم و سمى من فعل ما تدعون الناس إليه مسرفاً و في غير آية من كتاب الله يقول : « إنّه لا يحبّ المسرفين »^(٣) فنهاهم عن الإسراف و نهاهم عن التقير ولكن أسر بن أسرين لا يعطي جميع ما عنده ثمّ يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له للحديث الذي جاء عن النبي ﷺ : « إنّ أصنافاً من أمّتي لا يستجاب لهم دعاؤهم : رجلٌ يدعو على والديه ، و رجلٌ يدعو على غريم^(٤) ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه ، و رجلٌ يدعو على امرأته و قد جعل الله عزّ وجلّ تخلية سبيلها بيده ، و رجلٌ يقعد في بيته و يقول ربّ ارزقني ولا يخرج ولا يطلب الرزق فيقول الله له : عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب و الضرب في الأرض

(١) الصبية - بالتثنية - جمع صبي . وقوله : « يتكفّفون » يقال : تكفّف إذا سئل

كفّاً من الطعام .

(٢) الفرقان : ٦٧ ، و القتر : القليل من العيش ، يقال : فلان قتر على عياله أي

ضيق عليهم في النفقة . والمقتر : الفقير المقل . والقوام العدل بين شيئين لاستقامة الطرفين .

(٣) الانعام : ١٤١ والاعراف : ٣١ . (٤) الغريم : المديون .

بجوارح صحيحة فتكون قد أعذت فيما بيني وبينك في الطلب لا تباع أمرى ولكيلا تكون كلاً على أهلك ، فإن شئت رزقتك وإن شئت قُتِرَ عليك وأنت غير معذور عندي ، و رجل رزقه الله مالاً كثيراً فأنفقه ثم أقبل يدعو يا رب أرزقني فيقول الله عز وجل ألم أرزقك رزقاً واسعاً فهل أقتصدت فيه كما أمرتك ولم تسرف وقد نهيته عن الاسراف ، ورجل يدعو في قطعة رحم ثم علم الله نبيه عليه السلام كيف ينطق و ذلك أنه كانت عنده أوقية ^(١) من الذهب فكره أن تبیت عنده فتصدّق بها فأصبح وليس عنده شيء وجاء من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل و اغتم هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه وكان رحيماً رقيقاً فأدب الله عز وجل نبيه عليه السلام بأمره فقال : لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ^(٢) يقول : إن الناس قد يسألونك ولا يعذرونك فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال فهذه أحاديث رسول الله يصدّقها الكتاب والكتاب يصدّقها أهله من المؤمنين و قال : أبو بكر عند موته حيث قيل له : أوص فقال : أوصي بالخمس والخمس كثير فإن الله عز وجل قد رضي بالخمس فأوصى بالخمس وقد جعل الله له الثلث عند موته ، ولو علم أن الثلث خير له أوصى به ، ثم من قد علمتم بعده في فضله وزهده سلمان الفارسي - رضي الله عنه - و أبوذر - رحمه الله - فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنته حتى يحضر عطاؤه من قابل فقليل له : يا أبا عبد الله أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً ؟ فكان جوابه أن قال : مالكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم علي الفناء ، أما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتاث على صاحبها ^(٣)

(١) الاوقية بالضم و السكون و كسر الفاف و فتح الياء الشددة سبعة مثاقيل .

(٢) الاسراء : ٣١ . وهي تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف وامر بالاقتصاد الذي

هو بين الاسراف والتقتير : « فتقعد » اي فتصير ملوماً غير مرضى عند الله اذا خرجت من القوام و عند الناس ، اذ يقول المحتاج : اعطى فلانا وحرمنى ، ويقول المستثنى : ما يحسن تدبير امر الميشة ، وعند نفسك اذا احتجت فتدتمت على ما فعلت محسوراً نادماً او منقطعاً بك لا شيء عندك .

(٣) قوله « قد تلتاث » اي تبطل و تحبس عن الطاعات و تسترخى وتستضعف قال

الفيروز آبادى : اللوث : القوة والستر و البطوه في الامر .

إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت . وأما أبوذر - رضي الله عنه - فكانت له نويقات وشويهاث يحلبها ^(١) و يذبح منها إذا انتهى أهله اللحم أو نزل به ضيف أو رأي بأهل الماء الذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشياه على قدر ما يذهب عنهم بقرم اللحم ^(٢) فيقسّمه بينهم ويأخذ هو كنصيب واحد منهم لا يتفضل عليهم ، ومن أزهّد من هؤلاء ، وقد قال فيهم رسول الله ﷺ ما قال ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة كما تأمرون الناس باللقاء أمتعتهم وشيئهم ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم .

واعلموا أيها النفر أنني سمعت أبي يروي عن آبائه أن رسول الله قال يوماً : « ما عجبت من شيء ، كعجبي من المؤمن أنه إن قرّض جسده في دار الدنيا بالمقاريض كان خيراً له ، وإن ملك ما بين مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له وكل ما يصنع الله به فهو خير له » فليت شعري هل يحيق فيكم ^(٣) ما قد شرح لكم منذ اليوم أم أزيدكم ، أما علمتم أن الله قد فرض على المؤمنين في أوّل الأمر أن يقاتل الرجل من عشرة من المشركين ليس له أن يولّي وجهه عنهم ومن ولاهم يومئذ دبره فقد تبوّأ مقعده من النار ، ثم حوّلهم عن حالهم رحمة منه لهم فصار الرجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من الله عز وجل للمؤمنين فنسخ الرجلان العشرة وأخبروني أيضاً عن القضاة أجودهم حيث يقضون على الرجل منكم نفقة امرأته إذا قال : إنني زاهد وإنني لاشيء لي فإن قلتم جورة ظلمكم أهل الإسلام وإن قلتم بل عدول خصمتم أنفسكم وحيث تردّون صدقة من تصدّق على المساكين عند الموت بأكثر من الثلث ، أخبروني لو كان الناس كلهم كالذين تريدون زهاداً لأحاجة لهم في متاع غيرهم فعلى

(١) قوله : « نويقات » جمع نويقة مصغر نافقة وكذا « شويهاث » جمع شويهة مصغر شاة .

(٢) القرم - معركة - : شدة شهوة اللحم .

(٣) يحيق فيه أي أثر فيه ، ويحيق به : أحاط - ويحيق بهم : نزل . وفي بعض النسخ من المصدر [يحق] أي يثبت ويستقر فيهم . وفي بعضها [يحتفى] - بالحاء المهملة - فعناه هل يبالي في نصيحتكم والبر بكم وفي بعضها [يحتفى] والاختفاء جاء بمعنى الاظهار والاستخراج و بمعنى الاستتار والتواي وكلا المعنيين محتمل ههنا على بعد .

من كان يتصدق بكفارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزكاة من الذهب والفضة والنمر والزبيب وسائر ما وجب فيه الزكاة من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك إذا كان الأمر كما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدنيا إلا قدماً ، وإن كان به خصاصة ، فبئس ما ذهبتُم إليه وحملتُم الناس عليه من الجهل بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه وأحاديثه التي يصدقها الكتاب المنزل ورددكم إليها بجهالتكم وتركمكم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي ، وأخبروني أين أنتم عن سليمان بن داود حيث سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه الله جل اسمه ذلك وكان يقول الحق ويعمل به ، ثم لم نجد الله عز وجل عاب عليه ذلك ولا أحداً من المسلمين . وداود النبي قبله في ملكه وشدة سلطانه ، ثم يوسف النبي حيث قال ملك مصر : واجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ، فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن ، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحق ويعمل به فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه ، ثم ذوالقرنين عبد حب الله فأجبه الله وطوى له الأسباب وملكه مشارق الأرض ومغاربها وكان يقول الحق ويعمل به ، ثم لم نجد أحداً عاب ذلك عليه فتأدبوا أيها النفر بآداب الله عز وجل للمؤمنين واقتصروا على أمر الله ونهيه ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم مما لا علم لكم به ورددوا العلم إلى أهله توجروا وتعذروا عند الله تبارك وتعالى وكونوا في طلب علم ناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه وما أحل الله فيه مما حرم فإِنَّه أقرب لكم من الله وأبعد لكم من الجهل ودعوا الجاهلة لأهلها فإن أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل وقد قال الله عز وجل : « وفوق كل ذي علم عليم »^(١).

و بإسناده عنه عليه السلام أنه سئل عن الزهد في الدنيا قال : « ويحك حرامها فتنكبه »^(٢).

(١) يوسف : ٧٦ والخبر في الكافي ج ٥ ص ٦٥ تحت رقم ١ .

(٢) المصدر ج ٥ ص ٧٠ تحت رقم ١ .

وعنه عليه السلام : « ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا تحريم الحلال ، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله عز وجل » (١) .

تم كتاب الفقر والزهد من المحجة البيضاء في تهذيب الاحياء ويتلوه كتاب التوحيد والنوكل إن شاء الله وفرغ منه مؤلفه أقل العباد عملاً وأكثرهم زللاً محسن ابن مرتضى وفقه الله للتحلي بالحالات المرضية والمقامات المحمودة بمنه وكرمه والحمد لله رب العالمين .



كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربيع المنجيات من المحجة البيضاء، في تهذيب الإحيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المدبر للملك والملكوت ، المتفرّد بالعزّ والجبروت ، و الرافع السماء بغير عمد ، المقدر فيها أرزاق العباد ، الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط و الأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع همهم عن الالتفات إلى ما عداه ، و الاعتماد على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه ، علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإله ، وتحقيقاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغي عندهم الرزق ، وأنه مامن ذرة إلا إلى الله خلقها ، وما من دابة إلا على الله رزقها ، فلما تحقّقوا أنه لرزق عباده ضامن و به كفيّل توكلوا عليه و قالوا : حسبنا الله و نعم الوكيل .

و الصلاة على محمد قانع الأباطيل ، الهادي إلى سواء السبيل ، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فإن التوكل منزل من منازل الدّين و مقام من مقامات الموقنين بل هو من معالي درجات المقرّبين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ، و وجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد و التباعد عنها بالكليّة طعن في السنّة و قدح في الشرع و الاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً ، تغيير في وجه العقل و انقماش في غمرة الجهل و تحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد و العقل والشرع في غاية الغموض والعسر ، و لا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة هذا الخفاء إلا ساسة

العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالأعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا ونحن الآن نبده بذكر فضيلة التوكل على سبيل المقدمة ثم نردفه بالتوحيد في الشطر الأول من الكتاب و نذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

﴿ بيان فضيلة التوكل ﴾

أما من الآيات فقد قال الله تعالى : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » ^(١) وقال : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ^(٢) . وقال تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ^(٣) . وقال تعالى : « إن الله يحب المتوكلين » ^(٤) فأعظم بمقام موسوم بمحبة الله صاحبه ومضمون بكفاية الله ملائسه ، فمن الله حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب وقد قال الله تعالى : « أليس الله بكاف عبده » ^(٥) و طالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل وهو المكذب بهذه الآية فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق كقوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » ^(٦) وقال تعالى : « ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » ^(٧) أي عزيز لا يذل من استجاره ولا يضيع من لاذ بجناحه والنجأ إلى ذمامه وحماه ، و حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ، وقال تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » ^(٨) بين أن كل من سوى الله عبد مسخر حاجته مثل حاجتك فكيف تتكل عليه وقال : « إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه » ^(٩) . وقد قال تعالى : « والله خرائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون » ^(١٠) . وقال تعالى : « يدبر

- | | |
|--------------------|----------------------|
| (١) المائدة : ٢٣ . | (٢) ابراهيم : ١٢ . |
| (٣) الطلاق : ٣ . | (٤) آل عمران : ١٥٩ . |
| (٥) الزمر : ٣٦ . | (٦) الدهر : ٢ . |
| (٧) الانفال : ٤٩ . | (٨) الاعراف : ١٩٤ . |
| (٩) المنكوت : ١٧ . | (١٠) المنافقون : ٧ . |

الأمر ما من شفيح إلا من بعد إذنه ^(١).

وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار .

وأما الأخبار فقد قال عليه السلام فيما رواه ابن مسعود: «أريت الأمم بالموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهيئاتهم فقبل لي أرضيت؟ قلت : نعم قال : ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ فقال : الذين لا يكتنون ولا يتطيرون ولا يسترقون و على ربهم يتوكلون فقام عكاشة ابن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال عليه السلام : اللهم أجعله منهم فقام آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال رسول الله عليه السلام : سبقك بها عكاشة ^(٢). وقال عليه السلام : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » ^(٣).

وقال عليه السلام : « من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله كل مؤونة و رزقه من حيث لا يحتسب ، و من انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها » ^(٤). وقال عليه السلام : « من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده » ^(٥).

ويروى عن رسول الله عليه السلام «أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرني ربي قال تعالى : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » ^(٦). وقال عليه السلام : « لم يتوكل من استرقى و اكتوى » ^(٧). و روي أنه لما قال جبرئيل عليه السلام لا إبراهيم عليه السلام وقدرمي إلى النار من المنجنيق:

(١) بونس : ٣ .

(٢) قال العراقي : رواه ابن منيع باسناد حسن ، و متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٣) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٠٧ و قد تقدم .

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب .

(٥) أخرجه العاكم والبيهقي في الزهد . (٦) رواه الطبراني في الاوسط بنحوه .

(٧) أخرجه النسائي في الكبرى والترمذي في السنن ج ٨ ص ٢١٢ بتقديم وتأخير .

ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وفاء بقوله «حسبي الله ونعم الوكيل» إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى به فأنزل الله تعالى فيه « وإبراهيم الذي وفى » (١) .

و أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السماوات والأرض إلا جعلت له مخرجاً .

أقول : ومن طريق الخاصة عن الصادق عليه السلام ، أوحى الله تعالى إلى داود ما اعتصم عبداً من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته (٢) ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن ، وما اعتصم عبداً من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات الأرض من يديه وأسخت الأرض من تحته (٣) ولم أبال بأيٍّ واد هلك (٤) .

وعنه عليه السلام «أنه قرأ في بعض الكتب أن الله تعالى يقول وعزّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لا قطعن أمل كل مؤمل [من الناس] غيري باليأس ولا كسونه ثوب المذلة عند الناس ولا نحيينه (٥) من قربي ولا بعدته من وصلي أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري (٦) وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وياي مفتوح لمن دعاني فمن ذا الذي أمّلني لنوائبه فقطعته دونها ، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني ، جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي وملأت سمواتي ممن لا يمل من تسبيحي وأمرتهم أن لا يفلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي (٧) ألم يعلم [أن] من طرقة نائبة من نوائي أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد إذني ، فمالي أراه لاهياً عنّي ، أعطيته بجودي مالم يسألني ثم انتزعته عنه فلم يسألني رده وسأل غيري : أفيراني

(١) النجم : ٣٧ . (٢) «عرفت ذلك» نعمت للعبد .

(٣) أي خسفها من الاساخة . (٤) الكافي ج ٢ ص ٦٣ تحت رقم ١٠ .

(٥) أي لا بعدته واز يله .

(٦) تشبيه الفكر باليد مكنية وإثبات القرع له تخيلية وذكر الباب ترشيح .

(٧) أي وعدى الإجابة لهم .

أبدء بالعطاء قبل المسئلة ثم أسأل فلا أجيب سائلي أبخيل أنا فيبخلني عبدي^(١) أو ليس الجود والكرم لي ، أوليس العفو و الرحمة بيدي أو ليس أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني ، أفلا يخشى المؤمنون أن يؤملوا غيري فلو أن أهل سماواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً ، ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة و كيف ينقص ملك أنا قيّمه فيا بؤساً^(٢) للقانطين من رحمتي ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني^(٣).

وعنه عليه السلام : « إن الغنى والعزّ يجولان فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا »^(٤). وعن الكاظم عليه السلام في قول الله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »^(٥) فقال : « التوكل على الله على درجات منها أن تتوكل على الله في أمورك كلها فمافعل بك كنت عنه راضياً تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً وتعلم أن الحكم في ذلك له فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به فيها وفي غيرها ».

﴿ بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل ﴾

إعلم أن التوكل من أبواب الإيمان و جميع أبواب الإيمان لا ينتظم إلا بعلم و حال و عمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، ومن عمل هو الثمرة ، و حال هو المراد باسم التوكل فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل و هو المسمى إيماناً في أصل اللسان ، إذاً إيمان هو التصديق و كل تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوي سمي يقيناً ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ما يثبتني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » و الإيمان بالقدره التي يترجم عنها قولك : « له الملك » و إلا إيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك :

(١) بخله بالشديد أى نسه إلى البخل .

(٢) البؤس والبأساء : الشدة والفقر والحزن .

(٣) الكافي ج ٢ ص ٦٦ تحت رقم ٧ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٦٤ تحت رقم ٣ .

(٥) الطلاق : ٣ . والخبر في الكافي ج ٢ ص ٦٥ تحت رقم ٥ .

« وله الحمد و هو على كل شيء قدير » فمن قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد و هو على كل شيء قدير » فقد تم له الايمان الذي هو أصل التوكل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه غالباً عليه . فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه طويل وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفة يتعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة إلا بها ، فإذن لا نتعرض إلا للتقدير الذي يتعلق بالمعاملة و إلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذي لاساحله .

فنقول : للتوحيد أربع مراتب وهو منقسم إلى لبّ ولبّ اللبّ ، وإلى قشر وقشر القشر ، ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإن له قشرتين وله لبّ ولبّ لدهن هو لبّ اللبّ .

فالرتبة الأولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان باللسان « لا إله إلا الله » وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين ، و الثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد ، والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقرّبين و ذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار ، والرابعة أن لا يرى إلا واحداً و هي مشاهدة الصديقين ويسميه أهل المعرفة الفناء في التوحيد لأنّه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً و إذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنّه فنى عن رؤية نفسه والخلق .

فالأول موحدٌ بمجرد اللسان و يعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان ، والثاني موحدٌ بمعنى أنّه معتقد بقلبه مفهوم لفظه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وافتتاح ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة إن توفي عليها ولم تضعف بالمعاصي عقده و لهذا العقد حيل يقصدها تضعيفه وتحليله يسمى بدعة وله حيل يقصد بها رفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضاً إحكام هذه العقدة وشدّها على القلب و تسمى كلاماً و العارف بها يسمى متكلماً وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب

العوام وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث أنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقده ، والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم اللفظ فإن تلك رتبة العوام و المتكلمين ، إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع في تحليل هذه العقدة ، و الرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد ، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، و الثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، و الرابع كالدّهن المستخرج من اللب ، و كما أن القشرة العليا لا خير فيها بل إن أكلت فهي مر المذاق و إن نظر إلى باطنها فهو كره المنظر و إن اتخنت حطباً أطفأت النار و أكثر الدخان و إن تركت في البيت ضيقت المكان فلا تصلح إلا أن تترك مدة على الجوز للصون ، ثم ترمى فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر ، مذموم الظاهر والباطن ، لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هي القلب و البدن ، وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يأمرؤا بشق القلوب والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشر و إنما يتجرّد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده و كما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادّخار وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطباً لكنه نازلة القدر بالاضافة إلى اللب فكذلك مجرّد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة إلى مجرّد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف و المشاهدة التي تحصل بانسراح الصدر و انفساحه بإشراق نور الحق فيه إذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » (١) و بقوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » (٢) و كما أن اللب نقيس في نفسه بالاضافة إلى القشر وكله المقصود و لكنه لا يخلو

عن شوب عصاره بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصدٌ عالٍ للسالكين، لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والاتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من يشاهد سوى الواحد الحق.

فإن قلت : كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحداً وهو يشاهد السماء و الأرض و سائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحداً . فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سرّ الربوبية كفر ، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن يكون الشيء قديكون كثيراً بنوع مشاهدة و اعتبار و يكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة و الاعتبار ، وهذا كما أن الإنسان كثيرٌ إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر و مشاهدة أخرى واحداً إذ نقول : إنه إنسان واحد ، فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد و كم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده و الفرق بينهما فهو في حال الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق فكأنه في عين الجمع والملتفت إلى الكثرة في تفرقة ، فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات و مشاهدات كثيرة مختلفة ، و هو باعتبار واحد من حيث الاعتبار واحد ، و باعتبارات أخرى سواء كثيرٌ بعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبئ بالجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحداً و تستفيد بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث أنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبياً كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك وهذه المشاهدات التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام نادر عزيز وهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال .

فإن قلت : فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء النوكل عليه .

فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه وليس النوكل أيتناً مبنياً عليه بل يحصل حال النوكل بالتوحيد الثالث ، وأما الأول وهو التفات فهو واضح ، وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه .

وأما الثالث وهو الذي يبتني النوكل عليه إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال النوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط النوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب ، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله ، وأن كل موجود من خلق و رزق و عطاء و منع و حياة و موت و غنى و فقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم ، فالمتفرد با بداعه و إختراعه هو الله تعالى لا شريك له غيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك و إليه رجائك و به ثقته و عليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لاستقلالهم بتجريك ذرة في ملكوت السماوات والأرض ، وإذا افتتح لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضحاً أتم من المشاهدة بالبصر وإنما يعدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن ينطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسبيين : أحدهما الالتفات إلى اختياري الحيوانات والثاني الالتفات إلى الجمادات أما الالتفات إلى الجمادات كاعتمادك إلى المطر في خروج الزرع و نباته و نمائه و على الغيم في نزول المطر و على البرد في اجتماع الغيم و على الرّيح في استواء السفينة و سيرها وهذا شرك كلف في التوحيد و جهل بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى : « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاههم إلى البر إذا هم يشركون » (١) قيل : معناه إنهم يقولون : لولا استواء الرّيح لما نجونا ، و من انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الرّيح هواء والهواء لا تتحرك بنفسه ما لم يحركه وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه ، فالنفات العبد إلى النجاة بالرّيح يضاهي النفات من

أخذ لئجز^١ رقبته فكتب الملك توقيعاً بالعفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغذ والقلم الذي به كتب التوقيع ويقول : لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لامن محرّك القلم وهو غاية الجهل ، ومن علم أن القلم لاحكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب ، بل ربّما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب عن أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخر في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أن الملك الموقّع هو كاتب التوقيع والحق أن الله هو الكاتب كما قال تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » ^(١) فإذا انكشف لك أن جميع ما في السماوات والأرض مسخّرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائباً وآيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فيأتيك في المملكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يجزّ رقبته بسيفه وهو قادر عليك فإن شاء جزّ رقبته وإن شاء عفا عنك فكيف لاتخافه ولا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول لك أيضاً : نعم إن كنت لاترى القلم لأنه مسخر فكيف لاترى الكاتب بالقلم وهو مسخر له ، وعند هذا زلّ أقدام أكثر من الناس إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرّاً مضطراً كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرّاً ، وعرفوا أن غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدب على الكاغذ فترى رأس القلم يسود الكاغذ ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلاً من صاحب اليد ، وظنّت أن القلم هو المسود للبياض وذلك لقصور بصره عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله صدره قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والأرض ومشاهدة كونه قاهر أوراها الكل فوق في الطريق على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والمشاهدات

قد أنطق الله في حقهم كل ذرة في الأرض والسموات بقدرته التي بها أنطق كل شيء، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله وشهادتها على أنفسها بالعجز بلسان ذلق يتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ، ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيه ولا قد لما شارك فيه البهائم وإنما يريد به سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي فإن قلت: فهذه العجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سبحت وقدست وكيف شهدت على نفسها بالعجز؟ فاعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أبواب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله الذي لا نهاية له «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً» ثم إنها تتناجي بأسرار الملك والملكوت، وإفشاء السر لئلا يطلع على صدور الأحرار قبور الأسرار، وهل رأيت قط أميناً على أسرار الملك قد نوحى بخفائيه فنادى بسرّه على ملا من الخلق ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (١) بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكوا ولا يضحكوا، ولما نبى عن إفشاء سرّ القدر (٢) ولما خصّ حذيفة - رضي الله عنه - ببعض الأسرار (٣) فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أبواب المشاهدات مانعان: أحدهما استحالة إفشاء السر، والثاني خروج كلماتها عن الحصر والنهية، ولكننا في المثال الذي كنا فيه وهو حركة القلم نحكي من مناجاتها قدراً يسيراً يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات، وإن لم تكن هي حروفاً وأصواتاً ولكن هذه ضرورة التفهيم، فنقول: قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكافذ وقد رآه اسودّ وجهه بالحبر: ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً

(١) تقدم غير مرة .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير .

(٣) راجع صحيح مسلم ج ٨ ص ١٧٣ كتاب الفتن ومسنّد أحمد ج ٥ ص ٣٨٦ .

والآن قدظهر عليه السواد فلم سوّدت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغذ : ما أنصفتني في هذه المقالة فإني ما سوّدت وجهي بنفسي لكن سل الحبر فإنه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحتي وسود وجهي ظلماً وعدواناً ، فقال : صدقت فسأل الحبر عن ذلك ، فقال : ما أنصفتني فإني كنت في المحبرة وادعاً ساكناً عازماً على أن لا أبرح منها فاعتدى عليّ القلم بطبعه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلدي وفرّق جمعي وبدّدني كما تراه عليّ ساحة بيضاء فالسؤال عليه لاعليّ ، فقال : صدقت ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراج الحبر من أوطانه ، فقال : سل اليد والأصابع فإني كنت قصباً نابئاً على شطّ الأنهار متنزّها بين خضرة الأشجار فجاءتني اليد بسكين ففحت عني قشري ومزّقت عني ثيابي واقتلعتني من أضلي وفصلت بين أنا وبينّي ثم برتني وشقّت رأسي ثم قمستني في سواد الحبر ومرارته وهو ذا تستخدمني وتمشيّني على قمّة رأسي ، فلقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك فتنحّ عني وسل من قهرني فقال : صدقت ثم سأل اليد عن ظلمها على القلم واستخدامها له وتعدّيها عليه فقال اليد : ما أنا إلا لحم وعظمٌ ودمٌ وهل رأيت لحماً أو جسماً يتحرّك بنفسه إنما أنا مركب مسخر ركبني فارسٌ يقال له القدره والقوّة ، وهي التي تردّدني وتجول بي في نواحي الأرض ، أمّا ترى المدد والحجر والشجر لا يتعدّى شيء منها مكانه ولا يتحرّك بنفسه إذ لم يركبها مثل هذا الفارس القويّ القاهر ، أمّا ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم فأنا أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم ، فسأل القدره عن شأني فإني مركب أزعجني من ركبني ، فقال : صدقت ثم سأل القدره عن شأنها في استعمالها اليد واستخدامها وكثرة ترديد لها ، فقالت : دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له ، وكيف خفي عليك أمري أو كيف ظننت أنني ظلمت اليد لما ركبته ولقد كنت راكباً إياها قبل التحريك وما كنت أحرّكها ولا أستسخرها بل كنت نائماً ساكناً نوماً حتى ظنّ ظالمون بي أنني ميّنة أو معدومة لأنني ما كنت أتحرّك ولا أحرّك حتى جاءني موكل

أزعجني وأرهقني^(١) إلى ما تراه مني ، فكانت لي قوة على مساعدته ولم يكن لي قوة على مخالفته وهذا الموكل يسمى الإرادة ولا أعرفه إلا باسمه وبهجومه وصياله^(٢) إذ أزعجني من غمرة النوم وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورائي فقال : صدقت ثم سألت الإرادة ما الذي حداك على هذه القدر الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقاً لم تجد عنه خلاصاً ومناصاً ، فقالت الإرادة لا تعجل عليّ فلعلّ لنا عنداً وأنت تلوم فإني ما انتهيت بنفسي ولكنني أُنهض وما انبعت ولكنني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم فقد كنت ما كنت قبل مجيئه ولكن ورد عليّ من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالأشخاص للقدره فأشخصتها باضطراباً فني مسكين مسخر تحت قهر العلم والعقل ولا أدري بأيّ جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته لكنني أدري أنني في دعة وسكون ما لم يرد عليّ هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفاً وألزمت طاعته إلزاماً بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة في المخالفة لعمرى مادام هو في التردد على نفسه والتحير في حكمه فأناساً كنهة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة ليقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك فإني كما قيل :

منى ترحلت عن قوم وقد قدروا ✽ ألا تفارقهم فالرّاحلون هم

فقال : صدقت ، وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً ومعاتباً إياهم على استنهاض الإرادة وترشيحها لأشخاص القدرة فقال العقل له : أمّا أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكنني اشعلت ، وقال القلب : أمّا أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكنني بسطت ، وقال العلم : إننا أنا نقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي ولكنني خططت ، فكم كان هذا اللوح قبلي خالياً عني فسل القلم عني فإن الخط لا يكون إلا بالقلم فعند هذا تتعنع السائل^(٣) ولم يقنعه

(١) أرهقه اثناً : كلفه إياه وأرهقه أى حمله مالا يطيق .

(٢) صال عليه وصول صيالا : سطا عليه وقهره .

(٣) تتعنع في الكلام تردد فيه من حصر أوصى .

جوابه ، وقال : قد طال تعبني في هذا الطريق وكثرت منازلتي ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكنني كنت أطيّب نفساً بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد وعذراً ظاهراً في دفع السؤال ، فأما قولك فإنني خطئٌ ونقشٌ وإنما خطئني قلمٌ فلست أفهمه فإنني لا أعلم قلماً إلا من القصب ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب ولا خطأً إلا بالجبر ولا سراجاً إلا من النار ، وإنني أسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أ شاهد من ذلك شيئاً أسمع جمعة ولا أرى طحناً ، فقال له العلم : صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف والمهلك في الطريق الذي توجهت إليه كثيرة فالصواب لك أن تنصرف و تدع ما أنت فيه فها هذا بعشك^(١) فأدرج عنه فكل ميسرٌ لما خلق له . وإن كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصود فألق سمعك وأنت شهيد :

واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أوّلها ولقد كان الكاغذ والجبر والقلم واليد من هذا العالم وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثاني عالم الملكوت وهو ورائي فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازلها وفيها المهامه^(٢) الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ولا أدري كيف تسلم فيها ، والثالث عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاثة منازل إذ في أوائلها منزل القعدة والإرادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والملكوت لأنّ عالم الملك أسهل منه طريقاً وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً وإنّما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي بين الأرض والماء فلا هي في حدّ اضطراب الماء ولا هو في حدّ سكون الأرض وثباته وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة كان كمن يمشي في عالم الملكوت من غير تكعكع^(٣) فإن كنت

(١) العش - بضم العين و تشديد الشين المعجمة - موضع الطائر .

(٢) المهمة : المفازة البعيدة . (٣) تكعكع : احتبس عن وجهه أو جبن .

لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي ، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم التي يكتب به العلم وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء ، أما سمعت قول رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام « لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء » لما قيل له : إنه كان يمشي على الماء ^(١) فقال السائل السالك : قد تحيرت في أمره واستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطيق قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة ؟ فقال : نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينك وحدقه نحوي فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت و قرع أول باب من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، أما ترى أن النبي ﷺ في أول مرة كوشف بالقلم إذا نزل عليه قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق - إلى قوله - اقرأ وربك الأكرم » الذي علم بالقلم » علم الإنسان ما لم يعلم » ^(٢) فقال السالك : لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قصباً ولا خشباً ولا أعلم قلماً إلا كذلك ، فقال العلم : لقد أبعدت النجمة ^(٣) أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا يشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا يشبه يده سائر الأيدي ولا قلمه سائر الأقلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس الله في ذاته بجسم ، ولا هو في مكان بخلاف غيره ، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولا خطه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا غشياً بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه مذهباً بين هذا وذاك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيف نزهت ذاته تعالى وصفاته عن ذوات الأجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه فإن كنت قد فهمت من قوله : « إن الله خلق آدم على

(١) تقدم سابقاً .

(٢) العلق : ٢ إلى ٦ .

(٣) النجمة طلب الكلام في موضعه .

صورته»^(١) الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكان مشبهياً مطلقاً كما يقال كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلعب بالتورية ، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكان منزهاً صرفاً ومقدساً فضلاً واطو الطريق فإتاك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى فلعلك تجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العز تنادى بما نودي به موسى إني أنا ربك الأعلى ، فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه خُنت بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه ناراً من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ولقد كاد زينة الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء. ولولم تمسسه ناراً ، فلما نفع فيه العلم بحدته اشتعل زينة فأصبح نوراً على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك فلعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره فأنكشف له القلم الإلهي وإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه وما هو من خشب ولا قصب ولا رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له في كل قلب رأس ولأرأس له ففقد من العجب وقال : نعم الرقيق العلم جزاء الله عني خيراً إذاً الآن ظهر لي صدق إنبائه عن أوصاف القلم فإني أراه قلماً لا كالأقلام ، فعند هذا ودع العلم وشكره وقال : قد طال مقامي عندك و مرادتي لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم فأساله عن شأنه ، وسافر إليه وقال : أيها القلم مالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادة إلى أشخاص القدرة و صرفها إلى المقدورات فقال : أفنسيت ما رأيت في عالم الملك و الشهادة و سمعته من جواب القلم إذ سأله فأحالك على اليد قال : لم أنس ذلك ، قال : فجوابي مثل جوابه ، قال : كيف وأنت لا تشبهه قال القلم : أما سمعت « أن الله تعالى خلق آدم على صورته » قال : نعم ؟ قال : فسل عن شأني الملقب بيمين الملك فإني في قبضته هو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الأدمي في معني التسخير وإنما الفرق في ظاهر الصورة فقال : ومن يمين الملك قال : أما سمعت قوله تعالى « والسماوات مطويات بيمينه »^(٢) قال : نعم قال فالأقلام أيضاً في قبضته هو الذي يرددها فساfer

السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، ويدٌ لا كالأيدي ، وأصبع لا كالأصابع ، فرأى القلم محرراً كما في قبضته فظهر له عند القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم ، فقال جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيته في عالم الشهادة وهي الحوالة على القعدة إذ اليد تحكم لها في نفسها وإنما محرراً كما القعدة لا محالة فسافر السالك إلى عالم القعدة ورأى فيها من العجائب ما استحقر عندها ما قبلها وسألها عن تحريك اليمين فقال : إنما أنا صفة فسل القادر إذ العهدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد يزيغ قلبه وينطق بالجرأة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة « لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون » فتشيتته دهشة الحضرة فخرٌ صعقاً يضرب في غشيته مدّة فلما أفاق قال : سبحانك ما أعظم شأنك و أعز سلطانك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعود إلا بعفوك من عقابك و برضاك من سخطك ، و مالي إلا أن أسالك و اتضرع إليك وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح صدري لأعرفك ، واحلل عقدة من لساني لا تنني عليك فنودي من وراء الحجاب إيتاك أن تطمع في الثناء و تزيد على سيد الأنبياء بل ارجع إليه فما أتاك فخذ و ما نهاك عنه فاته ، وما قاله فقله فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال : « سبحانك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (١) فقال : إلهي إن لم يكن للسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك ؟ فنودي إيتاك أن تتخطى رقاب الصدّيقين أما سمعتم يقولون : العجز عن درك الإدراك إدراك ، فيكيفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا ، عاجزٌ عن ملاحظة جلالنا وجلالنا ، فعند هذا رجع السائل السالك واعتذ عن أسولته و معاتبته و قال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقعدة وما بعده : أقبلوا

(١) كان من دعائه صلى الله عليه وآله « لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على

نفسك » وقد تقدم غير مرة من الترمذى وابن ماجه وغيره .

عندي فاني كنت غرباً حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة فما كان إنكاري عليكم إلا عن قصور وجهل والآن قد صبحٌ عندي عندكم وانكشف لي أن المتغرض بالملك والملكوت والعزّة والجبروت هو الواحد القهار ، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره مردّدون في قبضته وهو الأول والآخِر والظاهر والباطن ، فلمّا قال ذلك في عالم الشهادة استبعد ذلك منه وقيل : كيف يكون هو الأول والآخِر وهما متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن والأوّل ليس بآخر والظاهر ليس بباطن فقال هو الأوّل بالإضافة إلى الوجود إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد ، وهو الآخر بالإضافة إلى سائر السائرين إليه فإنهم لا يزالون مترقّين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر في المشاهدة أوّل في الوجود وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس ، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه بالسراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت فهذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل أعني من انكشف له أن الفاعل واحد .

فإن قلت : لقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتني على الإيمان بعالم الملكوت فمن لا يفهم ذلك أويجده فما طريقه ؟

فأقول : أمّا الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له : إنكارك لعالم الملكوت كما نكار السمنية لعالم الجبروت وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس ، ولازموا حضيض عالم الشهادة ، فإن قال : وأنا منهم فاني لا أعتدي إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئاً سواه ، فيقال : إنكارك لما شاهدنا بما وراء الحواس الخمس كما نكار السوفسطائية للحواس الخمس فإنهم قالوا ما نراه لاثق به فلعلمنا نراه في المنام فإن قال : وأنا من جعلتهم فاني شاكٌ أيضاً في المحسوسات فيقال : هذا شخص فسد مراحه وامتنع علاجه فيترك ، فلا كل مريض يقوى على علاجه إلا طبّاه هذا حكم الجاحد ، وأمّا الذي لا يجحد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن يتنوا إلى عينه التي

بها يشاهد عالم الملكوت فإن وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ما، أسود يقبل التنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة ، فإذا استوى بصره ارشد إلى الطريق ليسلكه كما فعل ذلك رسول الله ﷺ بخواسب أصحابه ، وإن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك السبيل الذي ذكرناه في التوحيد ، ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بمشاهدة التوحيد كلّموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإن في عالم الشهادة أيضاً توحيد إذ يعلم كل واحد أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأيرين فيقال له على حدّ عقله : إله العالم واحد والمدبر واحد إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلّف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم^(١) ولذلك نزل القرآن بلسان العرب وعلى حدّ عاداتهم في المحاوراة .

فإن قلت : فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلاً فيه ؟

فأقول : نعم فإن الاعتقاد إذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالباً و لذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه أو إلى من يتعلم هذا الكلام منه ليحرس به العقيدة التي تلقنها من استاده أو من أبويه أو من أهل بلده و أمّا الذي يشاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيئاً من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقيناً وإن كان يزداد وضوحاً كما أن الذي يرى إنساناً في وقت الأسفار لا يزداد يقيناً عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحاً في تفصيل خلقته وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري فإن سحرة فرعون لما أن كانوا مطّلعين على منتهى تأثير السحر لطول

(١) روى الكليني في الكافي ج ١ ص ٢٣ والبرقي في المحاسن وغير واحد من أرباب السنن من الجمهور عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : «نحن معشر الانبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»

مشاهدتهم وتجربتهم فرأوا من موسى ﷺ ما جاوز حدود السحر انكشفت لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقول فرعون «فلا قطعن أيديكم وأرجلكم» بل «قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنّا بربنا ليغفر لنا خطايانا» ^(١) فإن البيان والكشف يمنع التغيير وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان فلما نظروا إلى عجل السامري وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله «هذا إلهكم وإله موسى فنسي» ^(٢) أنه لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان فيكثر لا محالة إذا نظر إلى عجل لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير، وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافاً وتناقضاً أصلاً.

فإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهرٌ مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الإنسان فإنه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخراً ؟

فاعلم أنه لو كان مع هذا يشاء إن شاء ولا يشاء إن لم يشأ لكان هذا مرّة القدم وموقع الغلط ولكن علمت أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه ، إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى ويتسلسل إلى غير نهاية ، وإذا لم تكن المشيئة إليه وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدرها انصرفت القدرة لاحالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة ، فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة تحرّكة ضرورة عند انجزام المشيئة والمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات مرتبة بعضها على بعض ، وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطرب في الجميع .

فإن قلت : فهذا جبرٌ محضٌ والجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبوراً مختاراً ؟

(١) طه : ٧١ و ٧٣ .

(٢) طه : ٨٨ .

فأقول لو أنكشف لك الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور فهو إذن مجبور على الاختيار وكيف يفهم هذا من لم يفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحاً وجيزاً يليق بما نذكر متطعلاً وتاباً فإن هذا الكتاب لم يقصده إلا علم المعاملة ولكنني أقول : لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه إذ يقال الإنسان يكتب بالأصبع ويتنفس بالريّة والحنجرة ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الخرق في الماء والتنفس والكتابة وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطراب والجبر واحد ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسمي خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلاً طبيعياً ، ونسمي تنفسه فعلاً إرادياً ، ونسمي كتابته فعلاً اختيارياً والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهمل وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح في الهواء انخرق لاهماله فيكون الخرق بعد التخطي ضرورياً والتنفس في معناه فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن فمهما كان الثقل موجوداً وجد الانخراق بعده وليس الثقل إليه فكذلك مهما وجدت إرادة التنفس وجدت بعدها حركة الحنجرة بالضرورة فكذلك الإرادة ليست إنبيه ولذلك لو قصد عين إنسان بآلة طبقت الأجفان اضطراباً ولو أراد أن يتركها مفتوحة لا يقدر مع أن تغميض الأجفان اضطراباً فإفعل إرادياً ولكنه إذا تمثل صورة الآلة في مشاهدته بالادراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بهاء لو أراد أن يترك التغميض لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدره والإرادة فقد التحق بالفعل الطبيعي في كونه ضرورياً ، وأما الثالث وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذي يقال فيه : إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا أن الأمر إليه وهو الجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، وبيان أنه الإرادة تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحجير وتردد وإلى ما قد يتردد العقل فيه ، فالذي تقطع به من غير تردد أن تقصد عينك مثلاً بآلة أو بدئك بسيف فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك و موافق فلا جرم تنبث

الإرادة بالعلم والقعدة بالإرادة وتحصل حركة الأجلان بالدفع وحركة اليد بدفع
السيف و ذلك من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالإرادة ، ومن الأشياء ما يتوقف
التمييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتبين
أن الخير في الفعل أو الترك فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير
التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية وفكر وانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع
السيف والإبرة ، فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة إختياراً
مشتقاً من الخير أي هو انبعث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ولم
ينظر في انبعثاتها إلا ما انتظرت في انبعث تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في
حقه إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر
إلى الروية فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإسادة العقل فيما
له في إدراكه توقف ، وعن هذا قيل : العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين
وشر الشرين ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والخيال أو بحكم جزم
من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يجز رقبة نفسه لم يمكنه ذلك لالعدم القعدة
في اليد والعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقعدة ، وإنما فقدت
الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقاً وقتله نفسه ليس
موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق
فإن العقل ههنا يتوقف في الحكم ويتردد لأنه يتردد بين شر الشرين فإن ترجح
له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل
أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقعدة وأهلك
نفسه كالذي يتبع بالسيف ليقول فإنه يرمي بنفسه من السطح وإن كان مهلكاً ولا
يبالي ولا يمكنه أن يرمي نفسه وإن كان يتبع بضرب خفيف ، فإذا انتهى إلى طرف
السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي
نفسه ولا تنبعث داعية البتة لأن داعية الإرادة مسخرة لحكم العقل ، والحس
والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقعدة ، والكل مقدّر بالضرورة فيه

من حيث لا يدري فإنما هو محلّ و مجرى لهذه الأمور ، فأنما أن يكون منه فكلاً ولا ، فإن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامنه ومعنى كونه مختاراً أنه محلّ لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً و حدث الحكم أيضاً جبراً ، فإن هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض وفعل الله اختيار محض و فعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنّه جبر على الاختيار وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه ويسمى فعل الله اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحيّر وتردّد فإنّ ذلك في حقه محال وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن يستعجل في حقّ الله إلا على نوع من الاستعارة و التجوّز ، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه .

فإن قلت : فهل تقول : إن العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وإن كلّ متأخّر حدث المتقدم فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لامن قدرة الله و إن أبيت ذلك فما معنى ترتّب البعض من هذا على البعض ؟

فاعلم أن القول بأنّ بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبّر عنه بالتولّد أو غيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزليّة وهو الأصل الذي لم يقف عليه كافّة الخلق إلا الراسخون في العلم فإنّهم وقفوا على كنه معناه والكافّة وقفوا على مجرّد دلفظه مع نوع تشبيهه بقدرةنا وهو بعيد عن الحقّ وبيان ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتّب على البعض في الحدوث ترتّب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزليّة إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محلّ الحياة ، و كما لا يجوز أن يقال : الحياة حصلت من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط بما ظهر للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواصّ المكشفين بنور الحقّ وإلا فلا يتقدّم متقدّم ولا يتأخّر متأخّر إلا بالحقّ واللزوم وكذلك جميع أفعال الله ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاوي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علواً كبيراً ، وإلى هذا أشار قوله تعالى : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بعيننا ما خلقناهما إلا بالحقّ »

ولكن أكثرهم لا يعلمون،^(١) فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم ولا يتصور أن يكون إلا كما حدث على الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخر إلا بما ينتظر شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكوفه مقدوراً ، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد الحياة^(٢) إلا لفقد شرطها وهو العلم ، وكل ذلك على منهاج الواجب و ترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتقدير ، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فإن الغافل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو عليه التوكل والاعتماد ، ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات عنه وكل ذلك ينطوي تحت قولك لا إله إلا الله ، وما أخف مؤونته على اللسان ، وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ، وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين فكيف عند غيرهم .

فإن قلت : كيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله فاعلاً وإن كان الله فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟ فأقول : نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجماً مراداً بينهما لم يتناقض كما يقال : قتل الأمير فلاناً و يقال : قتل الجلاّد ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاّد بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله تعالى فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله فاعلاً أنه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق الله فيه العلم فارتبطت القدرة والإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط وارتبطت القدرة بالله ارتباط

(١) الدخان : ٣٨ و ٣٩ .

(٢) في الاحياء د بعد العلم .

المعلول بالعلّة وارتباط المخترع بالمخترع ، وكلّ ماله ارتباط بقدره فإن محلّ القدرة يسمّى فاعلاً له كيف ما كان الارتباط كما يسمّى الجلاد قاتلاً و الأمير قاتلاً لأنّ القتل ارتباط بقدرتهما ، ولكن على وجهين مختلفين فلذلك يسمّى فعلاً لهما فكذلك ارتباط المقدور بين القدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله الأفعال في القرآن مرّة إلى الملائكة ومرّة إلى العباد ونسبها بعينها مرّة: أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت : « قل يتوفّيكم ملك الموت الذي وكلّ بكم » ^(١) ثمّ قال : « الله يتوفّي الأنفس حين موتها » ^(٢) وقال : « أفرأيتم ما ترحنون به » أنتم تزرعونوه ^(٣) فأضاف إلينا ثمّ قال : « أنا صببنا الماء صبّاً » ثمّ شققنا الأرض شقّاً » فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً ^(٤) وقال : « فأرسلنا إليهم روحنا فتمثل لها بشرّاً سوياً » ^(٥) ثمّ قال : « فنفخنا فيها من روحنا » ^(٦) وكان النافخ جبرئيل وكما قال تعالى : « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » ^(٧) قيل في التفسير معناه فاذا قرأ عليك جبرئيل . وقال تعالى : « قاتلوهم يعدّ بهم الله بأيديكم » ^(٨) فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صريح وقال : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » ^(٩) وهو جمع بين التقي والإثبات ظاهراً ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون به الرّبّ رامياً إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به رامياً إذ هما معنيان مختلفان وقال تعالى : « الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم » ^(١٠) ثمّ قال : « والرحمن علّم القرآن » ^(١١) وقال : « علّمه البيان » ^(١٢) وقال : « إن علينا جمعه وقرآنه - إلى قوله - بيانه » وقال تعالى : « أفرأيتم ما تمنون به أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » ^(١٣) ثمّ قال رسول الله ﷺ في وصف ملك الأرحام

(١) السجدة : ١١ . (٢) الزمر : ٤٢ .

(٣) الواقعة : ٦٤ و ٦٥ . (٤) عبس : ٢٥ إلى ٢٨ .

(٥) مريم : ١٨ . (٦) الانبياء : ٩١ .

(٧) القيامة : ٢٠ . (٨) التوبة : ١٤ .

(٩) الانفال : ١٧ . (١٠) الملوك : ٤ و ٥ .

(١١) الرحمن : ١ و ٢ . (١٢) الرحمن : ٤ .

(١٣) الواقعة : ٥٩ و ٦٠ .

«إنه يدخل الروح فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسداً فيقول : يارب أذكر أم أنثى أسوي أم معوج» فيقول الله ما شاء، ويخلق الملك^(١) وفي لفظ آخر «يصور الملك ثم ينتفخ فيها الروح بالسعادة أو بالشقاوة» وقد قال بعض السلف: إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجسام وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحاً يلج في جسم ولذلك سمى روحاً ، وما ذكره من مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأما كون الروح عبادة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل ، والحكم يمدون النقل تخمين مجرّد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال : «أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد»^(٢) وقال : «شهد الله أنه لا إله إلا هو»^(٣) فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس بمتناقض بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله بالنظر إلى الموجودات وكم من طالب عرف الموجودات بالله كما قال بعضهم: عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي. وهو معنى قوله : «أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» وقد وصف الله نفسه بأنه المحيي والمميت وفوض الموت والحياة إلى ملكين فقي الخبر «إن ملكي الموت وملك الحياة تناظرا» فقال ملك الموت: أنا أُميت الأحياء، وقال ملك الأحياء : أنا أحيي الموتى فأوحى إليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وإنما أنا المميت والمحيي لا مميت ولا محيي سواي، فإذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت ، ولذلك قال عليه السلام للذي ناوله التمرة: «خذها ولم تأت بها لتك»^(٤) أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة ومعلوم أن التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها وكذلك لما قال التائب أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد فقال عليه السلام : عرف الحق لأهله^(٥) فكل من أضاف الكل إلى الله

(١) أخرجه البزار وابن عدى من حديث عائشة كما في المغنى .

(٢) فصلت : ٥٣ . (٣) آل عمران : ١٨ .

(٤) أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصله

الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح (المغنى) .

(٥) أخرجه أحمد والطبراني من حديث الاسود بن السريغ بسند ضعيف .

تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة لأهله ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوز المستعير في كلامه و للتجوز وجه كما أن للحقيقة وجهاً واسم الفاعل وضعه واضح اللغة للمخترع ، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلاً بحر كنه ، وظن أنه تحقيق وتوهم أن نسبته إلى الله على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاء فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس و قالوا إن كان الفاعل قد وضعه أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل إلا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تنجوز به مما وضعه اللغوي له . ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصداً و اتفاقاً صدقه رسول الله صلى الله عليه وآله و قال عليه السلام : أصدق بيت قاله شاعر قوئ لبيد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » (١) أي كل ما لا قوام له في نفسه وإنما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإنما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه فإذن لا حق بالحقيقة إلا الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء ، و هو السميع البصير فإنه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ، ولذلك قال سهل : يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول : أنا وأنا ، كن الآن كما لم تكن فإنه اليوم كما كان .

فإن قلت : فقد ظهر الآن أن الكل جبر فمما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلا نطول بإعادته ، فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة ، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب ولا يتم حال التوكل كما سيأتي إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل ، وهذا أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكشفين فيه طويلة فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقاداً قاطعاً لا يستريب فيه وهو أن

(١) راجع صحيح مسلم ج ٧ ص ٤٩٠.

يصدق تصديقاً يقينياً لا ضعف فيه ، و لا ريب أن الله تعالى لو خلق الخلائق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا على الخير والشر والنفع والضرر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم من التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ، و لا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع فيها ذرة أو يخفض منها ذرة ، ولا أن يدفع مرض أوعيب أو تنقص أو فقر أو ضرر ممن يلي به و لا أن يزال صحة أو جمال أو غنى أو نفع ممن أنعم به عليه بل كل ما خلق الله تعالى من السموات والأرض إذا رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور ، و كل ما قسم الله بين عباده من رزق وأجل وسرور وفرح وهم وغم وعجز وقدة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي والقدر الذي ينبغي و ليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل فلو كان وادّخره مع القدرة ولم يفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل ، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية بل كل فقر وضرر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره إذ لولا اللبيل لما عرف النهار ، ولولا المرض لم يتنعم الأصحاء بالصحة ، و لولا النار لم يعرف أهل الجنة قدر النعمة فكما أن فداء أرواح الإِنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعمة على سكاّن الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران وفداء لأهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل ومالم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ولو لا خلق البهائم لما ظهرت شرف الإِنس فإن الكمال والنقص جميعاً يظهر بالإضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص

جميعاً وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص فكذا الأمر في النفات الذي بين الخلق في القسم في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه ، وهذا الآن بحر آخر عظيم واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ، و وراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الكثرون ومنع عن إفشاء سره المكشفون ، والحاصل أن الخير والشر مقضي به وقد صار ما قضى الله به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره ، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولنتقصر على هذه المرامز من علوم المكاشفات التي هي أصول مقام التوكل ولنرجع إلى علم المعاملة .

✽ (الشرط الثاني من الكتاب في احوال التوكل واعماله) ✽

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان ما قاله الشيوخ في حد التوكل و بيان التوكل في الكسب للمنفرد والمعيّل ، وبيان التوكل بترك الادّخار ، وبيان التوكل في دفع المضار ، وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوي وغيره .

✽ (بيان حال التوكل) ✽

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل ، وذكرنا العلم ، فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وإنما العلم أصله والعمل ثمرته وقد أكثر الخائضون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة في النقل والاكتثار ولنكشف الغطاء عنه ، فنقول التوكل مشتق من الوكالة يقال: وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه ويسمى الموكل إليه وكيلاً ويسمى المفوض إليه متكللاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت نفسه إليه وثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً ، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب

الوكيل في الخصومة مثلاً فنقول : من ادّعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلاً عليه ولا واثق القلب مطمئن النفس بوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة ، أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شي ، أصلاً ، وأما القدرة والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يدهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن فإنه ربما يطّلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضغفة للقلب عن التصريح به ، وأما الفصاحة فهي أيضاً من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه ، فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقده ، وأما منتهى الشفقة فليكون باعاً له على بذل كل ما يقدر عليه من المجهود في حقه فإن قدرته لاتغني دون العناية به إذا كان لا يهتم أمره ولا يبالي به ظفر به خصمه أولم يظفر ، هلك به حقه أولم يهلك ، فإن كان شاكاً في هذه الأمور الأربعة أو في واحدة منها أو جوزه أن يكون خصمه أكمل في هذه الأربعة منه لم مطمئن نفسه إلى وكيله بل بقي منزع القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام من أجله فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقواهم بياناً وأقدهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق ، فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس التوكل على الله تعالى فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم

والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد بالآحاد ، وإنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لاحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فإن الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة ، فإن كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك فسيبه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وازعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة له من غير نقصان في اليقين فإن من يتناول عسلاً يشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه و تعذر تناوله عليه ، ولو كآف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه وإن كان متيقناً لكونه ميتاً وأنه مجاد في الحال وأن سنة الله مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادراً عليه كما أنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حياة ولا يقلب السنور أسداً ، وإن كان قادراً عليه ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ، فينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش أو الميت معه في بيت ، ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلماً يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل فقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه فإذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمانينته ، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر ، فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال : تعالى لا إبراهيم وأولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي^(١) فالنفس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ، وذلك لا يكون في البداية أصلاً وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب ، فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده ، وكذا النصراني ولا يقين لهما أصلاً وإنما يتبعون الظن وما

تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى» وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون عنه ، فاذن الجبن والجرأة غرائز ولا ينفع اليقين معها فهي أحد الأسباب التي تضاد^١ حال التوكل كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله وقد قيل : مكتوب في التورية ملعون من ثقته إنسان مثله ، وقد قال عليه السلام : « من استعز بالعبيد أدله الله »^(١) وإذا انكشف معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلًا ، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات : الأولى ما ذكرناه وهي أن يكون حاله في حق الله والثقة بكفالاته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل ، الثانية وهو أقوى أن يكون حاله مع الله كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفزع إلى ما سواها ، ولا يعتمد إلا عليها فإن رآها تعلق بها في كل حال وتشبث بذيلها ولم يخلها ، وإن نابه أمر في غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه يا أمّاه وأوّل خاطر يخطر على قلبه أمّاه ، فإنها مفزعه لأنه قد وثق بكفالاتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظها ولا على إحضارها مفصلة في ذهنه ، ولكن كل ذلك وراء الإدراك فمن كان باله إلى الله ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بأمّاه فيكون متوكلًا حقًا فإن الطفل متوكل على أمّاه والفرق بين هذا وبين الأوّل أن هذا متوكلٌ وقد فنى في توكله عن توكله ، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغبر المتوكل عليه ، وأمّا الأوّل فمتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيًا عن توكله ، أي له الثقات إلى توكله وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وجده ، وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه ؟ قال : ترك الأماني ، قيل فأوسطه ؟ قال : ترك الاختيار ، وهو

(١) قال المراقى : أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر ، أورده العقيلي في ترجمة

عبد الله بن عبد الله الاموى ، وقال : لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان في الثقات و قال يخالف في روايته .

إشارة إلى الدرجة الثانية ، وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه . الثالثة وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله في حركاته و سكناته مثل الميِّت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يزى نفسه ميتاً و تحرُّكه القدرة الأزليَّة كما تحرُّك يد الغاسل الميِّت ، وهو الذي قوي يقينه بأنه مجرى الحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات وأنَّ كلَّه يحدث جبراً فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه و يفارق الصبيِّ فإنَّ الصبيِّ يفرع إلى أمِّه ويصيح ويتعلَّق بذيلها ويعدو خلفها ، بل مثال هذا مثال صبيِّ علم أنه وإن لم يزق بأمِّه فالأمُّ تطلبه ، وإن لم يتعلَّق بذيل أمِّه فالأمُّ تحمله ، وإن لم يسأل اللبن فالأمُّ تقاتحه وتسقيه ، وهذا المقام في التوكل يشمر ترك الدُّعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطي ابتداءً أفضل وأكثر ممَّا يسأل ، فكم من نعمة ابتدأها قبل الدُّعاء وقبل الاستحقاق ، والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدُّعاء و السؤال منه وإنَّما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط .

فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها ؟ فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنَّه عزيزٌ نادرٌ والمقام الثاني والثالث أعزُّها ، والأوَّل أقرب إلى الامكان ، ثمَّ إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون المقام الثالث إلا كصفرة الوجل فإنَّ انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوَّة والأسباب طبع و انقباضه عارض كما أنَّ انبساط الدَّم في جميع الأطراف طبع و انقباضه عارض والوجل عبارة عن انقباض الدَّم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتَّى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت تتراعى من وراء الرقيق من ستر البشرة فإنَّ البشرة ستر رقيق تتراعى من وراءه حمرة الدَّم فانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم فكذلك انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوَّة و سائر الأسباب الظاهرة لا يدوم ، وأمَّا المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنَّه قد يدوم يوماً ويومين والأوَّل يشبه صفرة مريض استحکم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول .

فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير و تعلُّق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أنَّ المقام الثالث ينفي التدبير رأساً مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمبهوت

والمقام الثاني ينبغي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهاال كتدبير
الطفل في التعلق بأمه فقط. والمقام الأول لا ينبغي أصل التدبير والاختيار ولكن
ينبغي بعض التدبيرات كالتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من غير جهة
الوكيل ، ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به ، أو التدبير الذي عرفه من
عاداته وسنته دون تصريح بإشارته ، فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له : لست
أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضاً لتوكله
عليه إذ ليس هو فزعاً منه إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجّة وإلى حول غيره ، بل
من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً له في قوله
لما حضر بقوله ، وأما المعلوم بعاداته واطراد سنته فهو أن يعلم من عاداته أنه لا يحتاج
الخصم إلا من السجل فتمام توكله إن كان متوكلاً عليه أن يكون معولاً على سنته
وعاداته ووافياً بمقتضاها وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند خاصمته فإنه
لا يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ولو ترك شيئاً من ذلك
كان نقصاً في توكله فكيف يكون فعله نقصاً فيه نعم بعد أن حضره وفاء بإشارته وأحضر
السجل وفاء بسنته وعاداته وقعدناظر إلى حاجته فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث
في حضوره حتى يبقى كالمجهول المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة
وقد كان فزعه إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته
وقد انتهى إلى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري .
وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط
التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو
على الانقسام وسياقي تفصيله في الأعمال فإنه فزع المتوكل إلى حوله وقوته في الحضور
والإحضار لا يناقض التوكل ، لأنه يعلم أنه لو لا الوكيل لكن حضوره وإحضاره
باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى ، فإنه لم يصبر مفيداً من حيث إنه حوله وقوته ، بل
من حيث إن الوكيل جعله معتمداً لم حاجته وعرفه ذلك بإشارته وسنته فإنه لا حول
ولا قوة إلا بالوكيل ، إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس

خالقاً حوله و قوته بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما و لم يكونا مفيدين لو لا فعله و إنما يصدق ذلك في حق الوكيل المطلق الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد ، فاذن لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً فمن شاهد هذا كذلك كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار في من يقول : « لا حول و لا قوة إلا بالله » و ذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب العظيم بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان و سهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ، و هيات فإنا ذلك جزاء المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد و نسبة هذه الكلمة و ثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله و ثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى إذ في هذه الكلمة إضافة لشئئين إلى الله تعالى فقط وهو الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة للكل إليه فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شئئين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا ، و كما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين و لبين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات ، و أكثر الخلق قد قيدوا بالقشرين و ما نظروا إلى اللبين و إلى اللبين الإشارة بقول النبي ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله صادقاً من قلبه مخلصاً و جيت له الجنة »^(١) و حيث أطلق من غير ذكر الصديق والإخلاص أراد بالمطلق المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع ، وأضاف إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع و المراد به المقيد بالعمل الصالح ، فالملك لا ينال بالحديث وحرارة اللسان حديث و عقد القلب أيضاً حديث و لكنه حديث النفس ، و إنما الصديق والإخلاص وراهما ولا ينصب سرير الملك إلا للمقرئين وهم المخلصون نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضاً درجات عند الله و إن كانت لا تنتهي إلى الملك أما ترى أن الله تعالى لما ذكر في سورة الواقعة المقرئين السابقين تعرض لسرير الملك فقال : « على سرر موضونة تمسكون عليها متقابلين »^(٢) ولما انتهى إلى أصحاب اليمين ما زاد على ذكر

(١) أخرجه الطبراني من حديث زيد بن ارقم . (المعنى)

(٢) الواقعة : ١٦ و ١٧ .

الماء والظل والفواكه والأشجار والحدائق والحيوانات المنظورة والمشروب والمأكول والمنكوح ويتصور ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذات الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ، ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة أفترى أن أحوال البهائم وهي مسيئة في الرياض ، متمتعة بالمياه والأشجار وأصناف المأكولات ، متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى والذئ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوي الكمال مغبوبة من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار الله في أعلى عليين ، هيهات هيهات ما أبعد عن التحصيل من إذا خسر بين أن يكون حماراً أو يكون في درجة جبرئيل فيختار درجة الحمار على درجه جبرئيل ، وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه وأن النفس التي يكون نزوعها إلى صنعة الأساكفة^(١) أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة فهي بالأساكفة أشبه في جوهرها منها بالكتابة ، وكذلك من كان نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء هم الذين يقال فيهم أولئك كالأنعام بل هم أضل وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة فتركها ذلك للعجز ، وأما الإنسان فقي قوته تلك والقادر على نيل الكمال أخرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال ، وإذا كان هذا كلاماً معترضاً فلنرجع إلى المقصود فقد بينا معنى قول : « لا إله إلا الله » و معنى قول « لا حول ولا قوة إلا بالله » وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل .

فإن قلت : أليس في قولك « لا حول ولا قوة إلا بالله » إله نسبة شيئين إلى الله فلو قال : قائل السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟

فأقول : لا ، لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة وإن جاز وصفهما بالصغر تجوئاً فليست الأولى وبالعظم الأشخاص ، بل كل عامي يفهم أن الأرض والسماء ليس

(١) الاسكاف - بالكسر - : صانع الغفاف جمعه أساكفة .

من جهة الآدميين بل من خلق الله فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعي أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشقّ الشعر بحدّة نظره فهي مهلكة خطيرة ومزلّة عظيمه هلك فيها الغافلون إذا أثبتوا لأنفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد وإثبات خلق لغير الله فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته وهو الذي يصدق قول « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، وقد ذكرناه أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان : إحداهما النظر إلى السماء والأرض والشمس والقمر والغيوم والمطر وسائر الجمادات ، والثانية النظر إلى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرهما وكأنه كمال سرّ التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعني ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها فاذن رجع حاصل التوكل إلى التبرّي من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحقّ وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل .

أقول : ثم ذكر أبو حامد فصلاً في بيان ما قاله الشيوخ في حال التوكل ولما لم يكن فيه مزيد فائدة على ما حققه في معناه طويناه . قال :

﴿ بيان أعمال المتوكلين ﴾

إعلم أن العلم يورث الحال والحال يثمر الأعمال وقد يظنّ أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة واللحم على الوضوء وهذا ظنّ الجهال فإنّ ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدّين بمحظورات الدّين بل تكشف الغطاء عن الحقّ فيه ونقول : إنّما يظهر تأثير التوكل في حرّكة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده وسعي العبد باختياره إمّا أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالإدّخار أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالإدّواي من المرض ، فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضارّ أو قطعه فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كلّ واحد منها مع شواهد الشرع .

الفن الأول في جلب النافع و نقول فيه: الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظناً يوثق به وموهم وهماً لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه .

الدرجة الأولى المقطوع به وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف كما إذا كان الطعام موضوعاً بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنتك لست تمد إليه اليد وتقول : أنا متوكل وشرط التوكل ترك السعي و مد اليد إليه سعي و حركة ، وكذلك مضغه بالأسنان و ابتلاعه باطباق أعالى الحنك على أسافله ، فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء ، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شعباً دون الخبز أو يخلق في الخبز حركة إليك أو يسخر ملكاً ليمضغه و يوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله وكذلك لولم تزرع الأرض فطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر ، أو تلدزوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم ، فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر و لا يمكن إحصاءه فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم ، أما العلم فهو أن الله خالق الطعام واليد و الأسنان وقوة الحركة وأنه يطعمك ويسقيك ، وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك و اعتمادك على فضل الله تعالى لا على اليد و الطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحال و تغلج وكيف تعمل على قدرتك و ربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك وكيف تعمل على حضور الطعام و ربما يسلط الله من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مقامك وتفرق بينك وبين طعامك وإذا احتمل أمثال ذلك و لم يكن لها علاج إلا بفضل الله فبذلك فلتنفرح وعليه فلتتوكل وإذا كان هذا حاله وعلمه فيمد اليد إليه فإنّه متوكل .

الدرجة الثانية الأسباب التي ليست متيقنة، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها و كان احتمال حصولها دونها بعيداً كالذي يفارق الأمصار و القوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرعها الناس إلا نادراً ولا يكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطاً في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ولا يزول التوكل به

بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لاعلى الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز وهو من أعلى مقامات التوكل و لذلك كان يفعله الخواص .

فإن قلت : فهذا سعي في الهلاك و إلقاء النفس في التهلكة فاعلم أن ذلك يخرج من كونه حراماً بشرطين أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعاً فما يقاربه بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب وتشوش خاطر و تعذر في ذكر الله تعالى ، والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوى بالحشيش وما يتفق له من الأشياء الخسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجتري به فيحسب به مجاهداً نفسه ، و المجاهدة عماد التوكل ، وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين ، و الدليل عليه أن الخواص كان لا تفارقه الأبرة والمقراض والجبل والركوة ويقول : هذا لا يقدر في التوكل و سببه أنه علم أن البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض و ما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ، ولا يغلب وجود الجبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش ، و الماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرأت و لعطشه في كل يوم أو يومين مرأة فإن المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر على الماء ، وإن صبر عن الطعام وكذلك يكون له ثوب واحد وربما ينحرق فينكشف عورته ولا يوجد المقراض و الأبرة في البوادي غالباً عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شي ، مما يوجد في البوادي ، فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضاً لا يلتحق بالدرجة الأولى لأنه مظنون ظناً لا يقطع به لأنه يحتمل أن لا تنحرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوباً أو يجد على رأس البئر من يسقيه و لا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغاً إلى فيه ، فين الدرجتين فرق ولكن الثاني في معنى الأول و لهذا نقول : لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقة طارق فيه وجلس متوكلاً فهو آثم به ساع في إهلاك نفسه كما روي أن زاهداً من الزهاد فارق الأمصار و أقام في سفح جبل وقال : لأسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي فقام سبعة فمات ولم يأتيه رزق

فقال: يارب إن أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك فأوحى الله إليه وعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقع بين الناس ، فدخل المصر وأقام فجاءه هذا بطعام فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله إليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أنني أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي ، فاذن التباعد عن الأسباب كلها مراغبة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربنا مثلاً في الوكيل بالخصومة من قبل ، ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية ، فمعنى التوكل إلا كتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب الأسباب الخفية لا إلى السبب .

أقول: ليت شعري أي مدخل في خفاء الأسباب وجلالتها في التوكل بعد ما تقرّر أن معناه الثقة بالله وحده لا بالأسباب فسواء وجود الأسباب وقدها جلأوها وخفاؤها مع أن من جاهد نفسه وسواها بحيث يصبر على الجوع الأسبوع ويمكنه التقوى بالحشيش صارت الأسباب له جلية فإن عدم الحاجة أحد الغنائم فإن كانت ثقته حينئذ على صبره وتمكّنه من التقوى بالحشيش فلا توكل وإن كان إنما يثق بالله وحده فليقم في البلد مع الأسباب الجلية وليثق بالله دون الأسباب كما أمر الله به الزاهد الذي روى قصته أبو حامد آتفاً .

قال : فإن قلت : القعود في البلد بغير كسب أهو حرام أم مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكاً نفسه فهذا كيف كان مهلكاً نفسه حتى يكون فعله حراماً ، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه والصبر ممكن إلى أن يتفق ، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا يترك طريقاً لأحد إليه ففعله ذلك حرام ، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له أولى ولكن ليس فعله حراماً^(١) إلى أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال أو الكسب ، وإن

(١) بل صار ملعوناً لانه حينئذ كل على الناس .

كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب ليأتيه برزقه تطلعة إلى فضل الله واشتغاله بالله فهذا أفضل وهو من مقامات التوكل وهو أن يشتغل بالله ولا يهتم برزقه فإن الرزق يأتيه لا محالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه ، وإنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصياً ، ولقال له : يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ، ولذلك قال ابن عباس : اختلف الناس في كل شيء ، إلا في الرزق والأجل فإنهم أجمعوا على أن لا رازق ولا ممت إلا الله تعالى . وقال عليه السلام : «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً ولزالت بدعائكم الجبال» (١) وقال عيسى عليه السلام : «انظروا إلى الطير لا يزرع ولا يحصد ولا يدخر ولا يذخر والله تعالى يرزقها يوماً يوماً» فإن قلتم : نحن أكبر بطوناً فانظروا إلى الأنعام كيف قبض الله لها خلق . أقول : لعل أبا حامد إنما أورد أمثال هذه الأخبار والأقوال ليرد أهل الحرص إلى الاعتدال وإلا فلا ريب أن الإنسان مكلف بطلب الرزق بالأسباب التي هداه الله إليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك مما أحله الله وكما أن الصلاة والصيام والحج عبادات كلف الله بها عباده يتقربون بها إليه كذلك طلب الرزق الحلال عبادة كلفهم الله به ليتقربوا به إليه ولكنه سبحانه كلفهم أيضاً بأن لا يثقوا إلا به تعالى لا بما يستهم الأسباب كما أنه كلفهم الله بأن لا يتكلموا على أعمالهم الحسنة بل بفضل الله . قال رسول الله ﷺ : «العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال» (٢) «وأوحى الله إلى داود عليه السلام إنك نعم العبد لولا أنك تأكل من بيت المال ولا تعملن بيدك شيئاً فبكى داود أربعين صباحاً فألأن الله له الجديد» (٣) والأنبياء وأئمة الهدى سلام الله -

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٣١٨ وأحمد بدون قوله : «ولزالت بدعائكم الجبال» ورواه محمد بن نصر بهذه الزيادة وأدنى اختلاف في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٨ تحت رقم ٦ .

(٣) الكافي ج ٥ ص ٧٤ تحت رقم ٥ .

عليهم كانوا يعملون بأيديهم في طلب الرزق كما مر في كتاب أحكام الكسب ولو كان ترك الكسب خيراً لكانوا أولى به .

قال الصادق عليه السلام : « ليس منّا من ترك دنياه لأخرته ولا آخرته لدنيائه »^(١).

وسأل عليه السلام عن رجل فقيل : أصابته الحاجة قال : فما يصنع اليوم ؟ قيل : في البيت يعبد ربه ، فقال : من أين قوته ؟ قيل : من عند بعض إخوانه فقال عليه السلام : والله الذي يقوته أشد عبادة منه^(٢).

وقال له رجل : « لا أقعدن في بيتي ولا صلين ولا صومن ولا عبدن ربّي فأما رزقي فيسيأتيني فقال عليه السلام : هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم »^(٣).

و الأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، وقد روى أبو حامد أيضاً طرفاً منها في مواضعها وإنما خبل عقله و كياسته في أمثال هذا المقام لحسن ظنه بالسلف وزعمه أن ما انتهى إليه من أفعال متقشفتهم صحيح وأنهم قدوة وقد أخطأ في الجميع . قال : الدرجة الثالثة ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب و وجوهه فذلك يخرج بالكليّة عن درجات التوكل كلها ، وهو الذي فيه الناس كلهم أعني من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح فأما أخذ الشبهة أو الاكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهي مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب المنافع مثل نسبة الرقبة و الطيرة و الكي بالإضافة إلى إزالة الضار ، فإن النبي ﷺ وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يجلسون في الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئاً ، بل يصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب ، وأمثال هذه الأسباب التي لا يوثق

(١) الفقيه باب المعاش والمكاسب ص ٣٥١ تحت رقم ٢ .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٨ تحت رقم ٤ .

(٣) التهذيب ج ٦ كتاب المكاسب باب المكاسب تحت رقم ٨ عن الكليني (ره) و

رواه في الكافي ج ٥ ص ٧٧ تحت رقم ١ عن الصادق عليه السلام .

بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها وقال سهل في التوكل : إنه ترك التدبير ، وقال : إن الله خلق الخلق و لم يحجبهم عن نفسه وإنما حجابهم تدبيرهم . ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية فإذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج وأن الذي لا يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون و أن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل ، فأما لمظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً .

أقول : أراد بالعمل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب الأسباب كما قاله فيما قبل وقد عرفت ما فيمن الخطأ ، ثم ذكر درجات مقامات المتوكلين في ملاسة هذه الأسباب وبسط الكلام فيه بما لا طائل تحته ولا سيما بعد ما سمعت منّا ، ثم قال : فإن قلت : فالأفضل أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب ؟ فاعلم أنه إذا كان يتفرغ بترك الكسب لفكر و ذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل فيحمل إليه شيئاً بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله فالعودة له أولى وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب له أولى لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم .

أقول : بل الكسب أفضل له على التقديرين لأن قعوده في البيت تعرض للذل فإنه إن لم يسأل الناس بقلبه ولسانه فقد سألهم بحاله مع أنه ترك أفضل العبادة رأساً وربما يصير على الناس كلاً وبأساً وأنى له ذلك وقد عاتب الله تعالى داود عليه السلام على أكله من بيت المال^(١) كما مر ذكره قال الصادق عليه السلام : « إن استطعت أن لا تكون كلاً على الناس فافعل »^(٢).

(١) تقدم من الكافي ج ٥ ص ٧٤ تحت رقم ٥ .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٩ تحت رقم ٩ .

وقال : « قال رسول الله ﷺ : ملعون من ألقى كله على الناس » (١) .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام :

لنقل الصخر عن قلال الجبال ✽ أعز الي من منن الرّجال
يقول الناس لي في الكسب عار ✽ فقلت العارني ذلّ السّؤال (٢)

قال أبو حامد: فإذا ذن المكتسب إذا راعى آداب الكسب و شروط نيّته كما سبق في كتاب الكسب و لم يقصد الاستكثار و لم يكن اعتماده على بضاعته و كفايته كان متوكلاً ، فإن قلت : فما علامة عدم اتكاله على البضاعة و الكفاية ؟ فأقول : علامته أنّه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو يعوق أمر من أموره كان راضياً به و لم يبطل طمأنينته و لم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله و بعده واحداً ، فإن من لم يسكن إلي شيء لم يضطرب لفقده و من اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه ، و ما لم يكمل الايمان بأن لا فاعل إلا الله و لا رازق سواه و بأن كل ما يقدره على العبد من فقر و غنى و موت و حياة فهو خير له مما يتمناه العبد لنفسه لم يكمل حال المتوكل فبناء التوكل على قوة الايمان بهذه الأمور كما سبق و كذا سائر مقامات الدّين من الأحوال والأعمال تبثني على أصولها من الايمان ، وبالجملّة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب و قوة اليقين .

فإن قلت: فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة و حسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية ؟ فأقول : نعم أن تعرف أن سوء الظنّ تلقين الشيطان ، و حسن الظنّ تلقين الله ، قال الله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً » (٣) فالإنسان بطبعه مشعوفٌ بسمع تخويف الشيطان و لذلك قيل : الشفيق بسوء الظنّ مولع وإذا انضم إليه الجبن و ضعف القلب و مشاهد المتكلمين على الأسباب الظاهرة و الباعثين عليها

(١) المصدر ج ٥ ص ٧٢ تحت رقم ٧ .

(٢) ديوان المنسوب إليه رحمه الله حرف اللام .

(٣) البقرة : ٢٦٨ .

غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكليّة ، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضاً تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم فقال له : إمام المسجد لو اكتسبت لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد القول ثلاثاً فقال له في الرابعة : يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال : إن كان صادقاً في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك فقال : يا هذا لولم تكن إماماً تقف بين الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراً لك إذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله في الرزق . وقال : إمام مسجد لبعض المصلين من أين تأكل فقال : يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك .

أقول : قد عرفت أن الله سبحانه كما ضمن الرزق كذلك أمر بالطلب وملازمة الأسباب ثم لا يخفى ما في جواب هذين الرجلين من الرعونة وإدعائهما مقاماً عالياً من التوكل وتعجبهما أن يسأل مثلهما عن سبب رزقه ثم أي منافاة بين إمامة الصلاة والسؤال عن حال رجل مجهول ينادي ظاهره بالبؤس والبأس وأنه كمل على الناس بل ضارب على قلوبهم وبواطنهم في اللباس أنه من أي الجهات والأسباب يرزقه الله . قال أبو حامد : وينفع في حسن الظن بمجيء الرزق من لطف الله بواسطة الأسباب الخفية أن يسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الرزق إلى صاحبه وفيها عجائب قهر الله في إهلاك أموال التجار والأغنياء و قتلهم جوعاً كما روي عن حذيفة المرعشي وكان قد خدم إبراهيم بن أدهم ف قيل له : ما أعجب ما رأيت منه قال : لبثنا في طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً ، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلي إبراهيم وقال : يا حذيفة أرى بك أثر الجوع ، فقلت : هو كما رأى الشيخ فقال : ائمني بدواة و قرطاس فجئت بهما فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى .

| | | |
|----------------------------|---|----------------------------|
| أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر | ✽ | أنا جائع أنا ضائع أنا عادي |
| هي ستة وأنا الضمين لنصفها | ✽ | فكن الضمين لنصفها يا باري |
| مدحي لغيرك لهب نار خضتها | ✽ | فأجر عبيدك من دخول النار |

ثم دفع إلي الرقعة وقال : اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك ، فخرجت فأول من لقيني كان رجلاً على بغلة فناولته الرقعة فأخذها و نظر فيها وبكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة فقلت : هو في المسجد الفلاني فدفع إلي صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلاً آخر فسألته عن راكب البغلة فقال : هذا نصراني فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال : لا تمسها فإنه يجيئ الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصراني علينا فأكب على رأس إبراهيم فقبله وأسلم . ثم ذكر أبو حامد حكايات غريبة و روايات عجيبة من هذا القبيل . أقول : إن صحّت تلك الوقائع فهي مخصوصة بطوائف بلغوا من الرّياضة حدّاً لا يبلغ إليه من ألف ألف إلا واحد أو اثنان ثم بعد يبقى النظر في أنّه هل هو محمود أم لا ولا يجوز تكليف عامة الناس بذلك من غير إذن من الشرع ولا إذن بل ورد الأمر بخلافه .

ثم أخذ أبو حامد في بيان توكل المعيل و الفرق بينه و بين المنقرد و بسط القول فيه بما لا طائل تحته واشترط في صحّة توكل المنقرد أن يطيب نفساً بالموت إن لم يأت رزقه علماً بأنّ رزقه الموت والجوع ، قال : وهو وإن كان نقصاناً في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنّه سبق إليه خير الرّازقين له وهو رزق الآخرة وأنّ هذا هو المرض الذي يموت به فيكون راضياً بذلك وأنّه كذا قضى و قد رغبنا في التوكل . أقول : لا يخفى فساد هذا القول فإنّ توطئ النفس على الموت اختياراً آمنه عنه شرعاً فإنّه تعزيز بالنفس وتعرض للهلاك قال الله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (١) .

ثم قال : بل التحقيق أنّه لا فرق بينه و بين عياله فإنّ إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة و على الاعتداد بالموت على الجوع رزقاً و غنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ، ونفسه أيضاً عيال عنده ولا يجوز له أن يضيقها إلا بأن تصاعده على الصبر مع الجوع مدة فإن كان يطيقه ويضطر به عليه قلبه ويتشوّش عبادته لم يجز

له التوكل .

ثم قال : وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعاً عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرّضا بالموت إن تأخر الرّزق نادراً وملازمة الأمصار والبلاد أو ملازمة البوادي التي لا تخلو من حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا ذلك أسباباً لضعف إيمانهم وشدّة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدّنيا لأجل الآخرة وجبن قلوبهم .

أقول: بل التوكل ليس إلا الاعتماد على الله تعالى و مباشرة الأسباب جليلة كانت أو خفية من دون اعتماد عليها كما عرفت ، ثم بعد كلام كثير من هذا القبيل ضرب مثلاً لأحوال المتوكلين في التعلّق بالأسباب موافقاً لما بنى عليه كلامه في التوكل ولمّا لم يكن في ذكر أمثال هذه الترهّات والتعرّض لها فائدة طويناها وضرّبنا عنها صفحاً واكتفيينا بماحقّقنا سابقاً مطابقاً لما استفدناه من أئمة الهدى سلام الله عليهم .

❦ (الفن الثاني في التعرّض لأسباب الادخار) ❦

فمن حصل له مال بارت أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في أدّخاره ثلاثة أحوال : الأولى أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعاً ويلبس إن كان عارياً ويشترى مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً إليه ويفرق الباقي في الحال أولاً يأخذه ولا يدّخره إلا القدر الذي يدرك به من يستحقّه ويحتاج إليه فيدّخره على هذه النية فهذا هو الوفاء بموجب التوكل تحقيقاً وهي الدّرجة العليا .

الحالة الثانية والدّرجة المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدّخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من المتوكلين أصلاً ، فقد قيل لا يدّخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفارة ، والنملة ، وابن آدم .

الحالة الثالثة والدّرجة الوسطى أن يدّخر لأربعين يوماً فما دونه فهذه هل يوجب حرمانه عن المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين ؟ اختلفوا فيه .

أقول : ثم ذكر أبو حامد اختلاف الناس في مدّة الادّخار المنافي للتوكل

وتفاوت الناس في قصر الأمل وطوله وبسط الكلام في ذلك بما لا طائل تحته .
ثم قال : وليس الكوز و السفرة و ما يحتاج إليه . على الدوام في معنى ذلك
فأدّ خارّه لا ينقص الدرجة و أمّا ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف و هذا في حقّ
من لا ينزعج قلبه بترك الأدّ خار و لا يستشرف نفسه إلى أيدي الخلق بل لا يلتفت
قلبه إلّا إلى الوكيل الحقّ ، فان كان يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة
والذكّر والفكر فالأدّ خار له أولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافياً بقدر كفايته
وكان لا يتفرّغ قلبه إلّا به فذلك له أولى لأنّ المقصود إصلاح القلوب ليتجرّد لذكر
الله ، وربّ شخص يشغله وجود المال وربّ شخص يشغله عدمه ، والمحذور ما يشغله
عن الله وإلّا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله
ﷺ إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون و أهل الحرف و الصناعات فلم
يأمر التاجر بترك تجارتهم ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما
بل دعا الكلّ إلى الله وأرشدهم إلى فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى
الله و عمدة الاشتغال بالله تعالى هو القلب فصواب الضعيف أدّ خار قدر حاجته كما أنّ
صواب القوي ترك الأدّ خار ، وهذا كلّ حكم المنفرد فأما المعيل فلا يخرج عن حدّ
التوكل بادّ خار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وادّ خار أكثر من
ذلك مبطل للتوكل لأنّ الأسباب تتكرّر عند تكرّر السنين فأدّ خار ما يزيد عليه
سببه ضعف القلب ، وذلك يناقض قوّة التوكل ، فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب
مطمئنّ النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدييره دون وجود الأسباب الظاهرة و قد
أدّ خار رسول الله ﷺ لعياله قوت سنة^(١) ، ونهى أمّ أيمن وغيرها عن أن تدّ خار شيئاً
لغد^(٢) و كان ﷺ لو أدّ خار لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما أدّ خارّه
واكتنّه ترك ذلك تعليماً للأقوياء من أمته فإنّ أقوياء أمته ضعفاء بالاضافة إلى قوّته
و أدّ خار لعياله سنة لالضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليسنّ ذلك للضعفاء من أمته

(١) أخرجه الترمذى من حديث أنس و قد تقدم .

(٢) قد تقدم و راجع مسند أحمد ج ٦ ص ٢٩٣ من حديث أم سلمة .

ثم أخبر « ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى غرائمه » ^(١) تطيباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات فما أرسل ﷺ إلا راحة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم فاذا فهمت هذا علمت أن الأذى قد يضر بعض الناس وقد لا يضر .

﴿ الفن الثالث في مباشرة الاسباب الدافعة للضرر المتعرض للخوف ﴾

اعلم أن الضرر قد يتعرض للخوف في نفس أو مال و ليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجرى السيل من الوادي أو تحت الجدار المائل أو السقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه و صاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة ، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها و إلى مظنون و إلى موهوم فترك الموهوم منها من شرط التوكل و هي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرؤية فإن الكي والرؤية قد يقدم على المحذور دفعاً لما يتوقع ، فقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة و رسول الله ﷺ لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرؤية والطيرة ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة والجبة تلبس دفعاً للبرد المتوقع و كذلك كل ما في معناها من الأسباب ، نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلاً عند الخروج للسفر في الشتاء تهيجاً لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الاسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة و لترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة بها وجه إذا نال الضرر من إنسان فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال تعالى : « فاتّخذه وكيلاً واصبر على ما يقولون » ^(٢) و قال : « و لنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ^(٣) و قال : « ودع أذيهم و توكل على الله » ^(٤) و قال : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ^(٥) و قال :

(١) أخرجه أحمد و البيهقي من حديث ابن عباس وعن ابن مسعود بسند ضعيف كما

في الجامع الصغير .

(٢) الزمل : ١٠ .

(٣) ابراهيم : ١٢ .

(٥) الاحقاف : ٣٥ .

(٤) الاحزاب : ٤٨ .

« نعم أجر العاملين الذين صبروا و على ربهم يتوكلون » (١) و هذا في أذى الناس ،
 وأما الصبر على أذى السباع و الحيات و العقارب و ترك دفعها ليس من التوكل في
 شيء ، إذ لا فائدة فيه ولا يراد السعي ولا ترك السعي لعينه بل لا عاقبة على الدين
 وترتب الأسباب ههنا كترتبها في الكسب و جلب المنافع فلا تطول بالإعادة ، و كذلك
 في الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بها غلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل
 البعير لأن هذه الأسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً ولذلك قال وَاللَّهُ يَكْفِيكَ
اللَّاعْرَابِي لما أن أهمل البعير و قال : توكلت على الله . فقال : « أعقلها و توكل » (٢)
 و قال تعالى : « خذوا حذركم » (٣) و قال في كيفية صلاة الخوف : « وليأخذوا حذرهم
 و أسلحتهم » (٤) و قال : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل » (٥)
 و قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ « فاسر بعبادي ليلاً » (٦) و التحصين بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ،
 و نوع تسبب و اختفى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار اختفاءً عن أعين الأعداء دفعاً للضرر . و أخذ
 السلاح في الصلاة فليس دافعاً قطعاً كقتل الحية و العقرب فإنه يكون دافعاً قطعاً
 و لكن أخذ السلاح سبب مظنون و قد بينا أن المظنون كالمقطوع به ، و إنما الموهوم
 هو الذي يقتضي التوكل تركه .

فان قلت : فقد حكى عن جماعة أن الأسد وضع يديه على كتفيه ولم يتحرك ؟
 فأقول : و قد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد و سخره و لا ينبغي أن يعول على
 ذلك فإنه وإن كان صحيحاً في نفسه فلا يصلح الاقتداء بطريق التعلم من الغير
 بل ذلك مقام رفيع في الكرامات و ليس ذلك شرطاً في التوكل و فيه أسرار لا تتقف
 عليها ما لم تنته إليها .

فان قلت : وهل من علامة أعلم بها أنني قد وصلت إليها ؟ فأقول : الواصل
 لا يحتاج إلى طلب العلامات و لكن من العلامات السابقة عليه أن يسخر لك كلب

(١) النحل : ٤١ و ٤٢ .

(٢) رواه الترمذى من حديث أنس .

(٣) النساء : ٧١ .

(٤) النساء : ٧٢ .

(٥) الانفال : ٦٠ .

(٦) الدخان : ٢٣ .

هو معك في إهابك يسمى الغضب فلا يزال يعضك و يعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستعمل إلا بإشارتك و كان مسخرأ لك فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع و كلب دارك أولى بأن يكون مسخرأ لك من كلب البوادي و كلب إهابك أولى بأن يتسخر لك من كلب دارك فان لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخر الكلب الظاهر .
فان قلت : فاذا أخذ المتوكل سلاحه حذراً من العدو و أغلق بابه حذراً من اللص و عقل بعيره حذراً من أن ينطلق فبأي اعتبار يكون متوكلأ .

فأقول : يكون متوكلأ بالعلم والحال فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه فكم من باب يغلق ولا ينفع و كم من بعير يعقل و يموت أو ينفلت و كم من أخذ سلاح يغلب و يقتل فلا تتشكل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبب الأسباب كما ضربنا المثل في المتوكل بالخصومة ، فانه و إن حضرو أحضر السجل فلا يتشكل على نفسه و على سجله بل على كفاية الوكيل وقوته ، و أما الحال فهو أن يكون راضياً بما يقضي الله به في بيته و نفسه و يقول : اللهم إن سلطت علي ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك فاني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أوعارية أو ودعة فنستردّها ولا أدري أنها رزقي أو سبقت مشيتك في الأزل بأنه رزق غيري و كيف ما قضيت فأنا راض به و ما أغلقت الباب تحصناً من قضاائك وتسخطأله بل جرياً على مقتضى سنتك في ترتيب الأسباب فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب ، فاذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير و أخذ السلاح وإغلاق الباب ، ثم إذا عاد فوجد ما في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله و إن لم يجده بل وجده مسروقاً نظر إلى قلبه ، فان وجده راضياً أو فرحاً بذلك عالمأ بأنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل و ظهر له صدقه ، و إن تألم قلبه به و وجد قوة الضرب فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل لأن التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد إلا بمن لا يتأسف على ما فات

من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل قد يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل نعم قد صح له مقام الصبر إن أخفاه و لم يظهر شكواه و لم يكثر سعيه في الطلب والتجسس و إن كان لا يقدر على ذلك حتى تأذي بقلبه و أظهر الشكوى بلسانه و استقصى الطلب بنفسه فقد كانت السرقة مزيداً له في ذنبه من حيث أنها ظهر له قصوره عن جميع المقامات و كذبه في جميع الدعاوي فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها فإنها خداعة أمارة بالسوء ومدعية للخير .
فإن قلت : فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل فيها و كوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه و جراب يحفظ به زاده و عصا يدفع به عدوه و غير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت و قديد دخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه فلا يكون أدخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه و الجراب الذي فيه زاده و إنما ذلك في المأكول و في كل مال زائد على قدر الضرورة لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد و ما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع والخروج عن سنة الله ليس شرطاً في التوكل .

فإن قلت : فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه فإن كان لا يشتهي فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن أمسكه لأنه يشتهي له حاجته إليه فكيف لا يتأذى ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهي؟ فأقول : إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذا كان يظن أن الخير له في أن يكون له ذلك المتاع و لولا أن الخير له فيه لما رزقه الله ولما أعطاه فاستدل على ذلك بتفسير الله و حسن الظن بالله مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه و لم يكن ذلك عنده مقطوعاً به إذ يحتمل أن يكون خيرته في أن يبتلى بفقد ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر ، فلما أخذه الله منه بتسليط اللص ما تغير قلبه لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول : لولا أن الله تعالى

علم أن الخير لي كانت في وجودها إلى الآن والخير لي الآن في عدمها لما أخذها مني وبمثل هذا يتصور أن يندفع الحزن عنه إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بالأسباب من حيث أنها أسباب بل من حيث أنه يسرها مسبب الأسباب عناية به و تلطفاً و هو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فإن قدم إليه الغذاء فرح وقال: لولا أنه عرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قدمه إليّ وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضاً فرح وقال: لولا أن الغذاء يضرني و يسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه ، و كل من لا يعتقد في لطف الله ما يعتقد المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلاً و من عرف الله و عرف أفعاله و عرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فإنه لا يدري أي الأسباب خير له وكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل بسرقة متاعه أو ببقائه فإنه لا يدري أيهما خير له في الدنيا و في الآخرة ، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان و كم من غني يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول : ياليتني كنت فقيراً .

أقول: ثم ذكر أبو حامد آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم ولما لم يكن لها كثير فائدة ولا خصوص مناسبة لباب التوكل طويناها .

﴿الغن الرابع السعي في إزالة الضرر كمداداة المرض وغيرها﴾

إعلم أن الأسباب المزيل للضرر أيضاً تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل للضرر العطش والخبز المزيل للضرر الجوع و إلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب المسهل و سائر أبواب الطب أعني معالجة البرودة بالحرارة ومعالجة الحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب و إلى موهوم كالكي و الرقية أما المقطوع به فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت ، و أما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله ﷺ المتوكلين وأقواها الكي و يليه الرقية و الطيرة آخر درجاتها و الاعتماد عليها و الاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب ، و أما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضاً للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظوراً بخلاف المقطوع به بل قد يكون أفضل

من فعله في بعض الأحوال وفي حق بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين ويدل على أن التداعي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به أمّا قوله فقد قال ﷺ : « ما من داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام »^(١) يعني الموت ، وقال : « تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء »^(٢) وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله تعالى فقال : « هي من قدر الله تعالى »^(٣) وفي الخبر المشهور فما مررت بملاً من الملائكة إلا قالوا مرأمتك بالحجامة »^(٤) وفي الحديث أنه أمر بها وقال : « احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبّخ بكم الدّم فيقتلكم »^(٥) فذكر أن تبّخ الدّم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله وبيّن أن إخراج الدّم خلاص منه إذ لا فرق حينئذ بين إخراج العرق من تحت الثياب وبين إخراج الدّم المهلك من الإهاب وإلى إخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل هو كصب الماء على النار لا طفاؤه ودفع ضررها عند وقوعها في البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلاً ، وفي خبر مقطوع « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة »^(٦) .

(١) أخرجه أحمد ج ١ ص ٣٧٧ و ٤١٣ دون قوله « إلا السام » و رواه البزار

بتسامه والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري كما في مجمع الزوائد ج ٥ ص ٨٤ .

(٢) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٩٢ وابن ماجه تحت رقم ٣٤٣٦ بنحوه .

(٣) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ٢٢٤ من حديث أبي حزيمة عن أبيه .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٤٧٩ من حديث أنس .

(٥) راجع مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٣ نقله عن البزار في مسنده بتسامه . وأخرجه

الطبراني تحت رقم ٢٦٦٦ من حديث عكرمة عن ابن عباس هكذا « خير ما تعجمون

فيه سبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين » وأخرجه أحمد هكذا ج ١ ص ٣٥٤ .

(٦) رواه الطبراني مسنداً وفيه زيد بن أبي الحواري وهو ضعيف وقد وثقه الدارقطني

وغيره كما في مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٣ .

وأما أمره فقد أمر عليه السلام غير واحد من الصحابة بالتداوي والحمية ^(١). وقطع لسعد بن معاذ عرقاً أي فصدته ^(٢) وكوى سعد بن زرارة ^(٣)، وقال لعلي عليه السلام وكان رمد العين : لا تأكل من هذا يعني الرطب وكل من هذا فإنه أوفق لك يعني سلقاً قد طبخ بدقيق أو شعير ^(٤) وقال لصبيب وقد رآه يأكل التمر وهو رمد العين الواحدة : أتأكل تمرأ وأنت رمد ؟ فقال إنما آكل بالجانب الآخر فتبسم عليه السلام ^(٥). وأما فعله فقد روي في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ^(٦) قيل السناء المحكي ، وتداوى عليه السلام غير مرة من العقرب وغيرها ^(٧) وروي أنه كان إذا نزل عليه الوحي تصدع رأسه فكان يغلفه بالحناء ^(٨) وفي خبر آخر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء ^(٩) وقد جعل على قرحة خرجت به تراباً ^(١٠) وما روي في تداويه وأمره

(١) أخرج الترمذي من حديث اسامة بن شريك قال قالت الاعراب : يا رسول الله ألا تتداوى قال : نعم يا عباد الله تداووا - الغبر - ، وراجع سنن ابن ماجه كتاب الطب باب الحمية .

(٢) أخرجه مسلم ، و رواه البقوى في المصاييح ج ٢ ص ١٣١ .

(٣) رواه البقوى في المصاييح ج ٢ ص ١٣٢ .

(٤) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٩٠ من حديث أم المنذر ، و قال : حسن غريب .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٤٤٣ .

(٦) قال العراقي : أخرجه ابن عدي من حديث عائشة بسند فيه سيف بن محمد كذبه أحمد و يحيى بن معين .

(٧) قال العراقي : روى الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الازرق « أن رسول الله لدفته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس - الحديث » وله في الاوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس « أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا اشتكى تقمح كفأ من شونيز و يشرب عليه ماء و عصلا » و لا يبي على و الطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر « أن النبي صلى الله عليه وآله احتجم بعد ماسم » .

(٨) رواه البزار كما في مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٥ .

(٩) رواه ابن ماجه تحت رقم ٣٥٠٢ ، والترمذي ج ٨ ص ٢١١ .

(١٠) رواه البخاري ج ٧ ص ١٧٢ ، و مسلم ج ٧ ص ١٧ .

بذلك كثير خارج عن الحصر و قد صنف في ذلك كتاب وسمي طب النبي ﷺ .
 وذكر بعض العلماء في الاسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه
 بنو اسرائيل فعرفوا علته فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرأت فقال : لا أتداوي حتى
 يعافيني من غير دواء ، فطالت علته فقالوا له : إن دواء هذه العلة معروف مجرب وإنما
 نتداوي به فبرأ ، فقال : لا أتداوي فدامت علته فأوحى الله إليه وعزتي و جلالتي لا
 أبرأتك حتى تتداوي بما ذكره لك ، فقال لهم : داووني بما ذكرتم فداوده فبرأ ،
 فأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله إليه أردت أن تبطل حكمتي بنوكلك علي فمن
 أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟

و يروى في آخر أن نبياً من الأنبياء شكوا علة يجدها فأوحى الله إليه كل
 البيض^(١) . وشكاني^(٢) آخر الضعف فأوحى الله إليه كل اللحم باللبن فإن فيهما القوة^(٣)
 قيل : هو الضعف عن الجماع .

و قد روي أن قوماً شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم
 أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد . ويفعل ذلك في الشهر الثالث
 والرابع إذ فيه يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبالى السفرجل والنفساء
 الرطب ، فبذا يتبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب
 إظهاراً للحكمة والأدوية أسباب مسخرة لحكمة الله تعالى كسائر الأسباب ، فكما
 أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجيين دواء الصفراء و السقمونيا
 دواء الإسهال لا يفارقه إلا في أمرين أحدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز
 جلي واضح يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجيين يدركه بعض الخواص
 فمن أدركه بالتجربة النحى في حقه بالأول . والثاني أن الدواء يسهل والسكنجيين
 يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على
 جميعها و ربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال ، وأما زوال العطش
 فلا يستدعى سوى الماء شروطاً كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب دوام العطش

(١) و (٢) الكافي ج ٦ ص ٣٢٥ و ٣١٦ .

مع كثرة شرب الماء و لكنّه نادر واختلاف الأسباب أبدأ ينحصر في هذين الفئتين و
إلا فالمسبّب يتلوا السبب لاحالة مهماتمت شروط السبب ، و كل ذلك بتدبير مسبّب
الأسباب و تسخير و ترتيبه بحكم حكمته و كمال قدرته ، فلا يضر المتوكل استعماله
مع النظر إلى مسبّب الأسباب دون الطبيب و الدّواء ، و قد روي عن موسى عليه السلام
أنّه قال : يا ربّ تمنّ الدّاء و الشفاء فقال تعالى : منّي قال : فما يصنع الأطباء ؟
قال : يأكلون أرزاقهم و يطيبون نفوس عبادي حتّى يأتي شفائي أو قبضي ، فإذن معنى
التوكل مع التداوي التوكل بالعلم و الحال كما سبق في فنون الأعمال الدّافعة للضرر
و الجالبة للنتع فأما ترك التداوي رأساً فليس شرطاً فيه .

فإن قلت : فالكيّ أيضاً من الأسباب الظاهرة للنتع ؟ فأقول : ليس كذلك إذ
الأسباب الظاهرة مثل القصد و الحجامة و شرب المسهل و سقي المبردات للمحرور و أمّا
الكيّ فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه ، و قلما يعتاد الكيّ في
أكثر البلاد و إنّما ذلك عادة بعض الأتراك و الأعراب فهي من الأسباب الموهومة
كالرقيّ إلا أنّه تميّز عنها بأمر هو إحراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه فإنّه
ما من وجع يعالج بالكيّ إلا وله دواء ينوب عنه ليس فيه إحراق فلا إحراق بالنار
جرح مؤلم مخرب للبنية مخذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف القصد و الحجامة
فإنّ سرايتهما بعيدة ولا يسدّ مسدّهما غيرهما و لذلك نهى عليه السلام عن الكيّ دون
الرقيّ ^(١) و كل واحد منهما بعيد عن التوكل و روي أنّ عمران بن الحصين اعتلّ
فأشاروا إليه بالكيّ فامتنع فلم يزالوا به و عزم عليه الأمر حتّى اكنوى و كان يقول :
كنت أرى نوراً و أسمع صوتاً و تسلم عليّ الملائكة فلما اكنويت انقطع ذلك عني
و كان يقول : اكنويتا كيّات فو الله ما أفلحن ولا أنجحن ، ثمّ تاب من ذلك و أناب
الله تعالى إليه ما كان يجد من أمر الملائكة ، وقال لمطرف بن عبد الله : ألم تر إلى

(١) راجع سنن الترمذی ج ٨ ص ٢٠٦ ، و سنن ابن ماجه تحت رقم ٣٤٩١ . و في
الصحيحين في كتاب الطب من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وآله في الرقية
من كل ذي حمة .

الكرامة التي كان أكرمني الله بها قدردها عليّ بعد أن كان قد أخبره بفقدها .
 فإذن الكيِّ و ما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالمتوكل لأنّه يحتاج في استنباطه
 إلى تدبير ثمّ هو موهوم فيدلّ ذلك على شدة ملاحظة الأسباب و على التعمّق فيها .
 أقول : ثمّ شرع أبو حامد في بيان أن ترك التداعي قد يحمّد في بعض الأحوال
 و يدلّ على قوّة التوكل و نقل عن جماعة من الأكابر أنّهم كانوا لا يتداوون أمراضهم
 كأبي الدرداء فإنّه قيل له في مرضه : ما تشكّي ؟ قال : ذنوبي ، قيل : فما تشتهي
 قال : مغفرة ربّي قالوا : ألا ندعوك طبيباً قال : الطبيب أمرضني ، قال : و ربّما
 يظنّ أن ذلك نقصان لأنّه لو كان كاملاً لتركه رسول الله ﷺ إذ لا يكون حال
 غيره في التوكل أكمل من حاله ، ثمّ أجاب عنه بأنّ لترك التداعي أسباباً ثمّ ذكر
 لذلك أسباباً و عللاً عليّة غير موجّهة إلّا ما يرجع إلى ماسبق ذكره من كون الدّواء
 موهوم النفع جاريّاً مجرى الكيِّ والرّقية فيتركه المتوكلون ثمّ شرع في بيان الرّدّ
 على من قال : إنّ ترك التداعي أفضل على كلّ حال ثمّ ذكر حكم التوكل في إظهار
 المرض و كتمانته و ختم به الكتاب و أطنب في ذلك كلّّه بما لا طائل تحته فنحن نطوي
 ذكر ذلك كلّّه لقلّة جدواه و بعد معناه عن طريقة أهل البيت عليهم السلام إلّا كلاماً واحداً
 ذكره في أثناء رده على من فضل ترك التداعي فإنّا نوردّه بالفاظه و نختم به الكتاب
 إن شاء الله تعالى .

قال : فإن قلت : فلم نهى عن الخروج من البلد الذي فيه الوباء و إنّ سبب
 الوباء في الطبّ الهواء و أظهر طرق التداعي الفرار من المضرّ و الهواء هو المضرّ فلم
 لم يرخّص فيه .

فاعلم أنّه لا خلاف في أنّ الفرار من المضرّ غير منهيّ عنه إذ الحجامة فرار من
 المضرّ و ترك التوكل في هذا مباح فهذا لا يدلّ على المقصود ولكنّ الذي ينقدح فيه
 والعلم عند الله إنّ الهواء لا يضرّ من حيث تلاقي ظاهر البدن من حيث دوام الاستنشاق
 له فإنّه إذا كانت فيه عفونة و وصل إلى الكبد والقلب ^(١) و باطن الأحشاء أثّر فيها بطول

(١) في الاحياء الى الرية و القلب .

الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخلص غالباً من الأثر الذي استحکم من قبل ولكنه يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقي والطيرة وغيرهما فلو تجرد هذا المعنى لكان مناقضاً للتوكل ولم يكن منهيّاً عنه ولكن صار منهيّاً عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقي في البلد إلا المرضى الذين أقعدهم المرض والطاعون وانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعبدین ، ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام ، وهم يعجزون عن مباشرة ذلك بأنفسهم فيكون ذلك سعيّاً في إهلاكهم تحقيقاً وخلاصهم منتظر كما أن خلاص الأصحاء أيضاً منتظر فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعاً بالموت ، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعاً بالخلاص وهو قاطع في إهلاك الباقيين ، والمسلمون كالبنيان يشدّ بعضهم بعضاً ، والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إلى سائر أعضائه فهذا هو الذي يتقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم على البلد فإنه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم نعم لو لم يبق في البلد إلا مطعونون وافترقوا إلى المتعبدین فقدم عليهم قوم ، فربما كان يتقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإغاثة ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ولهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار^(١) بالفرار من الزحف لأن فيه كسراً لقلوب بقية المسلمين و يصير سعيّاً في إهلاكهم ، فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما يسمعه و غلط الزهاد والعباد في مثل هذا يكثر وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك .

تم كتاب التوحيد والتوكل من المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوه كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس إن شاء الله تعالى .
و فرغ منه مؤلفه محسن بن مرتضى جعله الله من الموحدين المتوكلين والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين .

(١) تشبيه الفرار من الطاعون من الزحف أخرجه أحمد في مسنده ج ٦ ص ١٤٥

من حديث عائشة .

فهرست ما فى هذا المجلد

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| كتاب التوبة | |
| الرُّكن الأول فى نفس التوبة | ٥ |
| باب حقيقة التوبة و حدّها | ٥ |
| وجوب التوبة وفضلها | ٦ |
| بيان أنّ وجوب التوبة على الفور | ١٣ |
| وجوب التوبة عام* | ١٦ |
| بيان أنّ التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة | ٢٣ |
| الركن الثاني فيما عنه التوبة | ٢٨ |
| بيان اقسام الذنوب بالاضافة إلى صفات العبد | ٢٨ |
| بيان كيفية توزع الدرجات والدركات | ٤٢ |
| بيان ما تعظم به الصفائر من الذنوب | ٥٨ |
| الرُّكن الثالث فى تمام التوبة وشروطها ودوامه إلى آخر العمر | ٦٢ |
| بيان اقسام العباد فى دوام التوبة | ٧٩ |
| بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب | ٨٤ |
| الرُّكن الرابع فى دواء التوبة وطريق العلاج لحلّ عقدة الاصرار | ٩٠ |
| كتاب الصبر والشكر | |
| الشرط الأول فى الصبر | ١٠٥ |
| بيان حقيقة الصبر ومعناه | ١٠٩ |
| بيان كون الصبر نصف الإيمان | ١١٥ |
| بيان الأسامي التي تتجدّد للصبر بالاضافة إلى ماعنه الصبر | ١١٦ |

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| ١١٨ | بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف |
| ١٢١ | بيان مظان الحاجة إلى الصبر |
| ١٣٢ | بيان دواء الصبر و ما يستعان به عليه |
| ١٤٠ | الشرط الثاني من الكتاب في الشكر |
| ١٤١ | بيان فضيلة الشكر |
| ١٤٤ | بيان حد الشكر وحقيقته |
| ١٥١ | بيان كشف الغطاء عن الشكر في حق الله سبحانه |
| ١٦٠ | بيان تمييز ما يجب الله تعالى عما يكرهه |
| ١٧٥ | الركن الثاني من أركان الشكر |
| ١٧٥ | بيان حقيقة النعمة وأقسامها |
| ١٩٢ | بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله |
| ٢١٧ | بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر |
| ٢٢٤ | بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد |
| ٢٣٥ | بيان فضل النعمة على البلاء |
| ٢٣٧ | بيان الأفضل من الصبر والشكر |
| | كتاب الخوف والرجاء |
| ٢٤٩ | بيان حقيقة الرجاء |
| ٢٥٣ | بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه |
| ٢٥٦ | بيان دواء الرجاء والسبب الذي يحصل منه حال الرجاء |
| ٢٦٩ | الشرط الثاني من الكتاب في الخوف |
| ٢٦٩ | بيان حقيقة الخوف |
| ٢٧١ | بيان درجات الخوف واختلافه |

| الصفحة | الموضوع |
|--------------------------|--|
| ٢٧٣ | بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه |
| ٢٧٥ | بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه |
| ٢٨٢ | بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما |
| ٢٨٦ | بيان دواء الذي به يستجلب حال الخوف |
| ٢٩٣ | بيان معنى سوء الخاتمة |
| ٣٠٥ | بيان أحوال الأنبياء والأولياء والملائكة في الخوف |
| كتاب الفقر والزهد | |
| ٣١٤ | بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير |
| ٣١٩ | بيان فضيلة الفقر مطلقاً |
| ٣٢٤ | بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين |
| ٣٢٧ | بيان فضيلة الفقر على الغنى |
| ٣٣٠ | بيان آداب الفقير في فقره |
| ٣٣٢ | بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال |
| ٣٣٦ | بيان تحريم السؤال من غير ضرورة |
| ٣٤٢ | بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال |
| ٣٤٥ | الشرط الثاني من الكتاب في الزهد |
| ٣٤٥ | بيان حقيقة الزهد |
| ٣٥٠ | بيان فضيلة الزهد |
| ٣٥٧ | بيان درجات الزهد وأقسامه |
| ٣٦٤ | بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضرورات الحياة |
| ٣٦٩ | بيان علامات الزهد |
| ٣٧٠ | كلام الصادق عليه السلام في الزهد |

| <u>الموضوع</u> | <u>الصفحة</u> |
|---|---------------|
| كتاب التوحيد والتوكل | |
| بيان فضيلة التوكل | ٣٧٨ |
| بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل | ٣٨١ |
| الشرط الثاني من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله | ٤٠٥ |
| بيان حال التوكل . | ٤٠٥ |
| بيان أعمال المتوكلين وفيه أربعة فنون | ٤١٣ |
| الفن الأول في جلب النافع | ٤١٤ |
| الفن الثاني في التعرض لأسباب الأذى | ٤٢٣ |
| الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المتعرض للخوف | ٤٢٥ |
| الفن الرابع السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض وغيرها | ٤٢٩ |







